خطوات على الشلال إلى معبد أبو سنبل



بقلم : محمود تيمور

الموصول من « أسوان » الى « أبى سنبل » وسائل ثلاث :
الاوليان منها قائمتان فعلا ، ويمكن اتخاذ احداهما . والثالثة ما زالت فى طور الاعداد ، أو بالحرى فى عالم الغيب ، ولكنك على الرغم من ذلك قادر أن تضمها الى أختيها ، فكل ما كان فى عداد الآمال البعيدة أصبح سهل التحقيق ، ميسور الانفاذ ، ان لم تشهده اليوم فأنت شاهده فى غد قريب .

كل وسيلة من تلك الوسائل الثلاث لها مزايا وخصائص ، فالباخرة النيلية تحملك فى الذهاب والأوبة ثلاثة أيام على متن الماء ، كأنك فى فندق عائم ، تستمتع بنزهة ترفيهية مريحة . وفى الزورق الطائر « الهدروفيل » لا تلبث الا خمس ساعات فى الذهاب ومثلها فى الاياب . أما الوسيلة الثالثة المنتظرة فهى الطائرة ، واذا أنفذ مشروعها فلن تقطع فى الرحلة من الوقت الا بعض ساعة ..

واخترنا الزورق الطائر .

واجتمعنا نحن رفقة الزيارة فى بهو الفندق ، قبيل السحر ، وأقلتنا الحافلة الى المرفأ على مقربة من خزان « أسوان » ، والظلمة غاشية ، والسماء ترسل الينا من عليائها لمحات النجوم .

مثلنا أمام الزورق نتبينه على ضوء المصابيح ، لكأنه طائرة طافية بلا جناحين ، وهو حافلة نهرية تجرى على زلاجات فوق الماء ، فاذا مرقت حسبتها تسبح طائرة ، أو تطير سابحة .

ودخلنا جوفه ، واتخذنا مقاعدنا فيه ... ما أعجب أمره ، قاعاته على تعدد طبقاتها متصل بعضها ببعض ، فى هندسة لولبية طريفة .

وتحرك الزورق الطائر، على حين أومضت فى حواشى الأفق بواكير الفجر الجديد، فكسته صبغة أرجوانية هادئة .

ولم يمض طويل وقت ، حتى طالعتنا أنوار كهربية ساطعة من الشاطىء ،

تصحبها حركة فوارة ··· هذه منطقة السد ، لا يخبو لها ضوء ، ولا تسكن لها ضجة ، في ليل أو نهار ·

وواصلنا السير سراعا ، كأننا على موعد نخشى أن نخلفه ، وطلع الفجر يزف الينا ضوء الصباح ، فاستبانت لنا الدنيا من حولنا ، واذا نحن نرى قرى ناصعة البياض ، قابعة على النيل ، ما أشبهها بطيور جاثمة حطت رحالها بعد طول طواف ·

وانفسح مجرى النيل ، فغدا بحرا عريضا ، واشتد سطوع الضوء ، وان لم يظهر من قرص الشمس الا أشعة تترامى من وراء التلال في حذر واحتراس ·

وتكاثرت صخور الشلالات القديمة على النهر ، كأنها غصة في حلقه يضيق بها أيما ضيق ·

وبعد حين أخذ قرص الشمس يتسامى على التلال ، ويعلن سطوته واقتداره ويرينا في وضوح تلك القرى البيض بمعالمها وبما تضم من قصور شعبية رحيبة ، أطبق عليها الصمت ، بعد أن هجرها أهلوها لتغمرها بحيرة السد ، وتصبح نهب الماء ·

تنفت حوالي أستطلع الوجوه ، وأستبين الرفاق : السائحون الوافدون من أوربة الشمالية هم أكثر من يضمهم الزورق ، وهم مدججون بنظارات معظمة ، وأجهزة مصورة ، كأنهم طلائع جيش للريادة والكشف ، وما أسرع أن وصل بيننا وبينهم مرح وأنس وارتفعت الكلفة · وتشابكت محاورات ونكات وأفاكيه ·

وبينا نحن نتطارح الحديث الاهين ، أحسسنا صدمة أصابت الزورق في عنف ، فترنح على أثرها ترنحا أشاع فينا القلق ، ثم هدأت حركته ، ودار دورة عريضة في النهر ، وبرز خادم السفرة ، فتصيدناه بالأسئلة ، وتضاحك الرجل وهو يردد : لقد نطحتنا سمكة كبيرة ، أو لعله تمساح اختفى على الأثر ·

تمساح ينطح زورقنا الطائر ··· أمر جلل !

وددت لو وقعت عيني على ذلك التمساح الناطح ، أشهر سكان النهر الخالد ، وهو يتخطر حرا طليقا وسط الأمواج في هيبة واقتدار · فلم تعد تشبع عيني تلك التماسيح المعروضة وراء القضبان تتقلب في برك ضحلة خلال حدائق الحيوان · انها هنالك رهينة الأسر ، مهينة الجانب ، لا حول لها ولا طول ، تتنكر شخصيتها فلا تصلح الا لتلهو بها نظرات المتفرجين من خلق الله ·

وددت هذا ، ولكني وددته بعد أن اختفى أثر التمساح الجسور ، ونجا الزورق من عدوانه ، وأصبحنا في أمن واطمئنان ! ·

سرنا والتلال الصخرية على الشاطئين تسايرنا ، وجموع الأشجار والنخيل غاطسة في الماء ، لا تظهر منها الا رءوس وأعناق ··· انها تنبىء عن جزر غريقة كانت فيما سلف قرى عامرة ، وعما قريب يعلو السد ، فيغمرها الماء غمرة الأبد ، وكان هذه

الأشجار والنخيل تتطلع الينا تطلع اليائس المشرف على الهلاك ، وتناشدنا أن نمد اليها يد الخلاص ... كلا لا سبيل الى انقاذك بحال ، فانما نهدر حقك فى سبيل غاية أسمى ، وغرض أجدى ، وفى سبيل النفع العام لا مبالاة بأشجار محدودة ، ونخيلات معدودة ، فكونى فداء لمصلحة المجموع ، وارضى بما قسمت لك الأقدار .

وجازت بنا بعض بواخر السياح ، تمشى الهوينى ، كأنها تختال على بساط من حرير ، على حين يقفز زورقنا الطائر ، كأنه فى مضمار سباق ، وتبادلنا التحايا ، وقلوبنا فى فرحة ، انها فرحة الملتقى بين رفاق جمعت بينهم وحدة الطريق .

ولاحت الأشرعة البيضاء على وجه الماء ، تؤذن بقرب الوصول .

وما لبث المجهار ان دوى يعلن بلوغنا معبد « أبى سنبل » .

وتدانينا من الجبل ، فظهر على سفحه لوح صخرى عظيم ، منقوشة فيه أربعة تماثيل ، تأخذ لبك أول وهلة ، بضخامة الأحجام ... تماثيل فى جلسة ركينة ترمى بنظرها الى النهر لتبادله نجوى صامتة سرمدية ...

ونصلنا عن الزورق ، ولامست أقدامنا أديم الصخر ، وسرنا على مهل خاشعين وأمامنا ذلك اللوح العجيب : أربعة من «الرمامسة» كأنها أربعة أطواد آدمية ، شقت حجب الزمن الكثيف المتراكم ، وبدت لنا حاملة على مناكبها أحداث العصور الخوالى ... انها ترحب بمقدمنا ، وتحمد لنا سعينا . أربعة «رمامسة» هائلة لا يكسوها الا تلك الخوذات العالية تحمى الرءوس ، رمزا للسيادة والغلب .

وكنا كلما قاربناها تضاءلنا ازاءها ، وأحسسنا تفاهتنا حيال تلك الضخامة البالغة ، لكأننا حقا أبناء « جلفر » فى بلاد العمالقة !..

وسموت ببصرى الى التماثيل ، وتذكرت قولة الكاتب الفرنسى «أندريه موروا» : ان الضخامة عنصر هام فى الفن ، وخاصة فى هندسة البناء ، فالضخم الهائل اذا روضته انقلب اعجازا ، وما كانت ناطحات السحب لتبدو على شىء من الجمال لو لم تكن عمالقة ضخمة » .

وها نحن أولاء تجاه معبد « رمسيس الثانى » ، وكل شىء فيه من تماثيل وأروقة منقور فى صميم الجبل ... لقد تحول الجبل الأصم الأخرس تحت أزميل الفنان كائنا عظيما تدب فيه الحياة ... يا لذلك الفنان العظيم ، اذ أحال تلك البقعة الموحشة من صخر ورمال موطن تهجد وتعبد ، له قلب ينبض ، وأنفاس تتردد .

أنت أمام أربعة تماثيل « لرمسيس الثانى » ذات وضعة واحدة ، وعند قدميه أهل بيته ، تحف بهم آلهة من طير وحيوان . وهنا وهنالك على اللوح الحجرى المجسم تتشابك صور وشارات ورموز ، فتجعل منه مهرجانا فنيا منقطع النظير .

ودخلنا المعبد المنقور فى الصخر من باب بين أقدام « رمسيس » الكبير : عمد شاهقة ، وجدران عالية ، وتماثيل مجنحة ، ونقوش متزاحمة ، الى قاعات لأداء

الصلوات ، وسراديب لدفن الموتى ٠٠٠ وخرجنا منه الى معبد آخر عن كثب ، هو معبد «هاتور» ، وعلى وجهته لوح تتعدد فيه تماثيل «لرمسيس الثانى» أيضا ٠ كلها ناهضة على أهبة السير ، أو يخيل اليك أنها تسير ٠

ورجعنا الى المعبد الأول ، ننظر عودا على بدء الى التماثيل الأربعة ، الجالسة جلسة الأبد ، وهى ترمق العالم حولها ، وكأن ما يحدث لا يعنيها منه شىء ٠ لقد حسبت فى مستقرها أنها بمنأى عن الأحداث ٠ ومنجاة من الخطوب ، ولكن الدنيا تدور ، ومايفلت من دورانها كائن على ظهر الأرض ، وقد جاءت نوبة هـذه التماثيـل ، على الرغم من اعتصامها بحضن الجبل وتحصنها به أحقابا سحيقة ٠ وسيأتى غدا من يقصها قصا ، ويقتلعها اقتلاعا ، ثم يعلو بها الى رأس الجبل ليقـرها فيه ٠ وستتجلى عظمـة العلم والصناعة فى نقلها على حالها ، كما تجلت عظمة الفن فى نحتها وتجسيمها٠ وان العلم لا يبذل هذا الجهد فى انقاذها لمجرد عقيدة ترعى ، أو تاريخ يذكر ، أو أثر يستبقى ، بل يبذله لبعض هذا ولشىء أجل منه وأزكى ، هو الفن ٠٠٠ نعم ، انه الفن !

ومن أجل هذا الفن تنفق الأموال الطائلة فى سخاء وطواعية ، على حين يجاهد العـالم فى سبيل توفير الأقوات لمن تحصدهم المجاعات ٠ أترى الفن خيـرا من لقمة العيش وأجدى ؟ أتراه أثمن من أرواح البشر وأسمى ؟ أيكون أعز من الحياة وأغلى ؟

كلا ، ولكن الفن هو معنى العيش الذى به قوام الوجود ، هو نسمة الروح التى هى سر الكون ، هوجوهر الحياة التى يخفق بها قلب الانسان !

لا انفصام بين الفن والرغيف ، فالعيش دون فن عيش جامد يشيع فيه موات ٠

الفن للوجدان غذاء ، للنفس شفاء ، للروح رحيق ٠

الفن جذوة المشاعر الكريمة والنزعات السـامية ، وهو الذى يشق الآفاق الى أشرف الغايات ٠

ما قيمة الانسان الحى ، اذا لم يتهيأ له احساس مرهف ، وخيال منسرح ، وذوق رفيع ؟

كم يساوى الانسان اذا قامت مساومته بمعيار ما فيه من لحم وشحم ؟

تافه ثمنه كل التفاهة ، وما هو اذن الا رمة من الرمم !

كم يساوى العالم البشرى اذا أسقطت منه تلك القيم الروحية الأصيلة ؟

كم تساوى الدنيا كلها اذا خلت من خفق القلوب وومض الشعور ؟

ليست الحياة لقمة عيش ، بل هى فى أول الأمر وآخره مثل وقيم ومعايير ، وما لقمة العيش السائغة المريئة الا وليدة تلك المثل والقيم والمعايير ٠ ولو بقى الرغيف حافا لا ادام له من الفن لاستحال غصة فى الحلوق تسد منابع الحياة ، وتهبط بالبشرية الى مستوى البهيمة العجماء ٠٠٠

من هبة الفن جنينا أطيب ثمرات الرخاء والنماء والاسعاد ٠

من تلك الهبة النفيسة انبثقت الحياة ، وتطور الكون ، وتسامى الانسان ٠

لا تأسوا على ما يضيع من قناطير الذهب والفضة فى سبيل انقاذ نفائس الفن وذخائره، انما تنفقونها للابقاء على الانسانية نفسها فى أجل معانيها وأشرف مدلولاتها، وفى أعز ما تمخضت عنه عبقريتها على توالى العصور ٠

ان وقفتى حيالك يا «أباسنبل» ، أتملى سحر فنك ، وأنهل من جمالك الرهيب، لهى فى حسبانى أوفر كسب لى فى الوجود ٠

أحس وأنا خاشع أمامك بانتفاضة قدسية ، فكأنى فى محراب تزكو فيه روحى وتتطهر ٠

انى لأجثو بين يديك كما أجثو فى مزار عبادة ، أقتبس من عبقريتك بصيصاً يضىء لى السبيل ٠

وداعا « أبا سنبل » ٠

ولكنه وداع الى لقاء٠

سالاقيك وقد تنسمت ذروة الجبل ، والماء غمر يحيط بك ، ولكنه لا يستطيع أن ينال منك ، وأن يحجبك عن عيون روادك ، الطالعين اليك من كل فج ٠٠٠ أولئك الذين يمجدون فى معبدك وفى تماثيل رماسستك عظمة الفن ، وعبقرية الفنان ٠ وهم فى الحق لا يحتفون برمسيس الكبير ، وان جلت مكانته وعظمت بطولته ، لحروب اقامها ، ولا لفتوحات ظفر بها ، فقد مضى عهد التباهى بالسيطرة والاخضاع، والتفاضل بالسيادة والسلطان ، وأظلنا عهد جديد ينشد أن تكون الحروب ، فى ميدان العلم والحضارة والفتوحات ، فى مجال الانشاء والتعمير ، عهد يهدف الى اسعاد البشرية ، وتوحيد سعيها تحت رايات السلام !

مع مؤلف قصة
قرية ظالمة
الدكتور محمد كامل حسين

يقدمه : محمد عبد الحليم عبد الله

انه « عاطفة العلم » ...

من الممكن أن يكون هذا هو أصدق وصف يطلق على الدكتور كامل حسين .

نعم ... « عاطفة العلم » !!...

وكنت أردد هذا بيني وبين نفسي وأنا أجتاز باب عيادته للمرة الأولى حيث كنا على موعد لنتحدث فى (الأدب) .

وكان ميعاد الذين يطلبون (العلم) لم يحن بعد ... ميعاد مقابلته لمرضاه . ورأيت الدكتور كامل حسين فى عيادته كما رأيته فى أى مكان آخر ... وجه هادىء، ونظرة متطلعة الى فوق . ومع ملامح الوداعة ترى وقارا لا يمت الى التزمت ولكنه الثمرة الطبيعية للحياة الجادة .

ربما حياك باختصار أو رد على سؤالك باختصار ... وربما يحس شخص ما تبعا لذلك أن هذا الكاتب ينتمى - فى كل ما يصدر عنه - الى (الحقيقة العلمية) قبل أن ينتمى الى (الهزة الوجدانية) ...

لكنك حين تجلس اليه وتحدثه فانك لا تلبث أن ترى أمام عينيك ميزانا بكفتين تتارجحان فى شبه تعادل ... فى احداهما (جد الحقيقة) وفى الأخرى (رقة الخيال) . وعندئذ لا يسعك الا أن تأخذ من كل ناحية صفة فتطلق على العالم الأديب ، ذلك الوصف (عاطفة العلم) الذى حدثت به نفسى وأنا فى طريقى اليه أجتاز ساحة العمارة فى ظل رطب يميل الى الغموض كظل نوع من الأشجار الكثيفة الورق .

وكان اليوم حارا فتحدثنا عن الجو ...

ومن الجو الخارجى قفزنا فجاة الى جو آخر .. جو الحياة والنفس البشرية . والأجيال المتعاقبة التى يحمل كل جيل منها سمة خاصة به . هى علامته التاريخية وربما مفخرته الشخصية .

كنت فى هذه اللحظة أثنى على مظهره الصحى كتحية له بمناسبة عودته من راحة قصيرة على شاطىء البحر . فبدا لى أنه لا يهتم كثيرا بذلك حين رد وهو يشير بكفه اشارة مختصرة :

ـ أنا لا يعنيني المظهر الخارجي ٠ المهم ما بالداخل ٠٠

ولم يبتسم ولم يبد عليه أنه يتألم بل ولا أنه يحمل عتابا لأحد ولا لشيء ٠

عجبت ٠٠ كانت عبارته أشبه شيء بالتقارير العلمية ٠٠ مع أنها مجال ـ هي في حد ذاتها ـ للفخر بالنفس أو التذمر من الحياة ٠

ولم أستطع أن أستشف ما وراء هذه العبارة ما دام الدكتور قد نسبها الى نفسه ـ فاخذت أردد شطرها الأخر دون أن أقول شيئا ٠ ونظر الى الدكتور فاحس انني أطلب كلامه بصمتي فاستطرد :

ـ لكنني راض عن حياتي !!

ـ كل الرضا ؟!

ـ أعتقد أنني لو عشتها مرة ثانية فلن أفعل أحسن من ذلك ٠٠٠

وتركني أبتسم ٠ لم يلمح ابتسامتي ٠ كان ينظر الى دولاب كتب في حجرة مكتبه وعيناه لا تقولان شيئا ٠ وكفه تتحرك بالاشارات المختصرة كأنه يخاف أن يصدم شيئا ٠ كان لا يزال يقول :

ـ ٠٠٠٠٠ فلن أفعل أحسن من ذلك ٠ نعم ٠ لكن شيئا واحدا ربما أحزنني ولو أنه غير محدد ٠ كما أحزن بعض الأدباء في نهاية عمره فقال : « انني نادم على فرص حنان كان من الممكن أن أمنحها للناس » ، مع أن ذلك الأديب لم يكن قاسيا ٠٠

وفي هذه اللحظات القصيرة شعرت أن نبرة الأديب الذي أمامي قد تغيرت ٠٠٠

لم ترتفع درجة صوته ولم تنخفض وهو يقول هذا لكن ألوانا من المعاني غلفت كلماته ٠ وجرت في بشرة وجهه حمرة خفيفة فرأيت كيف يستطيع قليل الناس صون ما بداخلهم من فرحة أو ألم ٠٠٠

لكن كلمة «حنان» علقت باذني ٠٠٠ وقلبي ٠٠٠ مثل بقية صدى صوت رددته أروقة المسجد ٠ وكان وقتئذ على يميني باب مفتوح وخلف ظهري باب حجرة المكتب فتسلل بصري بنظرة جانبية لأرى ما في الحجرة الأخرى ٠ فرأيت السرير الذي ينام عليه مرضاه ساعة (الكشف) وعليه أغطيته التقليدية وأمامه كرسي منخفض جدا ليساعد المريض على الصعود ٠ فقلت بيني وبين نفسي : « لقد منح مرضاه هنا آلاف الآلاف من فرص الحنان ٠٠٠ لاشك في ذلك » ٠

لكن الأهم من ذلك هو أنني رأيت ديوان الشاعر : « عمر بن أبي ربيعة » على مقربة مني ٠ والى جواره حقيبة سوداء من نوع « السرفيبت » فحاول خيالي أن يجمع أشتاته ليؤلف صورة متكاملة للدكتور كامل ٠ فاذا بي فجأة أثب الى ناحية بعيدة من الدنيا ٠٠٠ لالمح هناك صورة لأديب آخر ٠ كان همه طوال حياته « بناء شخصيته » قبل أن يكون مهتما بوضعه كشاعر مرموق وكان يرى أن الشخصية الانسانية لها غذاء نادر يكلف صاحبه كثيرا ٠ وبناء الشخصية عن طريق تناول هذا الغذاء ٠٠٠ يأكل سنوات العمر ٠ لكن ذلك ضروري ٠٠٠ ضروري أن يعرف الانسان الأدب والعلم والفن ٠٠٠

وهكذا فعل الشاعر الألماني « جيته » الذى درس الجيولوجيا والنبات وأشياء كثيرة ... لالشيء الا لبناء الشخصية ..

ونظرت لديوان عمر بن أبي ربيعة وسألت الدكتور كامل

ـ هل ستكتب عنه شيئا ؟

فقال :

ـ سأكتب بعض بحوث كما فعلت مع المتنبى وأبى العلاء .

ـ كنا نحب أشعاره ونحن شبان . وطالما تغنينا بها .

ـ وأنا أحب شعره ولذلك سأخضعه للدراسة العلمية .

كنا قد تكلمنا فى أشياء كثيرة قبل أن ألقى اليه بالسؤال التقليدى عن ذكرياته مع قصته «قرية ظالمة» فحدثنى عما سماه (بالهرولة العقلية) قاصدا سرعة الانتاج عند بعض الناس . وعما سماه بالطفولة فى سن الكبار ... قاصدا المحاكاة الحالية من الذاتية والشخصية عند بعض الذين يكتبون مثل بعض المشاهير . فهو يرى أن الذى يكتب مثل « سارتر » مثلا لأنه فتن به ... يرى أنه لا يقدم شيئا نافعا بالمحاكاة .

وهو يحب الابتكار ويحييه . ويرى أن جيل الثلاثينيات كان أكثر تؤدة وتأنيا وابتكارا من الذين لحقوه بعد ذلك .

فقلت للدكتور كامل :

ـ جيل الثلاثينيات كان بادئا فى انشاء أدب مصرى وفكر مصرى . كان الناس عطاشا للعلم عطاشا للحرية ولمجرد فكرة التجديد . وكلما اشتد الطلب ـ لاأقول قل العرض ـ بل أقول : « عندما يكون الطلب ملحا فان أى شىء يقدم يصبح مقنعا » . وفى سنة ١٩٣٩ وقعت الحرب الثانية الطاحنة التى طحنت كثيرا من القيم والآراء ولم تستطع أن تلد شيئا الا (القلق) العام . فجيل الاربعينيات تنفس هذا الجو . ومع كل ... فلكل جيل سمة !!

ثم ... والآن ... أريد بعض ذكريات عن قصة « قرية ظالمة » .

ـ فقال الطبيب الأديب :

ـ كان ذلك فى صيف سنة ١٩٥٢ . وكنت على الباخرة فى طريقى الى سويسرا . وقصة قرية ظالمة هى أول عمل روائى كتبته . كنت ألجأ الى «الكابين» ومعى أوراقى .. وكنت أسجل فى لحظات الانفعال نتاج ومضاته ... أكتب بلا ترتيب .

ـ بلا ترتيب ؟!

ـ ربما كان الفصل الأول من القصة هو آخر ما كتبت لأني أودعته هدف الرواية كلها ... ثم أخذت بعد ذلك أرتب الفصول ... ثم قدمتها للمطبعة سنة ١٩٥٤ .

ـ هذا العمل الأدبي الذي نال جائزة الدولة كتب بالطريقة التي كتبت بها قصة « ذهب مع الريح » فصول مفرقة ثم رتبت وأنا أذكر قصة « ذهب مع الريح» لشهرتها بصرف النظر عن أخطاء فيها من وجهة النظر الانسانية . لكن قصة « قرية ظالمة » أخذت اتجاها انسانيا مسلما به . فأنا أذكر على سبيل المثال الرأى الذى عرضتموه فيها عن الحروب واشعال الحروب ... والسبيل المؤدى الى أن التغلب على هذه النزوة التى تجعل الانسان يقتل الانسان « جماعات » فقد اقترح أحد أبطال قصة «قرية ظالمة» أن يكون معلن الحرب هو أول رجل يموت فى الحرب !! ... وهذه الفكرة تحمل معنى « واقعيا » يكاد يكون فى وضوح الارقام اذا نفذ البشر هذه الفكرة وهى أن يموت بطريقة ما من يعلن الحرب ... يموت أول الناس .

ثم هى بعد ذلك تحمل معنى آخر هو أن الذى يعلن الحرب وهو يعلم أنه هو أول من يموت فيها لابد أن يتخذ أحد موقفين لا ثالث لهما : موقف المقتنع الذى يموت فى سبيل الفكرة . أو موقف من يحرص على حياة الناس من أجل حياته هو . والبشرية هى الكاسبة فى أى من الموقفين . لكن ...

وسكت قليلا فابتسم الدكتور وهو يسأل بلطف :

ـ لكن ماذا ؟!

ـ انها بلغت درجة من التركيز جعلتنى اقرؤها قراءة الدارس . فهل هذه هى طبيعة الكاتب اذا كان عالما ؟

فأجاب فى تواضع :

ـ كل ماأعلمه هو أننى كنت أريد أن أكتب رواية «لاتقرأ فى القطار» ... عمل يقرأ فى تمهل . نشأ عندى من اعتقادى أن الجرائم الكبرى فى تاريخ الانسان انما ترتكب بواسطة «مجموعات» فلا يكون المسئول فيها واحدا «فالمجموعة» قادرة على فعل الشر لانتفاء نسبة المسئولية الى واحد معين . كذلك ... اذا تصورنا أن مسئولية الجريمة وزعت على أشخاص المجموعة التى ارتكبتها ، فانها بلا شك تصبح صغيرة بسبب التفتت . فلا يوجد اذن ما يقلق الضمير . والدليل على ذلك قد يجىء أيضا من تصورنا عكس الموقف ... أقصد من نظرنا الى الوجه الآخر من القضية . فهل من الممكن أن نتصور أن مجموعة كبيرة من الناس تفعل (الخير) بنفس الطريقة التى ترتكب بها (الجريمة) ... أظن ذلك محالا .. وهكذا وقعت جريمة صلب المسيح فى قصتى ... وقد حاولت أثناء عرض جريمة الصلب أن أعطى صورة معينة ... صورة صحيحة من وجهة نظر المسلم والمسيحى معا .

على أن الفكرة الاساسية فى الرواية هى ما سبق أن تحدثت عنه ... هى أن

الجرائم الكبرى لايمكن أن ترتكب الا بواسطة مجموعة من الناس ٠ وأن المجموعة لاتحس فداحة المسئولية من ارتكاب الجريمة ولذلك فهى تفعلها ببساطة ٠

ـ على كل حال أنا أعتبر هذه القصة دعوة كبرى للحب والسلام وقد رأيتفيها نماذج أعجبتنى كما أعجبت بالحذر البارع الذى عرضتم فيه لعلاقة المسيح بمريم المجدلية ٠٠٠ انك تحب الانسان ٠٠٠ أنا أحس ذلك ٠

ـ اننى أفضل أن يبحث الانسان عن أفضل ما فى الانسان وأستطيع أن أقول: ان هذا هو سلوكى الشخصى ٠

وسكت قليلا ونظر الى بلورة المكتب ثم رفع رأسه وعاد يقول فى ابتسامة هادئة :

ـ أنا أكره الفضائل المرهقة ولا أومن بها

فسألت فى شوق :

ـ وما الفضائل المرهقة يادكتور ؟

ـ هى أن أطلب من الناس ما ليس فى امكانهم ٠ كأن أطلب من الصديق تضحيات فى سبيل الصداقة ٠

يجب أن أطلب من الصداقة مستوى معقولا من الفضائل ولو طلبنا البطولة من كل الناس لتغيرت حقيقة « البطل » ولأخذ العالم وجها آخر ٠

قلت :

ـ نعم ٠ هذا عدل ٠ وهى نظرة معقولة الى الانسان ٠

ثم قلت فى نفسى : هذا هو سر الراحة التى يحملها مؤلف قصة «قرية ظالمة» ٠ سر الهدوء النفسى والحب للناس ٠ انه لا يحمل عتابا ٠٠٠ فكيف يحمل كرها ٠ انه يحاول أن يرى فى الانسان أحسن ما فيه ثم هو بعد ذلك لا يطلب منه « فضائل مرهقة » ٠ وأخذت أقول فى نفسى : هل هذا أثر من آثار التفكير العلمى ؟ لكننى وجدت نفسىأرفع صوتى سائلا :

ـ هل من الممكن أن تحدثنا عن العلاقة بين العلم والادب بصفتك قد أخذت من الاثنين بنصيب كبير ؟

فقال :

ـ العلم فى العصر الحاضر على الخصوص قد وسع آفاق الأدب الى حد كبير ٠ أما أيام كان العلم مقصورا على الطبيعة البحتة فان فائدة الأدب منه لم تكن كبيرة ٠ وقد أصبح العلم اليوم متصلا بكل شىء حتى النفس الانسانية والسلوك الانسانى ٠ واذا كانت مادة الأدب هى النفس والسلوك فلا بد أن يستفيد الأديب من كلمة العلم فى النفس والسلوك وبعد مرحلة الاستفادة يصبح الأديب عالم نفس أكبر من عالم النفس ٠ وتمسى كلمته أكثر ذيوعا وخلودا بالنماذج الحية الحقيقية التى يصورها ٠

وأنت معى فى أن الخيال وحده لا يمكن أن يكون زاد الأديب ولا سلاحه ولا متاع سفره . فالعلم يكسب الخيال أجنحة جديدة يجعله بالتالى أكثر قدرة على التحليق والارتفاع وجوب الآفاق والكشف عن البدائع .

ـ هذا عظيم . لكن ما رأيك وأنت عالم فى قول الذين يطلبون من كاتب القصة مثلا ... أن يلاحق بانتاجه خطوات العلم . فهناك ناس يقولون : نحن فى عصر الفضاء وعصر الذرة . فكيف لانكون عندنا قصص تصور هذه الاحداث . كيف نظل نكتب عن الانسان (فى الارض) فى الوقت الذى يجوب فيها الفضاء فى طريقه الى الكواكب الأخرى ... كيف نكتب عن الانسان (ذى الوزن) وندع الانسان وهو فى حالة (فقدان الوزن) ؟! فهل ترى أن خطوات الأدب لابد أن تلاحق خطوات العلم ... أو بعبارة أخرى هل يجب أن يسكن الأديب نفس المنطقة التى يسكنها العالم فى الارض أو فى السماء ؟

فرد الدكتور كامل وكأنه يدفعنى عن السقوط فى هوة :

ـ العلم ليس الاختراع ولا المخترعات ولا الفضاء ولا القمر . العلم هو أسلوب التفكير المؤدى الى كل هذا ... العلم ليس (الحقيقة) بل ان العلم حين يصبح حقائق يصير فى حكم المنتهى ... أهم مافى العلم ليس هو (ما تعلم) بل هو (الطريقة) التى توصلك الى (ما تعلم) ... العلم الحى هو التفكير العلمى وليس المعلومات .. والذى يجب أن يتسلح به الأديب هو (التفكير العلمى) ومطلوب منه أيضا . أن يكون على معرفة بميادين العلم فيكون عنده فكرة عن ميادينه لاعن حقائقه .

ـ كما قالوا : ان النزهة هى الطريق الى الحديقة وليست الحديقة ، فان العلم هو الطريق الى العلم وليس المعلومات ...

ـ تماما . وقد عشنا زمنا كانوا يقولون فيه : كيف نقول الشعر فى الابل ووصفها ونحن فى عصر الطيران ؟

وهذا الكلام عجيب . فليس المطلوب أن نصف الطائرة وفقط ، وينتهى الأمر . فقد نصف الطائرة بعقلية من لايعرف الا الابل . لكن المهم هو أن نعيش بعقلية عصر الطيران وعند ذلك سنصف الابل وصفا جديدا غير الوصف الذى سجله شعراء البادية والجاهليون .

وهذا الكلام يجرنى لفكرة أخرى . هى فكرة المادة والروح . فأنا لا يعجبنى من يقول « معنويات الشرق ومادية الغرب » لانه لاتوجد روحانية أقوى من روحانية البحث عن الحقيقة ... روحانية العلم .

والمثابرة على الوصول الى أعماق الطبيعة يمنح الايمان والاخلاص والصدق بكمية كبيرة . ولذلك فاننى أرى فى التقسيم خطأ منطقيا « فمعنويات وماديات » ليس تقسيما لان الروحانية نتيجة مؤكدة للبحث العلمى .

سألت :

ـ بعض الباحثين يصابون بالالحاد وبعض الباحثين يكسبون ايمانا عميقا ... أليس هذا صحيحا ؟

فقال :

ـ يجب أن نفرق بين المتبوع والتابع • فالمتبوع عالم لابد أن يكون فى أرقى درجة من الصدق والايمان • والتابع ليس الا (محضرا) قد يجوز عليه ما يصيب الملحدين •

وسكت الدكتور كامل وجعلت أنظر اليه • كان قبل ثانية يتكلم بحماسة لكن الهدوء الفطرى عاد فكسا وجهه • ولم يكن على ملامحه آثار جهد كأنه يتحدث عن الأسعار لا عن الافكار وعندئذ ألقيت اليه بسؤال لم يخطر على باله • قلت :

ـ انك لاتدرى أى قدر من الجدية ، يحيط بك الى درجة اننى ـ واسمح لى ـ ما كنت اظن أنك تحمل مثل هذه الرقة • لقد ذكرتنى بما قاله بعضهم عن شعر أبى تمام حين وصفوه بالنبع العذب الذى تحيطه بعض الصخور • لكن كل من يجتاز سياج الصخر سينسى الصخر وهو ينهل من الماء • كذلك أنت • فهل لهذه الجدية الدائمة أصل فى طفولتك التى لانعرف عنها شيئا ؟

أنت أديب تكره الأضواء بدليل أنك متألم من هذا الثناء الصغير • وهذه طبيعة • طبيعة الذين يعملون فى صمت ليبنوا شخصيتهم أولا وقبل كل شيء كما فعل (جيته) وهاأنذا أراك تبحث فى شعر ابن أبى ربيعة وقد بحثت فى المتنبى وأبى العلاء • وكتبت الرواية ولك فى النقد اللغوى خطرات جديدة • وفى تعريب المصطلحات العلمية أفكار وآراء • وبعد ذلك فانت لاتبحث عن الأضواء • اذن فحدثنى عن طفولتك •

لكن الدكتور كامل لم يخرج عن طبيعته • فقد كانت اجاباته مختصرة واشارات كفه قصيرة المدى كأنه يخاف أن يصدم شيئا • وأخذ يحدثنى عن سنوات عمره الأولى وكأنه يتحدث عن شخص لايعرفه •

ـ لم أشعر بالطفولة ولا حتى بالشباب • كنت دائما أجد نفسى مع ناس أكبر منى وأعلم منى •

وابتسم •• واستطرد :

وهاأنذا فى الستين لاأحب أن أعاشر الا من هم فى الثمانين •

فتذكرت حبه لأحمد لطفى السيد ولطه حسين •

ثم قلت له غير مجامل :

ـ ما أظن أنك فى الستين • ان هذا لايبدو واضحا • انك فى الاربعين وتفكيرك فى عمر الشباب ...

ـ على كل حال كل ما أحب أن أذكره أن من حولى كانوا يرهقوننى بالدراسة · كانوا يريدون أن يجعلوا منى شيئا هاما · وهذا هو سر الجدية التى تقول عنها ·

ووجدت نفسى فى بيت ملىء بالكتب لان والدى كان مدرس لغة عربية · واذكر اننى قرأت (سيرة ابن هشام) وأنا فى سن صغيرة ولا أعى شيئا مما أقرأ ·

وقد أثر هذا فى سلوكى أثناء الكتابة · فأنا أكتب على طبيعتى وأحذف ثلث ماكتبت ··· أميل للاختصار لا للاضافة وللايجاز لا للتطويل أو الاطناب ·

واستطرد باسما :

ولست أفعل فعل المتنبى الذى ما حذف بيتا قط بعد كتابته وقد عزوت هذا الى بخله قبل كل شىء ·

عندئذ نظرت فى ساعتى فرأيت أن زمنا طويلا قد مضى · ودخل علينا الممرض الاسمر ومر بجانبنا وخرج وتناهت الى أصوات من صالة العيادة فأحسست أن طلاب (السلم) قد حضروا ··· المرضى الذين يطلبون الشفاء ـ وكان الباب المفتوح الى يمينى لايزال مفتوحا والسرير فى وسط الحجرة الاخرى فى مكانه عليه أغطيته التقليدية وأمامه الكرسى المنخفض وهو بانتظار المريض (نمرة واحد) ···

فصافحت الدكتور محمد كامل حسين وخرجت بعد أن ألقيت نظرة على ديوان عمر بن أبى ربيعة · وعندما كنت أجتاز الصالة كانت الانوار مضاءة وعيون قلقة تنظر الى ما كان يعنيها أكثر من أن أتلقى (الطبيب) مثلما دخلت أنا ولا يعنينى الا أن ألقى (الاديب) ·

وكان الظل الرطب فى فناء العمارة قد تحول الى عتمة لم يبددها بعد نور مصباح · لكننى كنت أرى طريقى بوضوح وكنت أحس ببهجة نفسية (على أساس علمى) سرها أننى اكتشفت ··· اكتشفت رقة الأديب خلف جدية العالم ·

مال الله

متولى

بقلم

عبد الحميد جوده السحار

دوت القاعة بالتصفيق وانحنى عبد الرحمن وقدأفعم بالنشوة يرد تحية الجماهير التى اسكرتها أغانيه العذبة ، واسدلت الستار ، فانسل عبدالرحمن وحده وخرج من باب المسرح الخلفى وأصداء الليلة العظيمة ترن فى اغوار نفسه وتشرح صدره وتجعل روحه تهيم فى عوالم من الرضا والغبطة .

وانساب فى جوف الليل كالطيف وراح الهواء البارد يداعب وجهه فيزيد فى تألق الاشراق الذى انتشر بين جوانحه والسكينة التى استقرت فى راسه والسرور الذى يغشاه ، كان مزهوا بالشهرة التى بلغها واعجاب الناس به والتكريم الذى يلقاه فى كل مكان .

وفى مثل لمح البصر طاف بذهنه بيته الفاخر وزوجته الجميلة وابناؤه الاعزاء وسيارته السوداء الفخمة التى تنتظره أمام باب المسرح ورصيد حسابه الذى يتضخم فى البنوك يوما بعد يوم فراح يستنشق الهواء فى طمأنينة ويزفره فى راحة ، واستشعر رغبة فى ان يغنى لنفسه واذا باصوات تتجاوب فى أغواره تهتف : .. انت عبقرى ... عبقرى .. فذ » .

ورفع راسه وقد تملكه الزهو وشاعت فى جوانحه بهجة روحية جعلته يرضى عن وجوده ، ويرى فى كل مايمد اليه عينيه جمالا تنتشى به ذاته التى فاضت سعادتها حتى كادت تغمر كل شىء .

وسار يتلفت كالمسحور ، وهو مفعم بالسرور ، واذا بعينيه تقعان على صبى صغير ، نام الى جدار ، لا يستر جسده الضاوى الاسمر الا القذارة وخرقة ممزقة تناثر عليها هنا وهناك اشكال غير منسجمة من الطين ، وفى مثل لمح البصر أشاح بوجهه عن الصبى وانطلق فى طريقه ، بيد أن منظر الصبى الصغير احتل صفحة راسه وعكر صفوه لحظات ، فقد راحت مشاعر الشفقة تزحف الى صدره لتنحسر عنه موجات الغبطة والرضا والسرور .

وانساب فى طريقه ومس اذنيه صوت ربابة تسرى فى سكون الليل فأصاخ سمعه ووسع من خطوه وسار

ناحية الصوت حتى اذا ما اقترب منه قرع مسامعه صوت أجش بفيض يغنى على الربابة وبلغ صاحب الصوت فالفاه رجلا يرتدى جلبابا مخططا فوقه جاكتة ممزقة ، برز منها مرفقاه وتفرس فى وجهه فالفى آثار الجدرى قد انتشر فى صفحته وابيضت عيناه ، يبدو عليه انه تجاوز الخمسين ، كان يتسول بكل ماعنده من طاقات !

ورن فى اعماق عبد الرحمن صوت يقول فى انكار وشفقة وخوف : « انه يتسول بفنه ! » وتسمر عبد الرحمن فى مكانه لما راح الصوت يهمس فى ضميره : «انت تغنى وهو يغنى» وانقلب الهمس الى صراخ .

وراحت الافكار تتدفق الى راس عبدالرحمن : انت لم تخلق حنجرتك .. صوتك الجميل لا فضل لك فيه .. انه هبه .. المال الذى جمعته ليس لك وحدك .. لك شريك فيه ، لا . انه مالى ، جمعته بالجهد والكفاح وسهر الليالى وعرق الجبين .

وعاد يتفرس فى وجه الرجل الاعمى ، الذى كان يتسول باغانيه ، فاشتد خفقان قلبه ، وراح صوت ضميره يقول : « كان من الممكن أن تكون مثله ، لولا ان لطف الله بك ... المال الذى جمعته لا فضل لك فيه ، لك فيه شريك . ومن شريكى ؟! الله شريكك .. بل انه مال الله ، استخلفك فيه . للناس كلهم حق فيه » .

ومد يده فى جيبه وأخرج بعض أوراق مالية ، دسها فى يد الرجل الاعمى ، ثم دار على عقبيه ليعود الى سيارته التى تنتظره وقد شغلت رأسه افكار جديدة ، تمد قلبه بالشفقة والنور .

ونام ليلته وهو سعيد ؛ وفى الصباح خرج يضرب فى ارجاء المدينة وهو يترقب ، كان يبحث بعينيه عن انسان يمد له عونه ، فرأى رجلا يرتدى جلبابا قصيرا ، فوقه جاكته صفراء ، يبدو كأنما غمسا فى الزيت والشحم ، ووضع على كتفه حبلا متينا وأسند ظهره الى جدار ينتظر الفرج ، ان يدعوه أحد ليحمل له حملا ثقيلا .

وسار عبدالرحمن الى الرجل ووضع فى يده ورقة مالية ، فاذا بأسارير الرجل تتهلل واذا بلسانه يتحرك فى فمه ، بيد ان عبد الرحمن لم ينتظر ليسمع ما يقول ، انه وسع من خطوه وسار بعيدا ليبحث عن آخر يعطيه حقه فى المال الذى يجود الله به عليه .

وانطلق يتلفت ، فوقعت عيناه على بائع صحف ينهر ابنه الصغير ثم يمسكه من ذراعه ويدفعه بعيدا ، وهو يسبه فى حنق ، فاقترب منه وقال له :

ـ لماذا تقسو على الصبى ؟

فقال الرجل فى انكسار :

ـ يريد قرشين . من اين سآتى له بالنقود ؟!

فوضع عبد الرحمن يده فى جيبه واخرج ورقة مالية ، دفع بها الى الرجل وهو يقول :

ـ خذ واشتر له كل مايشتهيه .

وقبل أن يفيق الرجل من دهشته كان عبد الرحمن قد انسل وذهب بعيدا عن العيون ، ليضع فى أيدى من يتفتح

لهم قلبه من الشيوخ والضعفاء والمساكين بعض المال الذى استخلفه الله فيه .

وفى ذات يوم كان منطلقا بسيارته فى طريق قفر ، كان الحر شديدا والعرق يتصبب من كل مسام جسمه ، ولمح طفلا يرتدى ثيابا بالية ، يدفع أمامه عربة بها زجاجات فارغة ، يلتقط أنفاسه فى جهد ، والعرق يتساقط من وجهه على الارض ، فدنا منه وناداه ، فاقبل الطفل وهو يتلفت فى خوف ، ولما راى الورقة المالية الممدودة اليه اتسعت عيناه رهبة وقال :

— لا . لا . لا أريدها .

ووضعها عبد الرحمن فى يده ، بيد أن الطفل ألقاها فى فزع ، وقال وهو يضطرب :

— لا . لا أريدها .

فقال له عبد الرحمن فى حنان :

— خذها يا بنى . انها لك .

واعادها عبدالرحمن اليه ، وهم بأن يتحرك بسيارته ، الا ان الطفل تعلق بالسيارة وهو يقول :

— لا . لا اريدها . ارجوك ياسيدى

وتمهل عبد الرحمن وقال فى هدوء :

— انها لك .

فقال الطفل فى تخاذل :

— أنا جائع .. اعطنى قرشين . هذا كل ما اريده

ووضع عبد الرحمن الورقة المالية فى يده فى رفق وقال :

— خذها . ارجوك .

وقبض الطفل على الورقة وهو ذاهل وانساب عبدالرحمن فى طريقه وهو سعيد .

كان عبدالرحمن يمتلىء نشوة كلما داعبت اذنيه آهات الجمهور ودوى التصفيق ، الا ان تلك النشوة سرعان ما تتبخر وتتلاشى ، اما الغبطة التى يحسها كلما أعطى انسانا حقه فى ماله فانها تتغلغل فى سويداء قلبه وتجعله يعيش فى نعيم مقيم وأرضاه انه استبدل سعادة طارئة بسعادة دائمة ترفرف بها الروح .

وجاء شاب مهدم الى بيت عبدالرحمن ودق الجرس وراح يلتقط انفاسه فى جهد ، ومرت لحظات ، وانفرج الباب عن زوجة عبدالرحمن ، فوقعت عيناها على الرجل وهو يسند قلبه بيده ، ونظرت اليه نظرة تقول فى ضيق : « نعم ! » ولم يأبه الرجل لنظرتها وقال فى صوت خافت :

— الاستاذ موجود ؟

ومس سمعه صوت عبد الرحمن يقول فى رقة :

— تفضل

فاشرق وجه الرجل بابتسامة ، ودارت الزوجة على عقبيها وغابت فى البيت وما لبثت أن عادت تسترق السمع فقد رابها كثرة الذين يترددون على بيتها فى الايام الاخيرة من ذوى الذلة والمسكنة .

وترامى الى سمعها صوت الرجل المهدم يقول :

– قال لى الطبيب : لا بد من ان تأخذ ابر الذهب وان تتغذى جيدا والا تموت .. سأموت . من اين لى ثمن ابر الذهب ؟ من اين اجد ما اتغذى به وانا لا اجد ما آكله ! طردونى من العمل لما عرفوا انى مريض بالسل .

وسمعت زوجها يقول :

– اطمئن . ربنا موجود .

ومدت راسها ونظرت فرأت زوجها يضع فى يد الرجل شيئا فاستشعرت ضيقا على الرغم من انها رات الدموع تغسل وجه الرجل ، احست انه يسرق منها حقا من حقوقها وحقوق ابنائها.

وخرج الرجل وبين جوانبه بصيص امل وعاد عبد الرحمن الى حيث كانت زوجه وهو مطرق يفكر فى ذلك الرجل الذى يهدده فقره بمصير مشئوم، وقال فى صوت خافت :

– مسكين .

فقالت زوجه فى سخرية :

– والله نحن المساكين .

فرفع رأسه ونظر اليها فى دهش ، وفطنت الى نظرة الانكار التى ترقرقت بها عيناه ، بيد انها لم تحفل بمشاعره وقالت :

– انت لا تفكر فينا ولا فى أولادك .

فقال فى الم كأنما طعن قلبه خنجر !

– انا ؟

– لو كنت تفكر فينا مابعثرت مالك ولضمنت لنا مستقبلنا .

– وهل ينقصكم شىء ؟

– ماذا فعلت لمستقبلنا ؟ ماذا يكون حالنا لو حدث – لا قدر الله – لنا حادث .

فقال فى ضيق :

– لو مت

فقالت فى بساطة :

– لا قدر الله . لا بد يا عبدالرحمن أن نضمن مستقبل أولادنا .

– وهل ينقصهم شىء؟ كلهم فى احسن المدارس ، ولا ابخل عليهم بشىء . ماذا يمكن ان افعله لهم ولم افعله ؟!

فدنت منه وقالت وهى تضمه اليها:

– تشترى لهم شيئا ينفعهم فى مستقبلهم بدلا من بعثرة مالك .

ولم يعجبه قولها له : «بعثرة مالك» وهم بأن يقول لها : « انا حر فى مالى. أنفقه كيف أشاء » الا انه كبت ثورته التى اندلعت فى صدره ،وقال :

– تريدون ما ترثونه بعد موتى ؟!

فراحت تمسح رأسه بيدها وقالت:

– وهل يشقى الآباء الا ليتركوا لابنائهم ما يسعدون به .

– أريد لابنائى أن يكدوا وان يسعدوا بعرق جبينهم .

– ان كل قطرة دم تجرى فى عروقهم منا ، ورثوا عنا كل صفاتنا، كل مافينا من فضائل ونقائص ، ذكاءنا وغباءنا ، فطنتنا وحماقاتنا . فلماذا تريد أن تحرمهم من ثمرة جهدنا . هذا حقهم .

ـ و الله ما أفلح ابدا الذين ينتظرون ما يرثونه .

ـ ومن قال لك انهم ينتظرون ، انهم يعملون ويتمنون ان يصلوا بجهدهم ولكن علينا ان نؤمن لهم الطريق ، ان نجعلهم يشعرون انهم مطمئنون .

ـ وماذا تريدون أن أفعل ؟

ـ أن تشترى لهم ارضا بدلا من بعشرة مالك .

ووخزه قولها : « بعشرة مالك » وهم بأن يثور ، الا انه مضغ غضبه وهو كاره ، وقال :

ـ ومن يديرها ؟

ـ انت .

ـ انا رجل خلقت لاغنى ، لا لأدير ارضا . انا لا اقبل ابدا ان اجنى ثمار عرق فلاح فقير !

فقالت فى سخرية :

ـ ولماذا تقبل أن تجنى ثمار عرق رجال فرقتك الموسيقية ؟!

فقال فى حدة :

ـ انا اعطيهم اجورهم . انا لا اجنى ثمار عرقهم .

ـ وستعطى الفلاح أجره .

ـ هذا يختلف . انا اعمل مع رجال فرقتى فى الشتاء والصيف ، فى البرد والحر ، أعرق كما يعرقون وانتفض من البرد كما ينتفضون ، اما الفلاح الذى يفلح الارض ، فانا لاأشاركه تعبه .

ـ فلماذا تأخذ انت وحدك جل الايراد ، لماذا . .

ولم يدعها تتم حديثها ، بل قال فى انفعال :

ـ انى آخذ ربع موهبتى، ثمن فنى. الناس يأتون ليسعدوا بغنائى ، يدفعون ما يدفعون وهم راضون ليتمتعوا بصوتى .

وهمس فى جوفه هامس : « ولكن ذلكالصوت لم تخلقه. لكفيه شريك » واذا بصوت آخر يقول :

« انى ادفع للناس نصيبهم فى كل قرش يرزقنى الله به. أؤدى حق مالى ... لا بل مال الله »

واحس انه يتضاءل وقالت زوجه :

ـ ابن لنا بيتا ، ان كنت لا تريد أن تستغل احدا .

وشغل بالافكار التى كانت تتدفق الى راسه عن كل شيء حوله، فقال فى صوت خافت لينهى المناقشة الدائرة بينه وبين زوجه :

ـ سأرى .

وخرج الى الطريق وانطلق على غير هدى يتلفت ، فوجد طفلة صغيرة أمامها مشنة بها ليمون ، فذهب الى الطفلة وتناول ليمونة وقال :

ـ بكم ؟

فقالت الطفلة وهى تنظر الى وجهه لتكتشف اثر كلامها فيه :

ـ الليمونة بقرش صاغ .

وتناول خمسا وعشرين ليمونه ووضع فى يد الطفلة خمسين قرشا واولاها ظهره ، فراحت الطفلة تنقل

عينيهـا بين الورقـة الماليـة وظهر عبد الرحمن فى دهش، ولما وجدته يبتعد عنها ارتسم على وجهها الفرح الشديد ولم تستطع ان تكتم فرحتها فنادت على من حولها وقالت فى سرور وهى تلوح بالورقة المالية وتشير الى عبد الرحمن الذى ابتعد عنها :

ــ ضحكت على هذا الرجل .

وتبسم عبـد الرحمن وهمس : « ليت كل الذين يسـتغلوننى كانوا مثلك ! » وراح يفكر فيما كان بينه وبين زوجه : ان غاية أمانيهـا أن تملك شيئا ينزع من قلبها خشيتها من المستقبل ، انها لا تستطيع أن تنسى أن عمها هو الذى كفلها بعـد موت ابيها ويا طالما قالت له انها تدعو الله فى جوف الليل ان يجنب ابناءها الحاجة الى عطف الآخرين !.

وراح يخاطبها فقد ملأت صورتها الطريق : « انت ضعيفة الايمان ، كثيرة القلق . هل نفع ابن عمك المال الكثير الذى تركه له ابوه ؟ انفقه فيما لاينفع وهو الآن فقير . ليت عمك سلح ابنه بالعلم بدل ذلك المال المعدود الذى تركه! انه لو فعل ما كان هذا حال ابن عمك الآن .. اريد أن أجنب ابنائى مصير ابن عمك العزيز » .

وسمع صوتها فى وضوح يقول له : « لو سقطنا فى الطريق فمن ذا الذى سيأخذ بأيدى ابنائنا ؟ ما يحتاج اليه البيت يحرم على الجامع . افق لنفسك يا عبدالرحمن ولا تبعثر مالك » .

« لا . لا . انه ليس مـالى ، انه مال الله ، وهو قادر على أن يحبسه عنى الآن » . وراح يتحسس حنجرته فى خوف ويفكر فيما يكون عليـه حاله لو ان ذلك الصوت ضاع ، وتملكه فزع وراح يدندن ليطمئن على انه ما يزال يملك هبة الله ، وتجـاوب صـوته فى أرجائه عذبا كما كان ، فقال فى رضا : « للناس كلهم حق فيه »

وعـادت تراوده فكرة بنـاء بيت : « ولماذا لا أفعل ؟! سيسوق الله الىّ اناسا لهم حق فى هذا المال ، لهم فيه نصيب . ساغدق عليهم فى العطاء حتى ترضى نفسى ، وسيرضى ذلك زوجتى وابنائى »

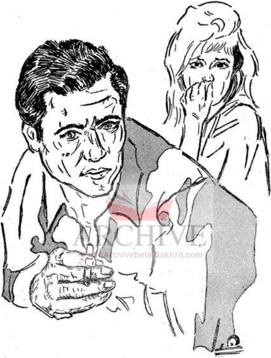
واشترى ارضا وغمرت البيت موجة فرح ، واتفق مع مهندس رشحه له صديق . كان الاتفـاق مبلغـا دفعـه للمهندس بشـيك قبل أن يخط على الورق خطا وكان هـذا هو كل ما بينهما من عقود . وفى ذات ليلة عاد الى البيت وهو يحمل رسم البيت المنشود فاخذه ابنه أمين وعكف عليه يدرسـه ولما انتهى من الفحص والتدقيق دخـل على ابيـه ممتعض الوجـه ، وقال فى نرفزة :

ــ انا لا اوافق على هذا الرسم .

وبسـط الورق ليناقش اباه الا ان عبد الرحمن لم تتفتح نفسه للمناقشة ، وقال :

ــ لست صغيرا يا أمين . اذهب الى المهندس وناقشه فى كل ما تريد ادخاله من تعديلات وذهب امين وعـاد وهو غاضب حانق ، وقال لأبيه فى ثورة

ــ نصيحتى يا ابى الا تستمر مع هذا الرجل .



ـ لماذا يا أمين ؟

ـ لم ارتح اليه ، طريقته فى النقاش لم تعجبنى .

فقال عبد الرحمن فى حدة .

ـ حرام يا امين ان تظلم الناس . اعطه فرصة .

فقال امين فى حدة :

ـ يتخرب بيتنا !

فقال عبدالرحمن فى انفعال :

ـ امين ! انا لا اسمح لك بأن تجرى وراء عواطفك وانتطعن الناس. الرجل لا غاية له الا خدمتنا .

وخرج امين غاضبا واحس عبد الرحمن ضيقا، فما قامت بينه وبين ابنه مشادة قبل أن يشرع فى بنـاء البيت ، وكان يستشعر فى أعماقه ان ابنه فى جانب الحق ، فهو نفسه لم يسترح الى ذلك المهندس بعد أن تكشفت له نذالته فى كثير من أفعاله ، الا انه أبى أن يجرحه ووطن العزم على أن يتحمل مضايقاته حتى ينتهى من تشييد ذلك البيت الذى بدأ يحس وطاته على روحه .

وراح ينفق بسخاء على العمال ويعطى المهندس كل ما يطلبه وهو على اليقين من انه لا يستحق الاموال التى يأخذها وكان يعلل النفس بأنه ما من أحـد يستحق عن جدارة مايفيض عن حاجته، وانما هى ارزاق .. يرزق الله من يشاء بغير حساب !

وتكدست مواد البناء واخذ العمل يسير فى بطء شديد والاموال تتسرب من بين يدى عبد الرحمن حتى بدأ يحس ضيقا ماليـا ، ولم يكن ذلك الضيق يؤذيه مثل ذلك الضيق النفسى الذى كان يستشعره عقب المشـادات التى كانت تشتعل فى البيت كل يوم بينه وبين امين وزوجه ، فقد كانا يتهمانه بانه يترك أمواله نهبا للمهندس ورجاله الذين تجاوز استغلالهم له كل حد .

وفى ذات يوم دخل امين على ابيه وقال :

ــ الى متى ستسكت على هذه المهزلة . ارسل المهندس من سرق نصف حديد التسليح فى الليل .

وانقبض عبد الرحمن وثارت دماؤه فى عروقه ، واحس رغبة فى ان يبطش بأحد وكاد يهم بالثورة على ابنه ولكنه كبح جماح غضبه وقال فى هدوء وان كانت اعصابه تتمزق :

ــ هذا امر يستوجب الشكر .

فقال امين وهو يكاد يثب من الغيظ:

ــ اتريدنى ان اشكر المهندس لانه يسرقنا ؟!

ــ هذا أمر يستوجب الشكر لله ، لأنه أعطانا ما يسرقه الناس ولم يحرمنا ويضطرنا الى سرقة الناس .

ولم يستطع أمين صبرا ، فقال دون وعى :

ــ يا للبرود !

واحس عبد الرحمن كان خنجرا مسموما يسدد الى قلبه وأن كبرياءه تمرغت فى الاوحال وهم بأن ينهض ويصفع ابنه، بيد ان امين انسل من الغرفة وهو يرغى ويزبد ، وجاءت الخادم وقالت :

ــ رجل فى الخارج يسأل عنك يا سيدى .

فقال لها عبد الرحمن وهو ينهض :

ــ قولى له : تفضل .

ودخل الرجل ، كان ذلك الشاب الذى طرد من عمله بعد ان مرض بالسل. كان ذاويا ذابلا وكاد نور عينيه ينطفىء وتلاشى الغضب من صدر عبد الرحمن وشاعت فيه رحمة ، فقال للشاب فى رقة :

ــ تفضل يا بنى .

فقال الشاب والدموع تنهمر من عينيه :

ــ سأموت يا سيدى . انا واثق من ذلك ولكن على ان اصارع الموت . قال لى الطبيب : لا بد ان آخذ مزيدا من ابر الذهب · آسف يا سيدى ان كنت اثقل عليك .

فقال عبدالرحمن فى صدق :

ــ أبدا يا بنى .

ونهض عبد الرحمن وذهب ليأتى ببعض المال ، فلما دس يده فى جيبه لم يشعر بتلك النشوة التى كان يستشعرها كلما اعطى ، فقد كان يعطى من مال أعده لتسديد بعض مطالب البيت الجديد ، وعاد الى الشاب ووضع فى يده المبلغ وقد ثار القلق بين جوانبه .

وخرج الشاب وهو يجر حطامه واخذ عبدالرحمن ينظر اليه وهو شارد . انه كان طليقا يحلق فى السموات قبل ان يشده ذلك البيت الى الارض . كان ناعم البال ، يشدو شدو البلابل ، فاذا به يصبح قلقا خائفا من غده ، يخشى الزوابع التى كانت تهب فى منزله فى أى وقت · كان يعطى الناس نصيبهم فى ماله وهو راضى النفس خفيف الحركة ، فصار يعطيهم والقلق يخفق فى كيانه وخطوه ثقيل وعيناه زائغتان لاتستقران على شىء ، فهو لا يعرف الى اين يمد بصره !

وفى ذات يوم هبت الزوبعة بينه وبين امين ، قال أمين :

ــ الى متى نصبر على هذا اللص ، سرق مواسير الكهرباء وباع أقفال الشقق ومرغنا فى التراب ..

ودخلت الزوجة وجذبت امين من يده وهى تقول له :

ــ تعال . اهدأ يا بنى .

فقال امين وهو يكاد ينشج بالبكاء :

ــ تعالى اسمعى ماذا يقول الناس عنا .. العمال يقولون : لم نر تفغيلا مثل هذا التغفيل أبدا ·

وكادت الدموع تطفر من عينى عبدالرحمن وراح يصرف انيابه فى غيظ ، وتملكه غضب شديد حتى كاد يضرب ابنه ويخرج ليبحث عن ذلك اللص الذى جعله اضحوكة بين الناس ولكنه راح يراود نفسه ويقنعها أن مال الدنيا كلها لايستحق ان يرتكب مثل هذه الحماقات ، انه عاهد نفسه أن يحتقر المادة ليسعد وكان سعيدا حقا قبل أن يصغى الى زوجه التى نجحت فى أن تجذبه الى الارض انها سحابة تطوف بحياته سرعان ماتمر

وانتهى البيت ــ وكان لا بد أن ينتهى ــ بعد ان فر المهندس بكل ما استطاع أن يسرقه وبعد أن ترك العمل يسير على هواه ، ودخل عبد الرحمن على زوجه وابنائه وقال لهم :

ــ خذوا البيت ودعوا لى تفغيلى

واحس كان حملا ثقيلا انزاح عن صدره وان الصدأ الذى ران على روحه قد ذاب وأن النور بدأ ينتشر فى كيانه فقد خرج من سجنه وعاد طليقا ليعطى الناس ــ وهو راض ــ نصيبهم فى ماله ، بل فى مال الله .

في باريس

قصة

بقلم : راشد رستم

كان ذلك فى باريس ، فى ضحى يوم من أيام الآحاد، وفريد جالس فى غرفته كعادته فيه - فريدا وحيدا ، متكاسلا منشغلا ببعض القراءات والكتابات ، واذا به يسمع صوت اقدام نسائية تسرع الخطا نحو غرفته ..

انها «المدموازيل» مارى رئيسة الخدم، تدق الباب دقات سريعة متتالية ، ولكن فى لطف وخفة وأدب .

فريد - خيرا يامدموازيل .

مارى - خيرا خيرا خيرا .. بورنجور مسيو .. أسرع .. أسرع .. هيا .. هيا !

ثم تتكلم بسرعة الف كلمة فى الدقيقة - دون ان تعطى فرصة للاستفسار . مثلها فى ذلك مثل الكثيرات من بنات جنسها الفرنسيات اذا ما ارتفعت درجة اهتمامهن بأى أمر من الامور .. تافها كان أو خطيرا .

فريد - ماذا جرى يامدموازيل ؟ .

مارى - .. فى انتظارك تحت. ها انا صعدت السلالم الى هذا الدور الرابع بسرعة المصعد .. يا الله ! ليس هذا بالأمر السهل .

فريد - يا مد ...

مارى - المصعد عاطل واليوم يوم الأحد .. تصور .. يا مسيو فريد .. ليست غلطتى ولا ...

فريد - يامدمو ...

مارى - ولا غلطة أحد من الخدم ..من يدرى ؟ لعل احدا من السكان قد جاء متأخرا الليلة الماضية ولم يحسن معاملة المصعد .. و ..

فريد - يامدموا ...

مارى - فأساء الى المصعد وهكذا أساء الينا جميعا .. يا الله .. اسرع يا مسيو فريد .. انها .

فريد - يا مدموا ...

مارى - انها فى انتظارك عندى فى مكتب المدخل .. وليست فى ..

فريد - يا مدموا ..

- مارى - نعم ليست فى الصالون .

فريد (وقد قل صبره..) يامدموازيل

مارى ٠٠ حلمك ٠٠ من هى التى تقصدين ٠٠ وماذا فى الامر ؟٠٠

مارى ـ ٠٠ أتسألنى من هى ؟ ألم أقل لك ان « المس » مارجريت هى فى انتظارك تحت فى مكتبى ! ٠

فريد ـ لا ٠٠ لم تقولى شيئا من هذا ٠٠ مع اننى قلت اشياء كثيرة جدا ومع ذلك خير ان شاء الله ثم ماذا جاء بها اليوم بعد غياب أربع سنوات ! ٠٠ ثم لماذا فى مكتب المدخل وليس فى الصالون ؟ ٠

مارى ـ أنا أبقيتها عندى ٠٠ كم أنا أحبها ٠٠ ثم انها غابت بالضبط اربع سنوات وشهرين وعشرة أيام ٠٠٠ كما عملت الحسبة معها الآن ٠٠ ثم قل لى يا مسيو فريد هل أنت تعاتبها على المجىء أم على الغياب ؟! كم أقدرها ٠٠ ولقد سررت جدا جدا برؤيتها ومكثت معها بعض الوقت قبل أن أصعد اليك وان كانت تقول لى انها متعجلة ! ٠٠ ما أجملها وما أرشقها ٠٠ هيا ٠٠هيا ٠٠ أسرع يا مسيو فريد ٠٠ انها متعجلة !

هذه هى المدموازيل مارى النشيطة الطيبة القلب ، المحبوبة من الجميع ٠٠ ثم أكمل فريد هندامه وأسرع ٠٠ ولكن المس مارجريت كانت قد استبطأته فأخذت تصعد السلم ٠٠ واذا بهما يلتقيان فى ذات الموضع الذى كان عنده أول لقاء لهما مصادفة أيام كانت تسكن فى نفس الفندق البيتى منذ اربع سنوات ٠

وقف كل منهما جامدا فى مكانه وقد أخذتهما المفاجأة السارة فجعل كل منهما ينظر الى الآخر لحظة أو بعض لحظة ٠٠٠ثم ما أسرع أن تحركت الشفاه وشاعت البسمات وبانت نشوة اللقاء بعد طول الغياب ٠٠ ثم اندفعت مع النظرات العميقات تيارات الاشتياق والترحيب الحبيب ٠٠ وقد تولاهما الاضطراب المحبوب فتسرع العيون فى قليل من اللحظات تسرح فيها مع مكنون ذكرياتها الماضيات لتفرح بها فيما ترجو من بهجة الايام ٠٠٠ ثم انطلقا فى نبرة واحدة ٠

هى ـ كيف أنت ٠

هو ـ كيف أنت

ثم تقاربا ليسيرا جنبا الى جنب نحو الباب الكبير للخروج ٠٠ وتخبره بأنها وصلت صباح اليوم بالطائرة وانها حاولت الاتصال تلفونيا فلم توفق فتركت حوائجها فى الفندق وأسرعت اليه خشية خروجه رغم علمها بانه يلزم « قلعته » صباح الآحاد ٠٠ ثم تميل اليه فى دلال واشتياق وتقول :

مارجريت ـ هل أنت حر اليوم ؟

فريد ـ اليوم وبعد اليوم ٠

مارجريت ـ (فى رقة ونظرات سارحة) هل تسمح لى ان اتناول الغداء معك اليوم ؟!

فريد ـ هنا ؟

مارجريت ـ نعم هنا ٠

فريد ـ بكل سرور ٠

مارجريت ـ اذن تسمح لى بان اذهب الى الحلاق ؟

فريد ـ هكذا سريعا ٠

مارجريت ـ انها باريس يافريد ٠

فريد ـ في الانتظار ٠

ثم اوصلها الى العربة وعاد راجعا ماخوذا بالدهشة الممزوجة بالبهجة لهذه الزيارة المفاجئة ٠٠ وهو وان لم يستطع ان ينساها مدى تلك السنين غير انه لم يكن يظن ان القدر سيجمعهما مرة اخرى ٠ وفى الحق لقد كان يحمل دواما ذكرياتها وهو كسيف حسير حزين ٠

واليوم يشعر بالسرور يحتويه ويسرى فى فؤاده وبالانشراح يملأ جنانه وبالنشاط يدب فى كيانه ٠

وفى عودته جابهته المدموازيل مارى تخبره انها أتمت كل شىء ! ٠٠ وانها أصدرت الاوامر لترتيب المائدة ٠٠ وان توضع فى الركن الهادىء من صالة الاكل وأن تجعل لاثنين وتزين بزهرات النرجس ٠٠ وأن يقدم النبيذ الابيض الخفيف وان يقدم الطعام فى الوقت الذى تكون فيه الصالة قد خلت من كل أحد ٠٠ و ٠٠ و ٠٠

عجب فريد من أمر مدموازيل مارى وتتبعها لهما بلباقة مع العناية الفائقة واستراق السمع وهما يتحدثان ٠٠ بل يتناجيان ٠

على أنه شكرها على هذه الرعاية ٠ ثم اتجه نحو المصعد ليعود الى « قلعته » ٠

مارى ـ ماذا بك يا مسيو فريد ٠٠ الست مسرورا أم أنك مشغول البال ؟ الم أخبرك منذ قليل بان المصعد عاطل اليوم ! ٠٠ هل نسيت أم أن شيئا قد شغلك فانساك ! بالله ماذا بك يا مسيو فريد ؟ ٠٠

فريد ـ (فى ارتباك بسيط) لاشىء ٠٠ لا شىء ٠

مارى ـ أرجو ذلك وارجو ان اقول لك شيئا ٠

فريد ـ تفضلى ٠٠ قولى ٠

مارى ـ كل ما اعلمه عنكما جميل وجليل ٠٠ ان امثالنا يفهمون الناس سريعا وصحيحا ٠

فريد ـ اشكرك كثيرا ٠٠ وانى احفظ لك منذ الايام الاولى كل خير ٠

مارى ـ ٠٠ ان «المس مارجريت» تنطوى نفسها على صفات وطباع تسير وتتفق مع نظام معيشتك ٠٠ لقد عرفتها وخبرتها وخبرت ميولها ! ٠

فريد ـ (مرتبكا) ما هذا يامدموازيل ٠٠ وما الداعى الى كل هذا ! ٠

مارى ـ ليس فى كلامى شىء غريب او غير صحيح ٠٠ ان التقريب بين القلوب ليس كالتنفير منها ٠٠ اليس كذلك ؟ ٠

فريد ـ ٠٠ نعم ٠ نعم انه حق كذلك

وبعد الغداء اللطيف فى جو الخريف المنعش مع نشوة النبيذ الخفيف ، فى صفاء الميول ورقة الرضا وحسن القبول والجلسة ذات الاحاديث ٠ عرض فريد على « ضيفة الشرف » ٠٠ تناول القهوة على الطريقة الشرقية ٠

مارجريت ـ جميل ٠٠ أيصنعونها هنا ؟ ٠

فريد ـ لا ٠ ولكنى انا الذى اقوم

بعملها ·· ربما في غرفتي ·· لذلك ربما ! ·

مارجريت ـ ربما ماذا ! هيا بنا الى غرفتك ·· كم كنت مشتاقة اليها وكم حدثتني المدموازيل ماري ·· عنها ·· وما فيها من روح وحياة ··

فريد ـ (مبتسما معجبا راضيا) المدموازيل ماري ·· نعم المدموازيل ماري دائما ·· انى أقدر لفتاتها وخدماتها وأحترمها ·

مارجريت ـ اتتهكم ·

فريد ـ كلا · حقا كلا ·

وفي لمح البصر كان فريد ومارجريت في الغرفة « ذات الروح والحياة » وفي لمح البصر كذلك لاحظت مارجريت كل شيء فيها ·· ثم ألقت بنفسها في راحة واطمئنان على «الديفان» ·· وهي تقول :

مارجريت ـ انى عاتبة عليك كثيرا يا فريد ·

فريد ـ خيرا ·· !

مارجريت ـ ألا تذكر عندما جئتبك يوما الى غرفتي في فندق في تلك الايام الاولى ·· ورفضت ان تجلس لتمكث ·· وبقيت واقفا · في رزانة ولكن في رشاقة ·· كما يقف برج ايفيل هنا بباريس صامتا وهو الذى تصدر عنه من اعلاه تيارات وموجات أثيرية قوية الهزات ··· ألا تذكر ؟ ··

فريد ـ (في استحياء) أذكر ·

مارجريت ـ كم من الزمن مضى على ذلك ؟ ·

فريد ـ اربع سنوات ·

مارجريت ـ لا ، بل اربع سنوات وشهرين وعشرة أيام ·

فريد ـ (ضاحكا مسرورا) اكثر الله من امثال المدموازيل ماري ·

مارجريت ـ أتتهكم عليها ·

فريد ـ معاذ الله ·

مارجريت ـ ان الامر يخصنا · دع ماري الآن · أتدري ! · لقد ارتفعت انت يومذاك في نظري قدرا وتقديرا · فوق قدرك وتقديري ·· فلا تبتئس بما اقوله لك الآن ـ فقد نشأت انا بين قوم محافظين ·· يرضيهم هذا شكلا وان كان لا يرضينا موضوعا ·· ولكني فهمتك يومذاك اكثر من أي يوم سابق ·· ما أحلى الحياء مع الود والاخلاص ! انى آسفة لهذا الحديث ذى الشجون ولكن معذرة ·· انى أعيد ذكرى ماض لم يمض ·

فريد ـ حقا كل ما تقولين ·· ان الناس لهم الظواهر ·· انى أحب من يحبني ولا أكره من لايحبني · انه حر · وأنا حر · غير انى لا اتظاهر بل افضل في ذلك الصمت والهدوء · مع الرضا والاخلاص ·· أليس لكل وجهة هو موليها ؟ ·

مارجريت ـ نعم · الناس احرار فيما يفعلون ·· ولكني أطالبك من الآن بأن تفصح عن نفسك بلسانك كما تعلن عنها بعينيك ·

فريد ـ أليست العين أفصح من اللسان ؟ ·

مارجريت ـ (ضاحكة راضية) وهي اخطر ·

وبعد فترة صمت وسـكون وهدوء وتأملات من الطرفين المتناقشين ! .. سألته عن القهوة وأجابها بأن المناقشة أو المناوشة .. أخذت منهما وقتا كان لطيفا بفضل المدموازيل مارى .

مارجريت ـ يا للمسـكينة .. انى أقدرها وأحترمها واحفظ لها جميـل الذكريات .. والآن اريد ان ارى كيف تصنع القهوة التى وعـدتنى .. اياك الا تكون هناك قهوة اطلاقا ! .

فريد ـ ها هى ذى ..

مارجريت ـ حقا انها لذيذة ومنعشة اكثر من القهوة الفرنسية السوداء ذات المرارة مثيرة المرارة .

ثم ادارت بصرها فى الصور المعلقة وهى ترشف من القهوة فى استمتاع واسترواح . ثم تسأل ..

مارجريت ـ صورة من هذه ؟

فريد ـ صورتى وانا صـغير . انى أحبها واحتفظ بها امام ناظرى دائمـا وان كانت مناسبتها فى ذاكرتى دواماً. لها ذكرى طيبة مع والدى وأنا فى الرابعة . وقد خلعت أول سن لى . ثم أرضانى والدى بما اشتراه لى مما يعرف انى اميل اليه من لعب الاطفال ـ قطار سكة حديد ثم اخذنى الى صاحبه المصور النمساوى الشهير . فكانت هذه الصورة .. التى ارتاح اليها كثيرا وارضى عنى فيها .. ولا أدرى لماذا وضع المصـور فى يدى اليسرى كتابا ـ ولم أكن لذلك السن اذهب الى المدرسة وان كنت أتلقى من فقيه البيت سورا من الكتاب الـكريم وبعض المحفوظات دون كتابتها .. وكان ذلك المصور اللطيف قد أوحى اليه بما سيكون لى من حب الكتب واقتنائها حتى صارت لى مكتبة كبيرة معروفة . أعتز بهـا كائمن شىء لى .. وأقضى أروح أوقاتى فيها .. وأقول عنها ..«اذا غبت عنكم فاسألوا عنى مكتبتى » .

مارجريت ـ وما هذا المكتوب تحت الصورة ؟ .

فريد ـ انه بالفرنسية، وبالانجليزية وبالعربية ما معناه ـ فى أيامى مـع جنياتى ... !

مارجريت ـ حقا انها صورة بديعـة طريفة .

فريد ـ ان ذلك المصور كان فنـانا قـديرا . وكان والدى كذلك فجمعت بينهما محبة الفن سـواء كانت حرفة أو هواية .

مارجريت ـ نعم . الصـورة جميلة جدا .. غير انى اقصد اكثر من ذلك ان الذى فى الذى فى الصورة .

فريـد ـ .. والذى فى الذى فى الصورة .. أهو جميل كذلك ؟ ..

مارجريت ـ لا تتهكم .. كفاك تهكما .. اسمع ان فى الشـخص الذى فى الصورة (وهو سيادتكم ..) شـيئا جميلا آخر .

فريد ـ حسن وما هو هذا الشىء .. يا ترى ؟ .

مارجريت ـ ألا تعرفه ؟



فريد ـ ليتنى أعرفه بعد هذه السنين الثلاثين · انى بطىء فى فهم الفوازير ·

مارجريت ـ قلت لك لا تتهكم ·· انظر الى الصورة أولا ·· ثم انظر الى عينيك فى المرآة ·· ثم دعنى انظر اليك والى الصورة ·· ثم تعال أريك كيف تحل الالغاز والفوازير ·

فريد ـ ·· لا تتهكمى ·· !

مارجريت ـ ان الذى فى صورتك صغير هو عينه فيك كبير ·

فريد ـ لم أفهم شيئا ·

مارجريت ـ عيناك · عيناك ·· كأنى بهما اليوم هما فى ايامك مع حورياتك الصغيرات ·

فريد ـ حقا · وان كلمة الحوريات الصغيرات افضل من الجنيات ·· وان كانت الجنيات أوفق ·

مارجريت ـ ان الذى فى عينيك هو فيهما لايزال ·· وان كانت قد اتسعت دائرة لعبه مع الحوريات الكبيرات ·

فريد ـ وانت ! انت كذلك ··

مارجريت ـ انا ! انك لم تعرفنى صغيرة ·· وليست لى امامك صورة مع ··

فريد ـ مع ·· مع ·· مع ·· لست أدرى ! ·· ولكن شعورى ـ وهو لا يخيب ـ يقول لى ان فمك هذا هو فمك ذاك ·

مارجريت ـ (فى دهشة الارتباك) فمى ! أهكذا تعلمت سريعا ان تفصح بلسانك كما كنت تتكلم بنظراتك ؟ ..

فريد ـ ولم لا ! وانى أكاد أقرر ان هذه الشفة التحتانية هى هى .. فيها كل شىء .. وان كان هذا الشىء قد ازداد مع الأيام .

مارجريت ـ لن تغلبنى . فانا لازلت استاذتك . وانا الذى حركت لسانك بما يدور فى عينيك . وبين جنبيك .

فريد ـ ولكنى برهنت على انى تلميذ سريع الفهم سريع التطبيق .

مارجريت ـ ولكن ما قولك .. فى ان شفتى هذه ليست هى شفتى تلك ! ..

فريد ـ أمر غريب .. وكيف كان ذلك ؟ .

مارجريت ـ اننى انا التى حولتها الى ما ترى .. وكانى جنيت عيبها بنفسى أو جنيت بها على نفسى !

فريد ـ على العكس . ليس فيها ما يعيبها وليست تعيبك .. بل هى جميلة .. مليانة .. جذابة .

مارجريت ـ هذا ما قصدته لها .. ولكن قل لى أتقول حقا أم تتهكم ؟ .

فريد ـ اقول حقا . وأقول ما أعتقد بل وما أشعر وما أرى ..

مارجريت ـ اسمع . لقد كنت وأنا صغيرة ازيدها امتلاء ووضوحا ..

فريد ـ ماذا تقولين .. أيمكن ذلك ؟

مارجريت ـ نعم . بالتدليك الدائم وبالارادة . حركات اليد ومسحاتها وبالصبر مع الزمان وعلى الزمان مع رغبة الاتقان .

فريد ـ وماذا كان قصدك من ذلك ؟ لعله للفتنة والافتتان .

مارجريت ـ الآن يرضينى تهكمك .. فالشفتان اللتان تحبان التهكم على طريقتك ، تحبان المتهكم عليه .

فريد ـ ارتضينا .. ولكن لم تذكرى ماذا كان قصدك فى شفتك ؟ .

مارجريت ـ ان اجعلها مثل شفة المرحومة والدتى .

فريد ـ ولماذا ؟

مارجريت ـ لانى كنت أشعر بلذة قبلاتها ..

فريد ـ هذا غريب .. امسحات اليد حتى مع الاستمرار تفعل هذا ؟!

مارجريت ـ صدقنى .. انظر .. هات يدك .

فريد ـ يدى ! وما شأن اليد بالشفة ! .

مارجريت ـ اذن هات شفتك .

أزمة القصة الحديثة ...
بين تصوير الواقع والإغراق في الخيال

بقلم : خيري حماد

هناك شبه اجماع ، عند كتاب النقد فى مختلف البلاد الأوروبية على أن القصة الحديثة تعانى أزمة شديدة ، وان هذه الازمة ناشئة عن عدة عوامل مختلفة ، بعضها موضوعى ، والبعض الآخر ، متصل بالظاهرة المادية ، التى أخذت تسيطر على العالم سيطرة كلية ، سواء أكان العالم الرأسمالى أم العالم الاشتراكى ، وهم يقولون أيضا ان هذه الأزمة هى جزء من أزمة الفن العالمية ، التى بلغت ذروتها من جراء ما تواجهه شخصية الفنان اليوم من تناقضات ، ولا سيما فى العالم الرأسمالى ، وما يحيط بها من يأس ملحوظ ، هو ثمرة هذا الخطر النووى الذى يسيطر على البشرية بأهواله ومفازعه ، جاثما على صدور الفنانين وعقولهم ، وكاتما كل ما يعتمل فى نفوسهم من أحاسيس انسانية ، مهددا اياهم ، بالاستعاضة عنها ، بتفجر الغرائز البشرية التى سيطرت على الانسان فى عهده البدائى ، والتى صقلتها الحضارات المتلاحقة ، الى أن وصلت به الى ما يكاد يشبه الكمال ، فى الجمالية والاحساس بما فى الحياة من صور الفتنة والروعة •

وكانت هذه الازمة ، الموضوع الاساسى للبحث فى المؤتمر الذى عقده عدد يتجاوز الاربعين من كبار الكتاب والادباء فى أوربا كلها ، فى مدينة لينينجراد السوفياتية قبل بضعة شهور ، والذى اشترك فيه لفيف من الكتاب ذوى الشهرة على الصعيد العالمى ، من أمثال جان بول سارتر وناتا لى ساروتى ورينيه ماهيو وروجيه جيلواز من فرنسا وجيرى هاجيك من تشيكوسلوفاكيا ودوشان ماتيك وايفان لاليك من يوجوسلافيا وانجوس ويلسون وجونلهيمان وبرنارد وول من انجلترا وجيوسيبي أونجاريتى وجيانكارلو فيجو ريلى جياكومو ديبنيديتى من ايطاليا وايلياس فينزيس من اليونان وهانز ريختر وماجنوس اينزينبرجر من المانيا الغربية وهانز كوخ وبول وينز من ألمانيا الديموقراطية وبنتالى زاريف من بلغاريا وستيبور ديرى وجابور تولناى من المجر وكاتى اوبريان منايرلندة وريزارد ماتوزديسكى من بولندهواوفيديو

كروهما لينسينو من رومانيا وكاى لبتينين من فنلنده وميخائيل شولوخوف وقسطنطين فيدين، وليونيد ليونوف وايليا اهرنبورج واليكساندر تفاردونسكى واليكس سيركوف وسيمونوف وجرافين وغيرهم من الاتحاد السوفياتى ·

ويبدو أن اتحاد الكتاب العالميين قد اختار مدينة ليننجراد كمكان لانعقاد هذا المؤتمر الذى استغرق أياما عدة قضاها فى مناقشات حادة ، لأن هـذه المدينة تمثل متحفا حيا وقائما للحضارة والثقافة الروسية ، كما تمثل بما فى مناظرها الجميلة الخلابة من روعة ، مصدر الوحى والالهام لـكتاب روسيا العظام من أمثال تولستوى وتشيخوف ودوستويفسكى وبوشكين وجوركى · وبالرغم من أن بحوث هذا المؤتمر ومناقشاته قد تناولت شتى البحوث والمواضع الأدبية ، الا أنها تركزت بوجه خاص على مستقبل القصة المعاصرة ، لأن القصة تمثل الفرع الذى يحتل مكانة مرموقة بين فروع الادب فى العالم كله ·

وقد تضاربت الآراء ، بين مختلف الاعضاء المشتركين فى المؤتمر وشملت شتى المجالات الجمالية والفنية ، والاتجاهات الفكرية الحديثة ، لكن هذا التضارب الذى لم يتعد حدود الظلال ، ظل يدور فى أجواء رفيعة من المناقشات الودية التى تقيم الدليل على وحدة العالم ووحدة الحضارات الانسانية ، بالرغم من التباينات العقائدية والاصطراعات المذهبية ، وكان ثمة ما يكاد يشبه الاجماع عند جميع المشتركين ، على الرغبة فى وضع الادب فى خدمة قضية السلام ، وفى احساس الجميع بمسئوليتهم تجاه مصير الانسانية ، وبكرههم للحرب والفاشية والعنصرية · ولا ريب فى أن فيجوريلى ، الكاتب الايطالى المشهور ، كان يعرب عن رأى زملائه من أعضاء المؤتمر كلهم ، عندما قال ان الكاتب الذى يدعو الى الحرب أو يقبلها لا يعتبر كاتبا ، وان واجب الكاتب الاول فى عصرنا هـذا ، أن يستخدم فنه فى الحملة على الحرب ، وعلى العزلة العقائدية ·

واتضح من مناقشات المؤتمر ، ان القصة ترتبط اليوم ارتباطا وثيقا بعدد ضخم من المشاكل ، وان من الصعب بمكان كبير بل ان من المستحيل أن يكون ثمة اتصال على الصعيد العالى ، بين كتابها ، قبل التمكن من حل هذه المشاكل ، أو من حصرها فى المجال المحلى على الاقل · وكان من رأى جان بول سارتر ، ان هـذه المشاكل النظرية يجب أن تبحث ، لايجاد حلول لها ، ضمن اطارات من الاجتماعات الصغيرة ، وبكثير من الروية ، والغوص فى تبين زواياها المختلفة · ومهما كانت النتائج العملية التى تمخض عنها المؤتمر ، محدودة فى النهاية ، الا أنه كان نافعا كل النفع ، ومهما كل الاهمية · فقد أتاح الفرصة ، لتحديد وجهات النظر والكشف عن العوامل الاساسية، كما اسهم فى التقريب بين كتاب مختلف البلاد ، وعلمهم على تبادل الاصغاء والاستماع الى الآراء المتضاربة بعقول متفتحة ، بالاضافة الى ما حققه من تحطيم كثير من الاهواء والحزازات العميقة الجذور ·

ومنذ البداية ، اتضح أن هناك تباينا فى وجهات النظر بين كتاب العالم الاشتراكى وكتاب العالم الرأسمالى، اذ بينما تحدث قصصو الاتحاد السوفياتى وغيره من البلاد الاشتراكية عن ازدهار القصة وآمالها المشرقة فى الغد ، كان معظم قصصى الدول الرأسمالية ينظرون اليها نظرة تنطوى على التشائم ، متأثرين بخوفهم من الانطباع الذى يتركه هذا التسابق فى السلاح النووى ، على احساس الكتاب بالجمالية ، وان كانوا لم يفقدوا الأمل على الاطلاق ، فى أن يتغلب احساس الفنان المرهف بالجمال على مشاعر الخوف ، وأن يقوده هذا التغلب الى العثور على مخرج من هذه الأزمات ٠

ومال بعض الكتاب الى الخلط بين « أزمة القصة » وبين الميل الطبيعي فيها الى التطور متأثرة بفروض الحياة ، واملاءات سير الزمن ٠ فقد تحدث الكاتب الايطالى المعروف اونجاريتى ٠ مثلا ، عن تبدل العالم السريع ، مؤكدا أن غزو الفضاء قد أدى الى الكشف عن عوامل جديدة لم تكن منظورة حتى الأمس القريب ٠ وأضاف ان العالم يشهد فى كل يوم تبدلات ضخمة فى جميع مظاهر الحياة فيه من شوارع ومدن وطرق مواصلات ، وتغيرات كبيرة فى أفكار ساكنيه ٠ وبات فى وسع الانسان اليوم دون أن يغادر مقعده ، أن يطوف حول العالم كله ، بل وفى أبعاد تتجاوز حدوده المعروفة ٠ ولا ريب فى أن هذه الحقائق ستدفع الفنان الى البحث عن وسائل جديدة للتعبير عن مرئياته الجديدة ٠ وراح فى النهاية يقول ان على الكاتب أن يتغلب على ما تبديه المادة من مقاومة عنيدة ، اذ أن الفن فى اصطراع دائم مع العالم ، نتيجة ما يبذله من محاولات لتجديد شبابه،أثناء محاولته الوصول الى جوهر الانسان ٠

ولم يختلف الادباء السوفيات مع اونجاريتى فى رأيه هذا ، اذ أن الادب السوفياتى ، أصبح بعد انطلاقته فى عهد خروشوف من القيود التى كان ستالين قد فرضها ٠ متحررا ومتجاوبا مع الطبيعة وميالا الى الابتكار ٠ ويميل رجالاته ، الى أن يظهروا تلك التبدلات الجذرية التى تقع الآن فى المجالات السياسية والاجتماعية ، وان شكل الحياة وبنيانها آخذان فى التغيير ، وان الانسان نفسه وعقليته ، يتعرضان الآن لمرحلة ضخمة من التحول ٠ ولا ريب فى أن هذه التبدلات تفرض على الفنان مسئوليات واجبات جديدة ٠ ولعل أصدق ما يجسد هذه الأفكار ما ورد على لسان قسطنطين فيدين ، رئيس اتحاد الكتاب السوفيات ، اذ قال أثناء المناقشات التى دارت فى المؤتمر ٠٠٠ « ان مادة الواقع ماضية فى طريق التمدد والاتساع ، ومن الطبيعى والحالة هذه ان تكون صياغتها فى القصة ، عرضة للتبدل ، فالشكل ليس رداء جاهزا تلبسه القصة ، كما أن موقف القصصى منه ينبثق من اعترافه بأن مايكتبه مستمد من واقعه » ٠

وحمي وطيس النقاش والحوار بين الكتاب والقصصيين عند الحديث عن أزمة القصة • وكان بعضهم يرى أن الكتاب يعانون ضائقة في الطاقات الخلاقة ، وفي البحث الذي لاينتهي عن مادة جديدة • وأضافوا أن على الكاتب وهو يتاهب لانتاج قصته أن يحدد هدفه ويختار طريقه ، اذ ليس من السهل بالنسبة اليه ، أن يصل الى هدفه المرتجى ، لا سيما وانه يبدو غامضا منذ البداية في تصوره • أما ايليا اهرنبورج ، الكاتب السوفياتي المعروف ، فقد ذكر أن الازمة قائمة في العمل الخلاق ، وانها تعني عند الكاتب ، حالة من الحمل لا بد وأن ينطوي المخاض فيها على الكثير من الآلام •

وحمل بعض الأعضاء حملة عشواء على « القصة الواقعية التقليدية » ، وأعربوا عن رأيهم في أن صورها وأشكالها ، ناقصة ومشلولة وجامدة • وانها تحمل الطابع الوصفي في القالب وتبدو عاجزة عن عكس ما يقع من تبدلات واسعة في واقع اليوم• وقال القصصي الفرنسي روجر جيلواز ، ان الذين اسهموا اسهاما كبيرا في الادب العالمي المعاصر ، لعبروا كثيرا • عن الاشكال التقليدية للقصة التي عرفها القرن التاسع عشر • لكن الازمة الحالية تتمثل في العثور على دروب جديدة في الفن ، يبتعد فيها أصحابها عن « بهلوانيات » الادب •

وشاركه جيدو بيوفين في رأيه هذا ، وأكد أن القصة « التقليدية » لم تعد مجدية ، لا سيما وأن كتاب الغرب ما عادوا يرضون بقصص الماضي • وأضاف أن على القصصيين أن يسيروا على منوال دوستويفسكي وبروست وجويس ، اذ أن هؤلاء الثلاثة استكشفوا أعماق النفس الانسانية • ومع ذلك فقد اعترف بأن بروست وجويس ، قد شهدا عصر الانحلال ، وانهما سارا معه الى حد ما ، مما دفع الواقعيين الجدد من كتاب القصة الى عدم متابعة السير في طريقهما ، والى القيام بمحاولة جديدة لتعميم واقعنا الذي أصيب بالتجزئة •

ومع ذلك اضطر معظم الذين هاجموا القصة الواقعية التقليدية والقصة الواقعية السوفياتية ، الى الاعتراف بأن القصة الجديدة التي ينادون بها لم تخلق بعد ، وانها ما زالت في دور المخاض، وان كل ما وضع منها حتى الآن ، لا يعدو أن يكون محاولات أولية في طريق الوصول الى القصة الحقيقية ، تمهد لها الطريق ، وتهيىء السبل لخلق القصة الجديدة •لكن هذه القضية ذات نواح متعددة ، ولا يجوز المرور عليها مر الكرام على هذا النحو • ولعل الكثير مما يتعلق بها ، يعتمد أولا وقبل كل شيء على حقيقة ما يعطيه الكاتب لقارئه ، وعلى مسئولية القصصي أمام قرائه ، الذين يتحتم عليه ، أولا وقبل كل شيء تحديدهم ، ومعرفة اتجاهاتهم وآرائهم ، وذلك قبل تحديد الهدف الذي يكتب من أجله قصته •

ويبدو أن الكثير من تجارب القصة المعاصرة ، قد أهمل كل الاهمال • الموضوع الرئيسي لها ، وهو الانسان المتكامل • فعندما يركز الكاتب على الاشياء التي يراها ،

أى على الموضوع ، فان تركيزه هذا ، ولا سيما اذا اتسم بطابع الغلو والاغراق فى الموضوعية ، يعتبر دليلا على أن الكاتب يعانى أشد العناء من أزمة ذاتية فى قرارة نفسه تشير الى عدم الرضا عنها ، أو الاقتناع بها . وقد ناقش المؤتمرون هذه القضية بكثير من الاسهاب والتفصيل ، والتضارب فى الرأى ، وذكر أحدهم ، وهو القصصى الايطالى جياكومو ديبينديتى ، ان ما يواجه الاتجاه الواقعى الجديد فى ايطاليا لا يعدو أن يكون أحد خطرين : أولهما الاغراق فى الذاتية ، والثانى الغلو فى تصوير الطبيعة . وقد أدى هذا الاغراق الى خلق ما يكاد يشبه السراب فى مرئيات القصصيين الجدد الذين يحاولون الجرى وراءه فلا يلحقون به . فهم يحاولون أن يجعلوا من أبطال قصصهم أحيانا شخصيات حية ، ولكنهم لا يلبثون أن ينحرفوا عن هذا الاتجاه ، وتكون النتيجة محاولة قصة ، لا تصل حدود القصة الحقيقية .

واعترف ممثلو القصة الفرنسية الحديثة من أمثال ناتالى ساروتى وآلان روب۔ جرييه ، بانهم بالرغم من اصدارهم ، على الاستعاضة عن تقاليد القصة القديمة . وقيم القرن التاسع عشر بشىء جديد ، فانهم لم يحددوا هذا «الجديد» بعد ولم يصلوا اليه . وقال روب ـ جرييه ، انه يشعر بضعف مركزه ، ولكنه سيمضى فى الكتابة مع هذا الضعف ، فلعله يكتشف طريقه ، ويحددها ، ايمانا منه بأن هذه الطريقة فى المحاولة ، هى الوسيلة الوحيدة للوصول الى قيم فنية جديدة . واضاف أنه يعتقد بان القصة الاشتراكية الواقعية لاترضى تطلعاته ، اذ أنها تركز على القيم الاخلاقية الشائعة والمعروفة . واتفقت ناتالى معه فى رأيه ، وأكدت أن على الكاتب أن يتحول من ذلك الواقع المرئى ، الذى عرفه الجميع ودرسوه الى خلق « واقع جديد » يخصه ، مكتشفا فيه أشياء ما زالت غير منظورة ، ومركزا على عالم ذاتى يمت اليه وحده .

لكن هذا الرأى الذى جاء به الكتاب الفرنسيون الجدد ، لم يكن جديدا فى حد ذاته ، فقد سبقهم اليه الكثيرون ومنذ حقب طويلة ، وكان يشكل المعضلة المعقدة التى واجهت عددا من كبار كتاب القصة على الصعيد العالمى ، منذ مستهل قرننا الحالى ، فقد يتصف التعبير الذاتى بالعمق ، وقد يمضى التحليل النفسى الى أغوار بعيدة محاولا تكشف النفس الانسانية واستجلاء غوامضها ، ولكن هذا التحليل وما يلحق به من تعبير ، لا يمكن أن يخلق عملا فنيا ضخما ، اذا بعد عن الواقع . وانفصم عن الحقيقة، لأن هذا الواقع ، هو الذى تحس به أفئدة الملايين من القراء .

وبالرغم من قدم المشكلة بين الكاتب والواقع ، فانها ما زالت تتسم بطابع الجدة، وتكتسب فى كل يوم أبعادا ومفاهيم جديدة أيضا . ولعل من هذه المفاهيم ، أن العلاقة بين الكاتب وواقعه ، أزلية وسرمدية ، فاذا ما حاول الكاتب الانفصام عنها

بحثا عن أشياء جديدة ، تحول الى الذاتية أو الى الاغراق فى الخيـال ، مع ما فى ذلك من خطر يهدد وجوده الفنى • لكن هذه الناحية من التفريط ، تقابلها ناحية أخرى ، لا تقل عنها خطورة من الافراط والغلو • فالانسياق بعيدا وراء الواقعية ، يفقد الانتاج الادبى كل روعة فنية ، ويحوله الى شىء آلى صرف ، لا حياة فيه ولا حيوية • ومن هنا كان لا بد من محاولة الجمع بين الواقع ، والخيال الخلاق لتصوير الحقيقة ، اذ أن هـذا الخيال لا يمكن أن يعتبر فنا الا اذا كان على اتصال بحياة الجماهير، والا اذا كان صاحبه الفنان ، سواء اكان كاتبا أم مصورا ، قد حدد هدفه من تصويره لهذه الحياة •

واذا ما تتبع المرء ما دار فى هذا المؤتمر الذى اشرنا اليه من مناقشات اتسمت بطابع الحـدة أحيانا ، رغـم استمرارها فى جو ملؤه الود ، تبـين له وجود نظريتين متعارضتين كل التعارض ، يحمل احداهما الكتاب الجدد فى الدول الغربية • ويحمل ثانيتهما كتـاب الدول الاشتراكيـة • وتقـول النظرية الأولى ، التى تعتبر جويس وبراوست وكافكا من روادها ، وأن أصبحوا متخلفين الآن بالنسبة الى ما طرأ عليها من تطورات جديدة • ان القصة الجديدة ترتكز الى حرية الخيال فى تصوير مايراه الكاتب، وان هذه الحرية هى الطريقة الوحيدة لتصوير عالم اليوم ، ورسم وسائل التغلب على كل ما يعترض طـريق الانسـان • أما النظرية الثـانية فتقول ان الخيـال ، لا يأتى بالمفاجآت ، وانه دائمـا محدود الآفاق والرؤى والصور ، أما الواقع ، فمحيط واسع شاسع ، لا يرقى البصر الى امتداداته • الا الى آفاقه أو حدوده ، لأنه يستمد صوره من الرؤى الكثيرة والمتنوعة لحقيقة الحياة ، والانسان وترابط وجودهما •

وتضيف النظرية الثـانية أن مستقبل القصة كماضيها ، لا يمكن أن يكون فى صورة واحدة ملتزمة ، لا تخرج عن الحدود المرسومة لهـا • وبالرغم من أن ادعاءات النظرية الأولى ، توحى بالتنوع وسـعة الافق ، الا أن الخيال ، رغم ما يصوره البعض بالسعة والامتداد ، لا يماثل فى حقيقته الواقع الذى تتعدد رؤاه ، وتختلف صوره ، وتتنوع مشاهده • فالافاق الواقعية أوسع بكثير من افاق الخيال ، بالرغم من المعـانى الظاهرية التى تلتصق بالخيالات ، وذلك لأن الواقع أغزر مادة ، وأوفر عطاء وأكثر غنى فى العثور على الحلول الفنية لمختلف المشاكل الحياتية •

وليس القصد من القصة أن تكتب فحسب ، وانما القصد منها ، أن تقرأ قبل أى شىء آخر • وهذه بدهية أولية ، من مسلمات المنطق • فالقصـة التى لا تجد من يقرأها ، تفقد أساس وجودها ، ويصبح العدم طابعها وصفتها المميزة • والقارىء يريد تصوير واقعه ، وعرض الحلول لمشاكله ، اذ أنها المشاكل التى يواجهها فى كل يوم ، كما أن هذا الواقع ، هو الذى يعيشه ويحياه ، ويريد أن يراه مصورا أمامه ، تماما كما

يود المرء أن يرى صورته فى المرآة التى تقف أمامه ، ليطلع على ما فى صورته الحقيقية من عيوب ، ويراها بعين الناقد المحص الباحث عن اصلاح حاله • ومن هنا كانت مهمة القصصى الأولى ، على حد تعبير شولوخوف ، الكاتب السوفياتى الذائع الصيت ، أن يكتب قصة تخدم مجتمعه وقراءه ، وتعبر عن اهتمامه الشديد بمشاكلهم •

وليس ثمة من شك فى أن شولوخوف كان محقا فى رأيه كل الحق • فالكاتب الذى يضع نصب عينه منذ البداية ، أن يكتب الى حلقة صغيرة من قرائه المعجبين به وبخيالاته ، انما يحاول الافلات من مسئولياته تجاه مجتمعة ، والخلاص من واجبه نحو الملايين من الناس • ففى الوقت الذى ينشغل فيه هذا الكاتب الجمالى بدراسة ذاته واكتشاف خفاياها وتصويرها ، هناك خطر يهدد المجتمعات الحديثة ، ينبع من هذا الادب الرجعى اللا انسانى ، الحافل بالامتهان للانسانية ، والمتطلع الى السيطرة على الجماهير عن طريق غرائزها ، مسمما أفكارها بالرؤى والخيالات التى تستهوى هذه الغرائز وتنأى بها عن واقعها ، ومشاكلها الحياتية اليومية • ولا ريب فى أن هذا الخطر يمثل العدو الأول للمجتمعات الانسانية الذى يتحتم على الكتاب الواقعيين التقدميين، مجابهته ، بشعور من المسئولية ، والحافز على أداء الواجب •

وتنبع من هنا مسئولية الكاتب فى تحديد من يكتب لهم ، وتحديد ما يريد أن ينقله اليهم • وتمثل هذه المسئولية فى ايضاح ما يود تأكيده ، وما يرى رفضه وانكاره ، وهنا يبرز دور الوعى الكامل عند الكاتب لمجتمعه ، وأهمية هذا الوعى فى تحديد صوره ومرئياته • وقد لا يخوض الكاتب فى بحث الحياة السياسية التى يعيشها وقد لا يصورها فى قصصه صورا مباشرة ، ولكن هذا لا يعنى أنه لا يعيش فى خضمها ، أو أنه ينأى بنفسه عنها ، بل انه يشترك فيها اشتراكا فعليا ، وان لم يصورها تصويرا مباشرا فى قصصه ، وان اكتفى ببعض اللمحات العابرة عنها فى سياق قصته ، مما يدل دلالة واضحة على وعيه لمسئوليته •

ففى العالم الذى نعيشه اليوم ، لا يمكن أن يكون الكاتب بعيدا عن الحياة السياسية لمجتمعه • فمهما كان سلوكه كفنان ، فان تصرفاته كانسان لا يمكنه أن تنأى عن جيشانها واضطراباتها ، يضاف الى هذا أن حياته ككاتب لا يمكن أن تنفصم عما يدور حوله من أحداث ، وعما يشهده من وقائع تمت بأوثق الصلات الى صميم واقعة ، وواقع المجتمع الصغير الذى يضمه ، أو المجتمع الكبير ، الذى يعتبر جزءا لا يتجزأ منه •

ومن البدهى ، أن تنسجم القصة فى كل بلد من البلاد ، مع تقاليد ذلك البلد القومية والتاريخية ، ومع متطلبات حياته اليومية • فليس ثمة وحدة فى القصة ،

لا من ناحية شكلها ، ولا من ناحية موضوعها ، ولكن لا يجوز فى الوقت نفسه تقسيم القصة وتصنيفها الىشرقية أو غربية، أو غير ذلك من التصنيفات والتقسيمات المذهبية أو العقائدية ، اذ أن مثلهذا التصنيف يعتبر تعصبا لعنصرية أو أهواء يجب أن يكون القصصيون أبعد الناس عنها • لكن هذا القول يجب ألا ينسينا حقيقة واقعة ، وهى أن ثمة نظريات متعارضة فى القصة فى عالمنا المعاصر ، وان هذه النظريات المتعارضة تنبع عن النظريات الاجتماعية والاقتصادية المتعارضة ، وعن الاختلافات فى وجهات النظر على الصعيد العالمى بالاضافة الى الفروق والتباينات الجمالية •

لكن احساس الكاتب بمسئوليته ، هو المبدأ الذى يجب أن يسود ، ولعل هذا الاحساس ، يخلق قاعدة مشتركة بين الكتاب بالنسبة الى اتجاهاتهم العقائدية ، وهى العمل من أجل سلام البشرية والنضال من أجل هـذا الهدف ، والسعى الى المزيد من الفهم المتبادل ، عن طريق تبادل القراءة والاطلاع على ما يكتبه الآخرون ، اذ أن هذا الفهم يكون وسيلة النقاش الحر المتبادل فى شتى النظريات المذهبية والآراء الفنيـة والجمالية ، وطريق خلق المزيد من الاتصال الشخصى المثمر •

ولعل خير ما ننهى به هذا المقال ، عبارة وردت على لسان جان بول سارتر بعد انتهاء مؤتمر لينينجراد اذ قال ••• « لقـد أعاد المؤتمر الى ذاكرتنا الحقيقة الواقعة ، وهى أن مشاكل الثقافة واحدة ، وان مشاكل الحياة والمجتمع وحدة واحدة لا انفصام فيها » •



نساء وليل

متولى

قصة البرتومورافيا

ترجمة : سميحه حسنين

فى بداية الصيف ، الفى «جياكومو» نفسه وحيدا على عكس ما توقع ، فقد ذهب عنه الاصدقاء لقضاء أجازاتهم بعيدا وبقى هو ليعيش فى دائرة حدودهـا البيت والمقهى وأفكاره التى تصور له حاله اذا ماتقدم به العمر أكثر ، وأصبح فى مرحلة الوداع ٠

كانت حياته اليومية تبدأ فى ساعـة متأخرة من النهار ، ويظل يقرأ ويدخن فى الحجرة التى استأجرها باحـدى الشـقق ، ويخرج بعـد ذلك ليحتسى قهوته فى أحـد المقاهى ، ثم يشترى الصحيفة ويلقى عليها نظرة عجـلى ٠٠ ويعود مرة أخرى الى الحجرة ليعاود قراءة الصحيفة الى أن تسقط من يده ، ويروح فى النـوم ، وبعد الظهر يستيقظ ليغتسل ويرتدى ملابسه ثم يخرج الى المقهى مرة ثانية ٠

وذات يوم ، خرج «جياكومو» كعادته الى المقهى الذى كان يقع فى أحد الشوارع الكبرى بالمدينة ٠٠ وجلس يرقب الناس حوله على الموائد الاخرى خارج المقهى كان بعضهم يحتسى البيرة الالمانية التى يعشقها هو ٠٠ أجمل البنات والشبان يلتقون فى هذا المـكان ، الذى يرتاده وجهاء المدينة كلهم تقريبا ، كان يرشف البيرة المثلجة وهو يرقب كل هذا ، نساء فى أبهى زينتهن والسجائر بين أصابعهن يتنقلن بين الموائد ويضحكن ويتحدثن بصوت عال ٠٠ «الجرسونات» يجـدون مشقة فى السير بالطلبات وسط هـذه الموائد المزدحمة ، وكان يسمع النكات تنطلق من هنا ومن هنـاك حوله ٠٠ والاسرار تفقد سريتها على ألسنة الجالسين الذين نسوا انهم فى مكان عام ٠

كان يحس بأنه دخيل على هذا الجو ونظر حوله ٠٠ الى كل شىء وقد سقطت عليه ظلال الاشجار المورقة الواقفة فى ثقة وشموخ ، وبعد قليل ، بدأ الناس يتفرقون والجرسونات ينظفون المـوائد ويرفعون الاستار الحاجبة لضوء الشمس وكان هو قد فرغ من احتساء زجاجـة

البيرة ، وكعادته طلب الثانية ، ولما غابت الشمس نهض من مجلسه ، وعاد الى حجرته ٠

وفى المساء عاد جياكومو الى المقهى نفسه ، وجلس يرقب نفس المشاهد تقريبا ، استعراض ومباهاة ، نفس الجو الاجتماعى الذى كان يرقبه منذ ساعات قلائل ، ولكن هذه المرة على ضوء المصابيح الكهربائية وفى نطاق أضيق ، وطلب «شوباء» مملوءا بالثلج المجروش وجلس ياكله فى بطء وبعناية كما لو كان قد استؤجر ليقوم بهذه العملية ، وخلال ذلك كانت عيناه ترقبان المارة ، وأحس فجأة بنوع من البرودة الشديدة ، وبدا معها الفراغ يتسلل الى أعماقه ، حتى انه لم يستطع ــ فى تلك اللحظة ــ أن يقنع نفسه بأنه سيد وحدته ، وأصيب بحالة قلق دفين جعلت قلبه يغوص ، فقد أحس بأن نهمه فى شرب البيرة ، وأكل الثلج المجروش ماهو الا نوع من الخداع يخفى وراءه حقيقة آلامه ، وهى انه لايستطيع أن يفعل شيئا أكثر من هذا ، وانه لايستطيع أن يعيش حياته بعمق كما يعيشها الجالسون من حوله ، وأحس بألم دفين جعله يعقد العزم على أن يخرج نفسه من هذه الدائرة المحدودة قبل أن ينتهى الصيف ، وأن يتخلص من هذه الوحدة التى أصبح عبدا لها ٠

وفى احدى الليالى ٠٠ بينما كان عائدا الى حجرته ، بعد ان انهى جلسته المعتادة على ذلك المقهى ، جذبت عينيه أضواء خافتة منبعثة من نافذة صغيرة لملهى فى نهاية الشارع ، وتذكر فى تلك اللحظة ماكان يسمعه عن مثل هذه الأماكن التى تتجمع فيها النساء الباحثات عن المغامرات العاطفية ، وأثار ذلك الخاطر فى نفسه رغبة فى الذهاب الى ذلك المكان علّه يجد احداهن يقضى معها ليلته ٠

وفعلا وصل الى الملهى ونزل بعض الدرجات ثم فتح بابا زجاجيا ، فالفى نفسه داخل بار شبه مظلم ، ورائحة الطباق الممزوجة بحرارة الصيف جعلت الجو فى الداخل غير مستحب ٠٠ وامام الأرفف المزدحمة بالزجاجات ، وقف «البارمان» بوجهه الاحمر القانى وكأنه مصاب بنوبة جعلت كل دمائه تتدفق الى رأسه ، ولكنه كان يتحرك أبيا : يداه تنزلقان على البار الزنكى ، من جهاز صنع القهوة الى صنبور المياه ، الى وعاء الزيتون والى كل متطلبات مهنته ٠

لم يجد جياكومو شيئا يفعله سوى أن يجلس على احد المقاعد ويطلب مشروبا ولم يكد يفعل ذلك ويجول بعينيه حوله ليكتشف ما تحت هذا السقف المنخفض، حتى تبين ان ما يبحث عنه ليس فى البار انما فى الحجرات الصغيرة التى بالمؤخرة حيث كانت كل منها تضم مقعدا يتسع لشخصين ٠٠ وكانت المقاعد جديدة ومثبتة فى فجوة بالحائط ، وكلها خالية الا واحد منها حيث كانت تجلس عليه امرأتان ، لم يستطع جياكومو أن يحدد ــ لاول وهلة ــ أى نوع من النساء هما ، اذ لم تكن ملابسهما تدل على شىء كانت الاثنتان شقراوين ، احداهما أصغر سنا من الاخرى بحوالى سبع سنوات أو ثمان ، شعرها مرسل على كتفيها ٠٠ ذات عينين زرقاوين واسعتين وأنف دقيق

وشفتين ممتلئتين ، لاتضع شيئا من المساحيق على وجهها الذى كان يبدو فى صحة جيدة ٠٠ كانت ترتدى «بلوزه» تكشف عن ذراعيها ، بينما وضعت سترتها بجوارها ٠

أما المرأة الكبرى ، فكان شعرها مصففا بعناية ، تضع على رأسها قبعة تخفى جانبا من جبهتها ٠٠ عيناها ملونتان ولكنهما ضيقتان ومتقاربتان ، نظراتها تبدو عميقة من تحت جفنيها المتدليين اللذين يفضحان حقيقتها ٠٠ وكل شىء فى وجهها مغطى بطبقات من المساحيق جعلتها تبدو لاول وهلة أجمل من رفيقتها ، لكن جمالها الصناعى هذا لم يكن مبتذلا رغم كل شىء ٠

ومن النظرة الثانية ، اختار جياكومو الصغرى ، لا لشىء ، الا لانها أقرب الى الطبيعية ٠

كانت المرأتان تجلسان دون حراك ، لاتنبسان ببنت شفة ، وكانت نظرات جياكومو موجهة صراحة الى ذات القبعة بينما كان ينظر الى الاخرى بطرف عينه ولمح ما أكد له انهما عاهرتان ، وهو ما حاولت المرأة الكبرى التظاهر به من عظمة رغم يديها القبيحتين الملقاتين على المائدة٠٠ وأظفارها المطلية باللون الاحمر الفاقع ٠

وأفاق جياكومو على صوت «البارمان» يعلن انه قد أحضر المشروب ، وفى الظروف العادية ماكان جياكومو ليجرؤ على سؤال الرجل عن المرأتين ، لكن بعد أن اتضحت له حقيقتهما ازداد شجاعة وسأله فى شىء من الاضطراب عنهما ٠

ودون أن يرفع الرجل رأسه أو يتوقف عن تنظيف البار قال :

ــ لا أعرف ياسيدى ، لقد كانتا هنا ليلة أمس ولكننى لم أرهما من قبل ٠

وتبين من لهجته فى الاجابة انهما من ذلك النوع من النساء الذى يبحث عنه هو فى تلك الليلة ، فنهض وقال للبارمان :

ــ آتنى بكاسى الى تلك المائدة ٠

قال ذلك ثم انتقل الى مائدة مجاورة للمرأتين ، وجلس ومعه نفس النظرات نحوهما ، ولم تستطع الاولى ان تواجه نظراته الصريحة فارخت عينيها ، بينما رمته زميلتها التى كانت من قبل تتجاهل نظراته غير المباشرة ، بنظرة وقحة من طرف عينيها الرمادية ، وخيل اليه أن المرأة ذات القبعة لم توافق على نظرة زميلتها اليه ، واحضر البارمان كاس جياكومو ثم انصرف تاركا الثلاثة فى خلوة تامة ٠

وتكلمت الصغيرة بصوت مسموع قائلة :

ــ يبدو أن صديقك السافل لن يحضر ٠

ــ هش !

قالتها بضيق دون أن تتحرك ٠

ــ ولم أسكت ؟ ! اننى أكرر انه اذا لم يات فانه يكون سافلا ٠

ــ حسن ٠ ولكن لم تصيحين هكذا ؟!

قالت ذلك دون أن تتحرك وكأنها تخشى أن تسقط قبعتها من رأسها ٠

ــ ومن الذى يصيح ؟

ــ انت ٠

ــ حسنا ٠٠ لن أتكلم ٠

ولكنها عادت فتكلمت بمرح كأن شيئا لم يكن ، حتى أن جياكومو اعتقد أنها تحاول جذب انتباهه ، فقالت للأخرى :

ــ سيجارة من فضلك ٠

وكان جياكوموأسرع منالمرأة الاخرى فقدم الى الصغرى السيجارة المطلوبة من علبته ، وترددت هى أولا ، لكنها عادت فاخذت العلبة كلها وناولت سيجارة لرفيقتها التى كانت حائرة بين رغبتها فى التدخين واستيائها من تصرف الاخرى ، ثم قالت :

ــ ليس من اللائق أن نأخذ سيجارة من شخص بهذه السرعة ، وقبل أن نعرفه ٠

وبعد أن قرأت ماركة السيجارة وضعتها فى فمها ، وكما تفعل السيدة الراقية أومأت الى جياكومو ليشعل لها السيجارة بينما كانت الصغرى ، قد أشعلت سيجارتها بنفسها ، وبدأت تنفث الدخان من أنفها ٠٠ فاتجه جياكومو الى المرأة الكبرى وهو يقول :

ــ الجو هنا حار ، أليس كذلك ؟

ويبدو أن هذه الملاحظة قد اسعدت المرأة كثيرا ، لانها اعتبرتها نوعا من الاحترام تجاهها ٠

ــ شنيع ٠

ــقالتها فى لهجة باردة ثم سحبت نفسا من سيجارتها ونفثته وهى تمعن النظرفى ماركة السيجارة وواصلت بعد ذلك كلامها :

ــ انى لاأذكر ان الجو كان سيئا هكذا أبدا ٠

ــ اننى أتصبب عرقا من كل مكان٠

ــ هكذا كان تعليق الصغرى بينما كانت تضحك وترفع يدها لتظهر تحت تحت ابطها وعندئذ ظهر صدرها ، ثم واصلت كلامها :

من الصعب التنفس فى هذه القاعة٠

ويبدو أن الكبرى لم ترض عن هذا العرض الذى قدمته رفيقتها ، فرمقتها بنظرة صبيانية ، ولكن الصغرى لم تعبأ بذلك ونظرت الى جياكومو وقالت :

ــ هذا المكان لطيف جدا فى الشتاء ، لكن فى الصيف يستحسن أن يذهب المرء الى الاماكن المفتوحة ٠

ــ نعم انها أفضل ، ولا سيما تلك التى بالحدائق ٠

فقالت الصغرى بسرعة :

ــ حيث نذهب «دائما» ٠

وقاطعتها الكبرى قائلة :

ــ ماذا تعنين بكلمة «دائما» ؟

ــ كل الوقت ٠٠

ثم نفضت رماد سيجارتها واستطردت :

ـ باستثناء هذه الليلة ٠٠ اننا ننتظر صديقا ٠

فضحكت الصغرى وهى تقول :

ـ نوعا غريبا من الاصدقاء ٠٠ لانعرف عنه شيئا ٠٠ حتى اسمه ٠

ـ ماذا تقولين !؟ انه يدعى مليشى ٠ قالت الكبرى ذلك دون أن تتحرك ،

فضحكت الصغرى مرة أخرى وقالت:

ـ انه اسم صاحب البيت ٠

فالتفتت الكبرى الى جياكومو وقالت:

ـ ان أختى تحب الضحك والتنكيت ٠

ـ اننى لاأنكت اطلاقا ، فهو ليس صديقا لها أو لى ، بل اننا قد عرفناه من الشارع ٠

والتمعت عيناها وارتعش انفهـا ، وبدا صوتهـا صارخا وهى تعلن هذه الحقيقة ، والتفتت الكبرى الى جياكومو الذى كان يفهم حديثهما ، وقالت :

ـ فى المرة الاولى كنا فى مقهى، وجاء الينا وسألنا بادب عما اذا كان يمكن التحدث الينا ٠٠ تماما كما فعلت أنت الآن ٠

والتفتت الى رفيقتها وقالت :

ـ ماذا سيقول عنا هذا السيد اذا تماديت فى هذا الكلام ؟

وظلت الصغرى تضحك وترتمى على مسند الكرسى حتى احمر وجهها من شدة الضحك ثم قالت :

ـ لقد ظن ذلك وانتهى الامر ٠٠ دعك من هذا والا لما كان قد أتى الى هنا وعلى وجهه هـذا التعبير ٠٠ أليس كذلك يامستر ٠٠٠ ؟ ماسمك ؟ على أية حال بالامس لم نسأل ٠٠٠

ـ اسمى جياكومو ٠

قالها وهو فى حالة من الفرح الممزوج بالتأثر واستطرد قائلا :

ـ نعم ، لقد جئت الى هنـا ، وانا متأثر ببعض الافكار ، ولكن من الممكن أن أكون مخطئا ٠

ـ أبدا لست مخطئا على الاطلاق ٠

ثم ضحكت فسألها عن اسمها ، ولكن الكبرى تدخلت لتجيبه قائلة :

ـ رينا ٠٠ واختى لورى ٠

فضحكت الصغرى وهى تقول :

ـ ان اسمك ليس رينا أبدا ، بـل تريزا ، واسمى ليس لورى ، بل جيوفانا

ـ انا أحب رينا ولورى أكثر لانهمـا أقصر ٠٠ اعتقد أن هذا يكفى يالورى ٠

ـ ألا يستطيع أحد أن يضحك ؟

ـ لاشىء فى الضحك ، لكن صوتك مرتفع وسوقى ٠

ـ أنا لست كذلك ٠

قالتها لورى بطريقة جـدية ، كأنَّ ملحوظة رفيقتها قد مستها فى الصميم

وأراد جياكومو أن يوقف هذا النقاش فقال :

ـ وما اسمك الآخر ؟

ـ بنيجاتى ٠

قالت رينا ذلك ثم أسبلت جفنيها ، وأراد هو أن يرفه عنهـــا بعض الشىء فقال :

ـ هناك مدينة فى سيسيلى اسمهـا كانكاتى ٠

ـ لا انها بنيجاتى ٠

ـ واين ولدت ؟

ـ نحن من فيرونا ٠

فقاطعتها الصغرى قائلة :

ـ نحن أصلا من مولو ، لكنها لانحب أن تذكر ذلك لان الاسم يذكرك بمواء القطط ٠

ـ هل تودان شيئا من الشراب ؟

فقالت الصغرى بحماس بالغ :

ـ نعم ٠٠ شمبانيا ٠٠ شمبانيا ٠

ـ اقترح أن نذهب الى مكان آخر ٠

وعلى الفور التقطت الكبرى قفـازها وبدأت تلبسه ٠٠ ونهض الثلاثة لمغادرة البار ، وتوجه هو ليدفع الحساب فسأله «البارمان» :

ـ هل ستدفع حساب ثلاثة ؟

ـ نعم واعطنى أيضا علبة ســـجائر مصرية ٠

***

وخرج الثلاثة الى الشارع العريض ، حيث تلقى الاشجار المورقة ظلالا كثيفة على كل شىء ، وأشعة القمر تعكس ظلال ثلاثتهم على أسفلت الطريق وعلى الجانبين ورود صفراء بدت فى ضوء القمر كأنها خيالات ، وسألهما جياكومو :

ـ أين تفضلان الذهاب ؟

فاجابت الصغرى على الفور

ـ أى مكان نستطيع أن نشرب فيه ، فانا لم أشرب منذ فترة طويلة وعطشى كالـ ٠٠٠٠

ـ ما رأيكما فى سبلندر بار ؟

فعارضتها الصغرى بحجة انه مكان خانق فاقترح جياكومو ان يذهبـوا الى «انكوس مارثيوس جروتو» ، وهو ملهى لايبعد كثيرا عن المكان الذى خرجوا منه وهو مزخرف بطريقة تجعله يبدو كمكان أثرى ، به أعمدة ومنحنيات مظلمة تمكنه من الجلوس معهمـــا فى راحـة تامة ، وتأبطت الصغرى ذراعه وســاروا فى اتجاه المكان المقترح ، وتساءلت :

ـ ولكن من يكون انكوس مارثيوس هذا ؟

ـ انه أحد ملوك روما القديمة ٠

وســـاروا على مهل فى الطريق الحالى حتى وصلوا الى طاقة مفتوحة فدخـلوا منها ٠٠ واسفل مجموعة من الدرجات وجدوا صخرة سوداء مهـدمة ، وما أن تقدموا خطوات قليلة ، حتى أحســوا برائحة الدخان الممزوجة برائحة النبيذ تتسلل الى أنوفهم ، وأصوات النـــاس والموسيقى تنبعث من المـــكان ٠ وفى الداخل كانت الموائد متنـــاثرة فى غير انتظام عليها الـكئوس والزجاجات ، وحولها الناس، وكان المكان فى الداخل باعمـــدته الرومانية الطراز يبدو كأنه

قاعة رومانية كبرى، لكنها متطورة بعض الشيء ، وصاحت لورى وهى تصفق :

ـ مدهش ! انه يشـــبـــه ٠٠٠ ماذا يسمون ذلك المكان الذى تعود المسيحيون القدماء أن يلتقوا فيه ؟

ـ الرمس أو القبو كما أعتقد ٠

ـ أجل ، أجل القبو ٠

ومر الثلاثة بين الموائد ، لم يهتم بهم أحد ، فقد كان صوتهم وهم يمرحون ، ويشربون ، مرتفعا تعكسه جدران القبو وقال جياكومو وهو يشير الى مائدة فى مؤخرة القاعة :

ـ تعالوا بنا الى ذلك المكان ٠

وساروا بين الموائد المتراصة بالقاعة الرئيسية ، ومنها الى دهليز ضيق ذى جدران من الطوب الاحمر ٠٠ ومنه الى حجرة أصغر ، مزينة بطريقة تفوح منها رائحة التاريخ : لوحات غير مستكملة تمثل نساء عاريات ، ومصابيح حديدية تتدلى من السقف ٠٠ وأخيرا جلسوا : هو فى الوسط ، وعن يساره الصغرى، وعن يمينه الكبرى ثم سألهما عما تودان شرابه فقالت لورى :

ـ أى شيء جيد جدا ٠

لكن أختها قالت :

ـ اننى أفضل مشروبا معينا ، ولكن يبدو انه غير موجود هنا ٠

ولكن الجرسون الذى كان يقف الى جانبهم رد عليها بسرعة :

ـ عندنا شانتى ابيض وأرفيتو ونبيذ

ـ ماذا عندكم من النبيذ الحلو ؟

ـ مارسالا ، باسيتو ، اليتيكو ٠٠

ـ آتنا ببعض الاليتيكو ٠

واستأنف جياكومو حــــديثه الذى انقطع :

ـ اذن انتما من مولو ٠

فقالت الصغرى :

ـ نعم ، لكننى أعيش فى ميـلانو ، وأختى تعيش هنـــا ، وبين وقت وآخر نتبادل الزيارات ٠

فقالت رينا : أنا لا تعجبنى ميلانو ، فالشتاء فيها غير محتمل لدرجـة أننى أمرض ٠

فقال جياكومو :

ـ لماذا ؟

فأجابت وهى تتحسس صدرها :

ـ لاننى حساسة ٠

ولاحظ هو صدرها المتكامل ، لكن نظرتها الغائرة من تحت جفنيها المتدليين جعلت هذا الامر يثير حب استطلاعه ٠

وقالت الصغرى :

انها تكذب ، فهى لاتحب ميلانو ، لانها على علاقة حب هنا ٠

ـ وماذا يعمل هو ؟

فردت الكبرى بنفس التصنع الذى يؤكد انها من بنيجاتى :

ـ انه من رجال الاعمال ٠

وقالت الصغرى وهى تمسك انفها

كأنها تمنع عنها رائحة كريهة ، انه بائع جبن .

ووصل الجرسون وفتح جياكومو الزجاجة وصب لهما كأسين من النبيذ ، فقالت الصغرى :

ـ ان النبيذ جيد ، ثم التفتت الى جياكومو وهى تقول : وحلو أيضا .

فقالت الاخرى كى تؤكد حسن اختيارها : انه اليتيكو .

وصب جياكومو كأسه المملوءة دفعة واحدة فى فمه ثم ملأها مرة أخرى .

وكانت المرأتانقد فرغتا من كأسيهما فاعاد الكرة حتى فرغت الزجاجة . فواصل كلامه :

ـ واين صديقك الآن ؟

فأجابت الصغرى وهى تضحك : انه فى الطريق .

وقالت الكبرى لاختها : لا تتحدثى عنه بهذه الطريقة ، فانت لاتعرفينه .

وكانت الخمر قد دارت برأس جياكومو ، فقرر أن تكون الكبرى هى ضالته ، وبحركة لاشعورية وضع يده على ركبتيها من تحت المائدة ، فنظرت اليه نظرة ملؤها النفاق وقالت له :

ـ ولكن من أين أنت ؟

ـ من انكونا .

وبحركة عنيفة أزاح طرف ثوبها .. وتقدمت يده تتحسس الى أعلا « أستك الجورب » الذى كان يحز على فخذها وجعله يكاد ينفجر ، ثم فك أزرار الثوب وتقدم أكثر فأحس بنعومة ملابسها الداخلية الحريرية ، بينما واصلت هى حديثها ولم تحاول ابعاد يده ، وكان ما يحدث لايعنيها : انها مدينة جميلة .

وفى تلك اللحظة كان ثوبها قد انزاح عن ساقيها ، فصاحت الصغرى :

هل تعتقدان اننى لاأراكما ؟ ولكن مع ذلك استمرا .

فسحب جياكومو يده ، وبعد لحظة أحس بندم فأعادها ثانيةالى حيث كانت ولكى يكون عادلا ، وضع يده الاخرى حول خصر الصغرى ، فنظرتاليه بطرف عينيها وهى تضحك ، وكأسها ما تزال فى يدها ، ومال عليها ولثم عنقها .. فجذبت الكبرىيده وأبعدتها ثم أسدلت ثوبها ولم تفعل ذلك لانها غاضبة من تصرفاته مع الاخرى ، بل لان بعض الرواد كانوا قد مروا بجانبهم .

فسألها هو : وماذا تفعلين فى ميلانو؟

فضحكت لورى وقالت : ماذا أفعل ؟

وتدخلت الكبرى لترد بدلا منها : انها « موديل » .

وقالت لورى بتأن بالغ : نعم لقد تعودت أن أكون كذلك ، لكننى الآن أفعل كما تفعلين أنت هنا .

وانزعجت الاخت الكبرى من هذه الاجابة فقالت :

ـماذا تقولين؟ هل تودين أن تنسبى الى نفسك عملا لست قادرة على اتيانه ؟

ـوماذا تعرفين انت عن هذا العمل؟

قالت لورى بتهكم : وماذا تفعلين أنت اذا سمحت لى أن أسألك .

كانت تبدو ثملة بعض الشيء وهي تسأل أختها هذا السؤال ٠٠ وكانت عيناها الملونتان اللامعتان ترمسان بين لحظة وأخرى ٠

ـ أنا لا أعمل شيئا ، فانا سيدة للهو ٠

ـ وماذا تعرفين عن هذا الامر ؟ وعلى كل فانا أمارس نفس العمل ٠

فوجهت اليها شقيقتها نظرة كالخنجر لكنها لم تتكلم ، ثم نظرت الى جياكومو وقالت محذرة :

ـ اذا شجعتها على المضى فى الشرب فلن تعرف ما تقوله ٠

وربت هو على رجل لورى وقال لها :

ـ تعالى ٠٠ تعالى ٠

لكنها لم تتحرك ،فتشجع وارتفع بيده الى أعلى بعض الشيء ، لكنها القت رجليها مضمومتين ، فتوغلت يده أكثر فاكثر ولم يجد أى أثر للملابس داخلية أو أى شيء من هذا القبيل ، وجذبته النعومة ، فزحفت يده شيئا فشيئا دون أن يعوقه شيء مما ترتديه الكبرى ،حتى وصل الى بطنها المستديرة ، ولاحظ أن الفتاة عارية تماما الا من الثوب الخارجي ودون أن توقف لورى اليد الزاحفة الى جسدها ، واصلت صياحها مع رفيقتها :

ـ أنا لاأختلف معك فى هذا ، لكننى لاأتظاهر بأننى أعيش مع رجل واحد ، وفى الوقت نفسه ، أغرى كل ليلة شخصا غريبا ٠

وحملقت الكبرى فى رفيقتها بعينيها الضيقتين ، من تحت قبعتها المتدلية على جبهتها ، وكررت ماقالته الصغرى ، فى صوت أقل حدة ، ثم التفتت الى جياكومو قائلة :

ـ وانت ، دعك قابعا فى مكانك ٠٠ ألم أقل لك لا تشجعها على الشراب ؟

وفى نفس الوقت كان جياكومو فى حالة سكر شديد ، ليس بفعل الخمر فقط ، بل ومن أثر لمسه لجسد الفتاة الصغرى ، فاصبح هو عصبيا نوعا ما ، فلم يرد عليها ، بل التفت الى الصغرى وقال : مارأيك لو خرجنا ٠٠ انا وانت وتركناها هنا ؟

لكنه دهش حينما أبدت لورى ولاء غير متوقع لشقيقتها اذ قالت له :

ـ سلها فهى التى تقرر كل شيء حينما أكون فى ضيافتها ٠

فالتفت الى الكبرى وخفض صوته ، لاخشية أن تسمعه الفتاة لكن لكى لا تسمعه وهو يقول لها :

ـ مارأيك لو خرجنا من هنا٠٠ كنت أفكر فى اننى يجبأن أذهب باحداكما٠

ـ لا ٠٠ ليس بواحدة ، اما بكلتينا ، والا فلا ٠

ـ ولم لا ؟

ـ لان هذا هو مانفعله دائما ٠

ـ وماذا أفعل بامرأتين ؟

وهنا ساوره الشك فى كونهما شقيقتين ، وكم تريدان كلاكما ؟

ـ عشرون ألف ليرة ٠٠ عشرة آلاف لكل منا ٠

ولم يستطع أن يمنع هول تأثير الرقم فى ذهنه ، ولكن صوت رينا كان لا يدع مجالا للمجادلة ٠٠ فقال : حسنا ٠٠ ولكن أين نذهب ؟

ـ الى شقتك ٠

ـ انا لاأقيم بشقة خاصــة ،بل فى حجرة باحدى الشقق ٠

ـ اذن فهذا ليس من شأنى ٠

ـ ألا تسـتطيع ان نذهب الى حيث تعيشان ؟

ـ لا فانا أحب أن أحافظ على قداسة شقتى ٠

قالتها برقة وبتعال ، لـكن الصغرى قالت لها :

ـ ولكنك تأخذين الاشخاص اليهــا دائما ؟

ـوايكما أصدق ؟

وتأبط ذراع « رينا » فابتسمت ٠٠ وهزت رأسها قائلة :

ـ لا أستطيع أن أصحبك الى شقتى مستحيل !

ـولم لا ؟

ـ مستحيل وكفى !

ـ اذن هيا بنا الى احد الفنادق ٠

وفى صوت متردد قالت الصغرى : أولا وقبـــل كل شىء سيسالونك عن أوراقك ٠٠ ولكن ما اسم الفندق الذى ذهبنا اليه منذ عدةأيام مع ٠٠٠ ؟ فندق كورونا ٠٠ أليس كذلك ؟

فقال جياكومو بضيق :

ـ حسنا ، هيا بنا نذهب اليه ، ثم يذهب كل منا الى حيث يشاء ٠

وخيم الصمت عليهم فترة ، ونظرت رينا اليه بعطف بعينيها الغائرتين ، ثم قالت :

ـ كم تظن سيكلفك أجر الفندق ؟

ـ لا أعرف ٠٠ ألفى ليرة كما أعتقد ٠

ـ بل أكثر ، لانك يجب أن تستأجر حجرة بسريرين وأخرى بسرير واحد ، وسيكلفك هذا ثلاثة آلاف ليرة على الاقل

ـماذا تريدين قوله :

ـ اذا وعدتنى ألا تحدث صوتا ٠ ٠ فأعطنى الثلاثة آلاف ليرة التى ستنفقها فى الفندق ، ودعنا نذهب الى شقتى ٠

وهنا لم تستطع الصغرى أن تمنـع نفسها من الضحك علىماارتسم على وجه جياكومو من التردد ٠٠ ووضعت رأسها بين يديها على المائدة ، وأغمضت عينيها وهى تقول :

ـ امرأة أعمـــال ممتازة ٠٠ أليس كذلك ؟

فقال هو : وهو كذلك ٠٠ هيا بنا فورا ٠

ونهض الثلاثة ، وكانت الكبرى على عجل فتقدمتهما، واجتازتالباب المقوس والردهة الطويلة ، بينما أخذ جياكومو الصغرى بين ذراعيه فدفعتـــه بحركة ساخرة مبالغ فيها ، وكأنها تخشى أن تراها الاخرى ٠

وفجأة تركته يقبلها ٠ ٠وبسرعـــة ابتعدا ٠٠ فهمست اليه قائلة :

ـ جميلأن تأخذ قبلة بين وقت وآخر

ـ أجل ٠

وساروا عبر الموائد الى السرداب المقبب حيث رنت خطواتهم فى آن واحد وحيث كان الهواء أكثر ثقلا وتشبعا بدخان السجائر عنه ساعة وصولهم ٠٠ واحس هو بأنه قد شرب أكثر مما يجب وفى الخارج كانت الحرارة شديدة ٠٠ والهواء ساكنا ، وأضواء المصابيح فى الشارع تبدد كتل الظلمات الراقدة فوق أوراق الشجر :

ـ يجب أن نجد سيارة أجرة ٠

قالت الكبرى ذلك وكأنها خارجة من حفل خاص فخم ٠٠ ثم ساروا الى الميدان القريب، لكنهم لم يجدوا أى أثر لسيارة أجرة ، كان هو يتوسط الاثنتين وهما متعلقتان به تقودانه ، ثم سألهما :

ـ وأين منزلكما ٠

فقالت الصغرى ، وهى تكتم الضحك

ـ تذكر قداسة البيت !

وذكرت الكبرى العنوان، وكان البيت فى أحد الشوارع بضواحى المدينة ٠

ـ اذن فلنركب الأتوبيس حتى آخر الخط ، ومن هناك نركب الترام ٠

وفى الواقع لم يكن هناك شيء يفعل غير ما أشار به جياكومو ٠ ولحسن الحظ وصل الأتوبيس فى نفس اللحظة فركب الثلاثة ، وجلسوا ودفع جياكومو لثلاثتهم ، جلست الكبرى على مقعد ٠٠ والاثنان على مقعد آخر خلفها ، وحينما تحركت السيارة ، قالت الصغرى بصوت عال : ألم يكن من الأفضل أن نبحث عن فندق مناسب بدلا من قطع كل هذه المسافة الى البيت ، لكن الفنادق هنا كثيرة اللغط ، انا أعرف فندقا فى ميلانو لا يسألونك فيه أى سؤال ، حتى انهم لا يطلبون تأمينا للحجرة ٠٠ وتلفت الناس تجاه جياكومو ومرافقتيه ، لكن الوقت كان متأخرا ، وهم فى حالة من التعب لا تمكنهم حتى من الابتسام ، واندفعت السيارة دون تعثر فى الشوارع الضيقة ذات القصور الناتئة على الجانبين والتفتت الكبرى اليه وقالت له بصوت مؤكد :

ـ كم من الوقت تعتزم البقاء ؟ ان زوجتك ستفتقدك ، انها لا تراك كثيرا بسبب كثرة أسفارك ٠٠ أليس كذلك ٠

وقالت الصغرى : زوجته ؟ هل انت متزوج ؟

فضحك هو وأمسك بيدها وقال : نعم متزوج بك ٠

لكنها سحبت يدها ، وهمست قائلة بحدة : خذ بالك فان أختى تنظر الينا ٠

ـ مرحى على قداسة بيتكما ٠

نعم ثلاثة انخاب فى قداسة البيت ٠

ونظر اليهم أغلب الركاب وفى عيونهم حب استطلاع بالغ والتفتت الكبرى اليهما وقالت : ألا تستطيعان البقاء صامتين لدقائق ؟

ـ أنا حرة فى أن أتكلم وقتما أحب ٠

لقد كانت هذه الاجابة كافية لان تعتدل المرأة الكبرى وتدير لهما ظهرها وحاولت أن تبدى عدم اكتراثها بهما على الاطلاق ، ففتحت حقيبتها وأخذت تضع المساحيق على أنفها ، وفى المرآة التى بيدها استطاع جياكومو الذى يجلس خلفها أن يلمس مدى سوء حالتهما

النفسية من خلال عينيها ٠٠ وتوقف الأتوبيس فى نهاية الخط فى ميدان مظلم ومن خلال أوراق الشجر المظلمة استطاعوا أن يروا أضواء الترام ، فقالت الكبرى وهى توسع خطواتها :

ـ هذا الترام سيوصلنا ٠٠

كان الترام كامل العدد تقريبا ، لكنهم استطاعوا أن يجلسوا كما كانوا فى الأتوبيس ، وبعد محطتين ركب رجل فى حوالى الخمسين من عمره ذو أنف مخروطى الشكل ، وشعر رمادى ، كان يرتدى حلة سوداء وقميصا أبيض وربطة عنق سوداء ، ثم جلس بجوار رينا ، ورفع قبعته قليلا عن رأسه حيث بدت كالغطاء فوق الوعاء ٠

وقال جياكومو للفتاة التى بجواره :

ـ متى تعودين الى ميلانو ؟

ـ ليس قبل مضى فترة من الوقت ، فانا أريد أن أتمتع هنا لان أختى تأخذنى الى أحسن الأماكن ، لكننى لم أذهب بعد الى مطعم رجال الاعمال ، مع اننى سمعت انه أفضل المطاعم ٠

وهنا اعتدلت اختها فى جلستها ، لكنها لم تنظر اليهما ٠

ـ نعم انهم يقدمون فيه أفضل الأطعمة ٠

ـ قلت اننى أود أن أمتع نفسى ٠٠ ما اسم ذلك الملهى الذى يقدمون فيه الاستعراضات الضاحكة ، وبين الفقرات تستطيع أن ترقص على الارض ٠

ـ الجنة ٠

ـ لقد زرته مرة مع رجل من الجنوب وكان كريما جدا ٠٠ ما رأيك لو ذهبنا اليه فى احدى الأمسيات ؟

ـ ولم لا ؟

ـ اننى مغرمة بمثل هذه الاماكن ٠

ـ ٠ ٠ ٠ ٠

ـ هل ستبحث عنى اذا ما حضرت الى ميلانو ؟

ـ وما عنوانك ؟

ونظرت اليه باسترخاء السكارى وقالت : سأعطيك عنوانى بالضبط تستطيع أن تأتى حينما تشاء ، فانا لا أومن بقدسية البيت ٠

وهنا التفت الرجل ذو الحلة السوداء ورمقهما بنظرة فاحصة ، بينما كانت رينا جالسة متصلبة الاكتاف والرقبة دون أن تحركها هزات الترام ، وبعد فترة صمت واصلت الفتاة كلامها :

ـ لقد أثر نبيذك على رأسى ٠٠ انه جيد كال ٠٠٠

وتوقف الترام بالمحطة فنهضت رينا دون أن تكلمهما واتجهت الى الباب ووقفت تنتظرهما ، وفى نفس اللحظة مر بها الرجل ذو الحلة السوداء ، وكما نعل ساعة دخوله ، خلع قبعته فأحنت رأسها برقة كأنها تشكره على هذه اللفتة من الاحترام بعد ماسمعه من شقيقتها ٠٠ وسألتها لورى :

ـ أنت ذاهبة ؟ (ثم وهى تنهض) آه أهذه هى محطتنا ؟ ٠

ـ ٠ ٠ ٠ ٠

وخرجت رينا وجياكومو وتبعتهما

لورى ٠٠ وتحرك الترام وبقى الثلاثة فى منتصف الميدان الاسفلتى الواسع وحولهما أشجار عالية ونوافذ تنبعث منها أضواء خافتة ، وفى مواجهتهم طريق على جانبيه صفان من المصابيح الكهربائية يقود الى منطقة غير منزرعة ، حيث تقف مجموعة من المبانى فتساءلت الفتاة :

هل منزلنا هناك ؟ اننى لم أتعرف عليه ٠

وانتظرت الكبرى الى أن ذهب الرجل ذو الحلة السوداء فصاحت فيها بغضب :

ـ نعم ٠٠ هذا هو منزلنا ، لكننى لا أريدك ان تبقى معى ٠

ـ ولم ؟ ماذا حدث ؟

ـ لقد أخبرتك مرارا وتكرارا ، انك يجب أن تتصرفى بأدب فى المنطقة التى أعيش فيها ٠٠ وفى الترام الذى أركبه يوميا ، لاأن تتمادى هكذا ، وتتكلمى كلاما فارغا طوال الطريق ٠٠ وبهذا الصوت المرتفع ٠

ـ وماذا قلت !

ـ كل واحد فى الترام يعرفنى ، ماذا يظنون بى ؟ هل رأيت ذلك الرجل الذى كان يجلس بجوارى ؟ انه مستر بيكيو المحامى الذى يسكن نفس العمارة وفى نفس الطابق ، سوف يقول ان أختى عاهر تحضر معها الرجال الى البيت ٠

ـ وماذا يضيرنا ؟

ـ الامر هام بالنسبة لى ، فانا لاأحب أن يغتابنى الناس ٠

ووقفت الصغرى منتصبة ويداها على مؤخرتها وهى تقول : انظرى هنا ٠٠

انظرى هنا ، ما معنى كل هذا الضجيج ان كل مايقوله جيرانك أقل من الحقيقة اذهبى وحدك ٠

ثم التصقت بجياكومو ٠

ـ حسنا ٠٠ ولكن هذه هى آخر مرة أدعوك فيها لزيارتى ٠

ثم ساروا قليلا صامتين ودخلت رينا احدى العمارات الكبرى ، والتفتت نحو جياكومو وقالت بهمس وهى تضع المفتاح فى الباب :

أستحلفك بالله أن تحافظ على الهدوء

وساروا فى ردهة ذات افريز رخامى اسود على طول الارض ومجموعة مصابيح كهربائية معلقة على الجدران ٠٠ ثم دخلوا حجرة بجوار السلم ، والتفتت رينا اليهما وهما يدخلان وقالت :

ـ بهدوء ٠٠

وبعد أن أغلقوا الباب خلفهم أضاءت مصباحا بداخل صندوق زجاجى أبيض وبدت الشقة مفروشة على أحدث الطرز فى كل مكان وضعت قطع الأثاث المخروطية الشكل أو المربعة ٠٠ ومصابيح كهربائية وموائد زجاجية وكراسى اسطوانية القاعدة ، وصحبت رينا جياكومو عبر ممر ضيق وهى تقول : يجب أن تذهب الى حجرة النوم مباشرة ٠

كانت حجرة النوم صغيرة ، الفراش المزدوج يحتل أكبر حيز فيها ، وملاءة السرير مزينة برسومات على شكل دوائر متداخلة متعددة الالوان من الازرق الفاتح الى البنفسجى والاحمر والبنى ، ومن نفس القماش صنعت أغطية الكراسى ، أما الصوان فقد كان مكونا من مجموعات

متصلة ببعضها بمرآة فى الوسط وقد احتل جانبا من جدران الحجر باكمله تقريبا ٠٠ ومصابيح كروية الشكل على موائد منخفضة ، وكل شيء كان نظيفا تماما ٠٠ وبرغم الوان السرير المتعددة فقد كان الجو يوحى بالكآبة والحزن ، تماما كالفنادق المتواضعة الحديثة ٠

وخلعت رينا قبعتها بحذر ، ووضعتها فى الدولاب ، ثم ذهبت الى أحد الأركان وخلعت ثوبها وبقيت فى سروال «فيليه» أسود وبدا لجياكومو صدرها الضامر رغم امتلاء جسمها وضخامة أردافها واستدارة ساقيها ، ولم يعرف كيف يتصرف ٠٠ لكنه تقدم منها ووضع يديه حول خصرها وجـذبها اليه ، فسمحت له بتقبيلها ثم قالت :

ساعد الفراش ٠٠ يمكنك أن تخلع ملابسك فى الحمام اذا أردت ٠

ثم انحنت لتنزع ملاءة السرير ٠٠ وأنزلت جواربها الحريرية فبدت آثار «رباط الجورب» الضيق على فخذيهـا ثم جذبت الملاءة النظيفة التى كانت تبدو وكأنها قد خرجت لتوها من تحت المكواة ٠

وبدا له أن مسالة قدسية البيت لها معنى آخـر ٠٠ وخجـل من أن يخلع ملابسه وينام عاريا على هـذا السرير المزدوج ٠٠ كانت رينا تجلس على طرف الفراش وظهرها اليه ، تخلع جواربها ، بينما كانت الصغرى فى الحمام يسمع صوتها من خلال الباب نصف المفتوح ، وأحس جياكومو بحرارة الجو فسألها أن تفتح النافذة فقالت : بعد أن نطفىء النور ، والا رآنا أحد ٠

فى نفس اللحظة خرجت لورى من الحمام ، ووقفت أمام المرآة ٠٠ ولاحظ هو انها تتأمل نفسها باستغراق كأنها تحدق فى شيء ما ، ثم فكت أزرار ثوبها ببطء وترددت هنيهة قبل أن تخلعه ٠٠ وتقف عارية ٠ وبدا ثدياها الممتلئان بعض الشيء متدليين ٠٠ لكن طرفيهمـا نافران ٠٠ ومن طريقة اهتزازهما لاحظ هو انهما هكذا بالطبيعة ، وليس بسبب السن ، ثم مرت امامه لتعلق ثوبها على أحد الكراسى ، وبعدهـا توجهت الى «الجراموفون» الموضوع على منضدة فى أحد الاركان وقالت : فلنسمع شيئا من الموسيقى ، وانحنت لتدير الجهاز ٠ ٠ ونظرت الى جياكومو من خلال شعرها المسترسـل نظرة ملؤها الاحساس بالنشوة ٠٠ وفى نفس الوقت لاحظ جياكومو ثدييها اللذين لم يتحركا اطلاقا رغم اهتزاز جسـدها كله وأثار ذلك الامر دهشته ٠

وانبعثت موسيقى شعبية ، فتقدمت منه وطلبت اليه أن يراقصها ، ثم أخذا يدوران على الانغام التى ارتفعت أكثر وهنا انطلق صوت رينا تطلب منهمـا ايقاف الجهاز ٠٠ وبدلا من ذلك أخـذ جياكومو رفيقته وخرجا الى الردهة ٠٠ وكان خوفه قد زال ، وتشجع لمواجهـة المغامرة ، ولم يكن هناك شيء يفعـله سوى أن يختم الموقف بالنهاية المنطقية ٠

وبمجرد أن اصبحت رينا و (لورى) امامه عاريتين تماما ، فكر فى أن ينـام الثلاثة معا على السرير ، ورأى أن هذه الفكرة معقولة جدا ، حتى انه اشـتاق لتنفيذها ، لـكنه كان يتمنى أن ينفرد

بلورى لانه كان يشعر ببعض الحرج من أن يفعل ذلك أمام شقيقتها ، وهم أن يغير خطوات الرقصة الى أخرى يكون فيها أكثر التصاقا بالفتاة ، لكن فى نفس اللحظة توقفت الموسيقى ٠

ـ هذه حماقة من حماقات رينا ٠

قالت لورى ذلك ثم انسحبت من بين أحضانه ودخلت حجرة النوم ، وتبعها وهو مستاء ٠٠ وكانت رينا تغطى الجهاز فقالت لها أختها ، لماذا أوقفت «الجراموفون» ؟ لقد كنا نرقص ٠

قلت لك من قبل انى لا أريد احداث أى صوت ٠ ألم يكفك الضجيج الذى أحدثته فى الترام ووضعتنى فى موقف حرج أمام مستر بيكيو ، ولا أعرف كيف أواجهه بعد ذلك ٠

كانت الاثنتان تقفان فى مواجهة بعضهما ٠٠ الصغرى عارية تماما ٠ والاخرى لاترتدى سوى السروال ٠

ـ وماذا يعنينى من مستر بيكيو هذا ربما يكون قد خدع فيك ، ولم يعرفك على حقيقتك ٠٠ لم يعرف انك تخرجين لاصطياد الرجال ٠

ـ ولكن ماذا فى ذلك !

ـ انا يهمنى، ومع ذلك‌فان ماتقولينه غير صحيح ، فأنت التى تصطادين الرجال فى ميلانو ٠

ـ وماذا تفعلين انت هنا بحق السماء ؟!

ـ دعك مما أفعله ، لكن تذكرى فقط انك مادمت فى بيتى فيجب أن تحسنى التصرف ٠ ٠يكفى انك هذا المساء قد وضعتنى فى موقف مخجل ٠٠ ان لبيتى حرمة ٠ ٠ويمكنك عمل ما تريدين هناك فى مصيدتك الخاصة ، لكن أرجوك ألا تفعليه هنا ٠

ـ حرمة البيت ٠٠ هه ؟

ثم اغتصبت ضحكة وامتقع وجهها غضبا وواصلت كلامها : انا لاأود البقاء فى بيتك النجس، يجب أن أذهب حالا ٠

ـ هيا انصرفى ، فسيسعدنى ذلك ، قالت ذلك فى صوت أقل حدة ٠

ـ ساذهب حالا ، لاتخافى ٠

قالتها بغضب ثم انتزعت ثوبها من الكرسى ،واخذت تزرره بسرعة ٠

ـاذهبى اذن ، لكنها كانت فى نفس الوقت تقاسى من قرار أختها بترك البيت ٠

ـ ساذهب لكنك لن ترينى ابدا ٠٠

ثم سحبت من خلف الدولاب حقيبة جلدية ، وفتحت أحد الادراج وبدأت تضع ملابسها فيها كيفما اتفق ، فقال جياكومو :

ـ تعالى الآن ٠٠ تعالى ٠٠ تعالى ٠

قالت وهى تدفعه : دعنى وحدى ٠

ـ بقدر ما أنا حزينة ،لكننى أريدك أن تذهبى ٠

قالت رينا ذلك ، لكن وجهها لم يكن يعبر عما تقول ٠

ـ لا تخافى ، فأنا ذاهبة عن بيتك القذر ٠

ـ اخرجى اذن ، وبأسرع ما يمكن ٠

ولم ترد عليها الصغرى فى هذه المرة ، بل انحنت على حقيبتها لتحزمها واستعانت فى ذلك بركبتيها ، ومرت بغضب من بين جياكومو واختها واخذت قبعة مزركشة من الشماعة ، ثم خرجت مسرعة من الحجرة، ونادتها أختها بأسى لكن لم يأت جواب ، بل اهتزت الشقة من صفعة الباب الخارجي الشديدة ٠٠ وجلست رينا على حافة الفراش واضعة رأسها بين يديها ، وتطور الامر بسرعة دون أن يفيق جياكومو من اعتقاده بأنه قد نجح فى مغامرته ، ولم يعد أمامه الا أن ينهى الامر بالنهاية السعيدة ٠ ٠ ٠ وكان مازال واثقا فى نفسه كل الثقة ، رغم أن رغباته قدزالت٠٠ وأحس بغصة الفشل وخيبة الأمل ٠ ونظر الى المرأة الجالسة على حافة الفراش فى سروالها الأسود التى كانت منذ لحظات مستعدة لخوض التجربة معه ، لكنه لمح دموعا فى مقلتيها ٠ ٠وكان صوتها مرتجفا وهى تقول :

لو علمت ما فعلت من أجلها ! حين كانت طفلة صغيرة وانا كنت فى السادسة عشرة ٠٠ كنت أعمل لأعولها ماذا كان مصيرها بدونى ؟ لقد صحبتها الى المصايف واشتريت لها الملابس وكل شىء ٠٠ وحين كبرت أوجدت لها عملا كموديل ٠٠ وطوال هذه السنوات كنت



أحرم نفسى من كل شىء لأرسل اليها النقود ، والآن هل ترى كيف تعاملنى ٠

وهزت رأسها ونظرت اليه من تحت جفنيها المتدليين ، وضاعت من عينيها تلك النظرة الخليعة٠فقال لها «جياكومو» وهو يجذبها لتجلس بجواره : تعالى : تعالى ٠٠ تعالى ! ثم أمسك بيدها وأضاف : لا بد انها ستعود ٠

ـ لا ، بل انها لن تعود ، فأنا أعرفها واعرف انها لن تعود ـ على الاقل ـ قبل مضى فترة طويلة ، بل فى الحقيقة انها لن تعود على الاطلاق ٠

وجذبت منديلا من تحت الوسادة وأخذت تنظف أنفها ، وفكر هو فى ان يقترح عليها ان يستمرا وكان شيئا لم يكن وكان هو يعلم انها ستوافقه رغم دموعها وحالتها المضطربة ، لكنه تراجع لانه كان يعرف انها ستأتى بحركات حزينة غير مناسبة ٠٠ ولم يعد أمامه الا ان ينهض ويقول : أعتقد اننى

ـ لن أجبرك على الانتظار، فان حالتى سيئة جدا ٠٠ هل رأيت معاملتها الشريرة ٠٠ الناكرة للجميل !

قالت ذلك ، ثم ذهبت الى الردهة ، وتبعها هو ٠ وعلى الباب احتواها بين ذراعيه وقبلها ٠ وردت عليه بقبلة كأنها عرفان بالجميل وقالت له : اننى آسفة جدا ٠

ـ دعك من هذا ٠

ولما خرج «جياكومو» الى الشارع، تلفت حوله ، باحثا بعينيه عن «لورى»، لكنه لم ير الا مساحة من الاسفلت الاسود ، وصفين من أعمدة النور ٠٠٠ والمساكن المظلمة ٠

وقال فى نفسه : وهكذا ضاع يوم آخر ٠

ثم سار فى اتجاه النور ٠

ماء مدين

بقلم

الدكتور محمد كامل حسين

قضى موسى ليلته فى هذا المأوى الجبلى الصغير . ولما طلع عليه الفجر ايقظه من الهواء البارد فدب فيه بعض النشاط وقام من مضجعه فوجد بجانبه قليلا من الحلوى التى ذاقها بالامس . وقليلا من الشراب الذى جرعه اياه صاحباه وهو لايكاد يعى ما يفعل فأخذ منهما ماشاء ان يأخذ وكان عهده بمثل هذا الشراب فى مصر شيئا متخمرا يتناول الناس منه الكثير يعبونه عبا . وكان يعاف هذه الكثرة وذلك الطعم . وكان يكره الأثر الذى يتركه فى الجسم من امتلاء وفى الراس من خمول . اما هذا الشراب فهو قليل جيد يشفى من الخمـــول والتعب وطابت نفسه اليه .

وسمع صوتا موسيقيا يأتيه من مكان قريب حيث تقام الصلاة وعرف ان هذا الصـــوت يخرج من قطع من المعـــدن مختلفة الأطوال تطرقها العصا فتخرج منها أنغام بسيطة تعجب وان لم تطرب. وكان عهده بالموسيقى فى مصر صاخبة عالية تطرب وتهيج وتدفع الى النشـــوة والرقص والابتذال أما هذه الموسيقى التى لاتعدو أن تكون ايذانا ببدء العبادة فان فيها جدا وصرامة . وقد لا تكون مما يعجب المترفين . ولكنها على كل حال جميلة طيبة . وكان لها من هذا المكان وهذا الوقت وتلك الغاية ما جعل لهـــا عليه أثرا بالغا لم تبلغه من نفسه الفنون العالية فى الجو الكدر .

ولما طلع النهار جلس فى مكانه فوجد أمامه نافذة تطل على الوادى . ورأى اشجارا كثيرة تحمل أثقالا من الفاكهة. وأعجبته اشـــجار الزيتـــون واوراقها البراقـــة وجـــذوعها الملتفة كالثوب المصور . ولم يكن يعرفها فى مصر . ورأى زرعا أخضر بهيجا . وعهـــده بالخضرة فى مصر يشوب جمالها مايعلوها من تراب يذهب ببعض نضرتهـــا . وارتاحت نفسه الى هذا الذى رآه . ولم يفتقد الا الماء الجارى الفسيح كمـــا كان يراه فى خير انهار الدنيا واجملها وفرح لهذا الذى رآه فى يومه الاول . فكل ما رآه يبشره بما كان يحلم به ، حياة هادئة وان تكن صغيرة ، كريمة وان تكن بســـيطة ، طيبة وان تكن محدودة . وخيل اليه ان ذلك أشبه بطبيعته من الحياة العارمة القلقة التى عرفها فى قصر فرعون والتى جمعت بين العظمة والشر ، والبهجة والذلة ، واللذة والكدر . والتى لم يذق الا آلامها ولم ينعم بلذاتها ، والتى كانت عليه جحيما والناس يحسبونه فى نعيم يحسد عليه.

وأقبل عليه صاحباه فوجداه فى حال طيبة . وسألهما عن المكان الذى يصدر منه صوت الموسيقى التى سمعها . فقالوا له .

ــ هذا هو المعبد الذى تتعبد فيه

ــ ولكنه صغير جدا لا يتسع لاهل قريتكم مهما تكن صغيرة .

ــ انما ياتيه من يرتكب ظلما أو يؤذى احدا . وهؤلاء قليلون . ولا يجتمع فيه اهل القرية الا اياما قليلة كل عام . تقدم القرابين للآلهة . عند ذلك يعفو المظلوم عن الظالم . ويعتذر المسىء الى من أساء اليه . ويتلقى المحسن مظاهر الاحترام والحب منا جميعا .

ــ وهذا كل ما تبغون من التعبد !

وفرح موسى بهذا الحديث . وظن أن حياته المستقبلة ستكون خلوا من مظاهر الظلم والدنس التى آلمته ونغصت عليه حياته كلها وهو فى مصر وكأنما وطن نفسه على أن يعجبه كل ما هو بسيط طيب ولو كان بدائيا .

ثم قدما اليه غداءه . واسترد قوته ونشاطه . وطلب اليهما أن يقوداه غدا الى حقولهم لعله يعمل عملا يجزيهم به على ما قدموا اليه من حسنات .

ولما كان عصر ذلك اليوم صعد الى جوار الهيكل أطفال يلعبون ويمرحون . فلما علا صوتهم خرج اليهم وكان من قبل لا يحتمل صخب الاطفال ولا يطيق لعبهم واقبل عليهم فرحا بهم كأنه لم ير اطفالا من قبل . وهرعوا اليه فأخذ يلاعبهم ويرفعهم الى ما فوق رأسه فى سهولة ، وهم يصيحون ويضحكون . وبلغ سرورهم غايته حين حمل اثنين منهم فى وقت واحد بكلتى يديه .

وجرى الاطفال الى أمهاتهم يصيحون

ــ هنا رجل غريب . هو قوى جدا جدا . يحمل اثنين منا فوق رأسه فنلتقى فى الهواء وقال أحدهم فى براءة الاطفال وصراحتهم

ــ ولكنه لا يتكلم كما نتكلم . يتكلم بطيئا جدا . ويقف أحيانا عن الكلام حتى نجد له نحن الكلمة التى يريدها وأسرها موسى فى نفسه . وكان هذا العجز يؤلمه أشد الالم . وهاهو فى أول حياته الجديدة لا يستطيع اخفاء عجزه هذا حتى عن الاطفال .

ولما جن الليل نظر من نافذته الضيقة الى الوادى وقد سكن فيه كل شىء حتى حفيف الشجر وصوت النسيم . ورأى أمامه الجبال العالية وقد أكسبها نور القمر جمالا خاصا . يضيئها من ناحية ويلقى ظلالها على الارض من الناحية الأخرى ظلالا تطول وتقصر حين تسقط فى الوديان السحيقة أو القريبة . ورأى قمم الجبال تخط لنفسها أشكالا جميلة حين تعترض السماء المنيرة . وبهره هذا الجمال الذى لم يكن له به عهد .

وظن موسى أن مثل هذا المكان ومثل هذه الليلة يبشر أنه يبدء حياته الجديدة التى يرجو ان تكون حياة هادئة بسيطة والتى يأمل ان تصفو له صفاء يقطع ما بينه وبين ماضيه قطعا باتا .

وما أكثر الذين يحلمون بمثل هذا الأمل حين تشتد بهم الخطوب وحين وحين تضطرب حياتهم وتضل خطاهم. يودون لو يستطيعون ان يبدأوا حياة جديدة تخلو من اخطاء الماضى كلها. ولكنه أمل بعيد المنال. ذلك ان اكثر الناس يجدون أنفسهم وقد أخذ ماضيهم باقفيتهم يرغمهم على أن يسيروا سيرتهم الاولى. تعلق بهم أخطاؤهم. ويلصق بهم من طباعهم وشخصيتهم ما يدفعهم الى المنزلقات القديمة. ولا يقطع ما بين الماضى والمستقبل فى حياة الناس الا حادث عنيف جدا. وظن موسى انه وقع له ذلك الامر البات حين هرب من مصر الى هذا المكان البعيد. ولعله ادرك ان مالقيه من ظلم وذل وتعب لم يكن شرا كله. ولعل نفسه أن تكون قد طابت لهذا كله اذا كان ثمنا للحياة الطيبة التى هى كل آماله.

وجاء اليه صاحباه فى اليوم التالى. وذهب معهما الى البساتين. ورأى الذين يفلحون الارض بفئوسهم. وأراد ان يعمل كما يعملون. ولكن الفلاحين ضحكوا حين راوه يضرب الارض بفأسه وتبينوا انه ليس خبيرا بمثل هذا العمل. وقالوا له أن يديه الناعمتين تدلان على أنه لم يتعود الفلاحة. وأن وجهه لم تلوحه الشمس كما لوحت وجوههم. وأن هناك عملا كثيرا يستطيع ان يقوم به غير الفلاحة.

ولم يفهموا سر اصراره على أن يعمل بفأسه. ولم يقدروا انه يريد ان يتصل بالارض اتصالا قويا يبدأ من حيث يبدأ أصغر الناس. وأنه يريد ان يحترم كل ما كان يحتقر فى مصر. لعله أن ينتهى به الامر الى احتقار كل ما كان يحترم فى شبابه من مجد أو غنى أو سلطان. ولعله أراد أن ينسى احترامه للتفكير والعلم والذكاء.

وعلم منهم انهم لا يعرفون كيف يوجهون الماء الى حيث يريدون. وان ماء كثيرا دافقا يذهب الى أسفل الوادى لا يستطيعون ان يحولوه الى حقولهم. فكلما وضعوا فى سبيله حاجزا احتمله الماء ووجدهم لا يعرفون ترتيب القنوات. فهم يرهقون رجالهم ونساءهم حين يرغمونهم ان يجلبوا لهم الماء من البئر الكبيرة الى الحقول ومنها ما هو بعيد. فلما جاء الى البئر وجدهم يرفعون الدلو بأيديهم وهو ثقيل. وعزم موسى ان يدل هؤلاء البدائيين على ما يخفف اعباء الفلاحة المرهقة وعزم ان يدلهم على طريقة هرمية فى بناء سد تتجه به مياه السيل الى بساتينهم. وأن يعلمهم كيف يضعون عجلة من جذع شجرة فوق البئر تعينهم على رفعه. ولم يشك انهم سيحمدون له عمله حين يقيم لهم ما اراد اقامته. وأن ذلك سيجعل له عليهم فضلا يجزيهم به على ايوائهم له وهو عنهم غريب.

وكانت هذه البئر التى لم ينضب ماؤها قط. محور حياة القرية يجتمع حولها رجال ونساء يسقون ويتحدثون. حولها يدور سمرهم فى المساء وعملهم بالنهار. ووجد حولها قوما كثيرين يدلون بدلائهم وينزعونها فى عسر. ووجد بعيدا عنهم امرأتين معهما اناءهما فارغا وهما تنتظران أن يفرغ الناس ثم تحملان اناءهما الثقيل الى منزلهما.

ونظر اليهما فلم يغضا الطرف دونه

وشجعه ذلك على أن يتحدث اليهما . وعلم أنهما تنتظران حتى يفرغ الرجال. وانهما وحدهما يقومان بخدمة أبيهما وهو شيخ كبير . ولما أخذ موسى الاناء وذهب الى البئر وجد رجلين يتعاونان على رفع دلو ثقيل . فنحاهم موسى ورفعه وحده بيديه القويتين . ثم ملأ اناءه والناس يعجبون منه ويتساءلون عن هذا الغريب . ولم يفت ذلك النساء القائمات على البئر واللائى لم يخفين اعجابهن به .

ثم ملأ اناء الاختين وحمله وسار معهما حتى بلغوا دار أبيهما . وتاهت زيفورا وأختها الصغرى على نساء القرية ان كانتا موضع عناية موسى . وقالت زيفورا لأختها انى سأحمل أبى على ان يخطبنى له . ودهشت الأخت لذلك وقالت لشقيقتها الكبرى . أين حياؤك واين خفرك وكيف تبدين هذه الرغبة فى رجل غريب . وليس من عاداتنا أن نعلن حبنا للرجال على هذا النحو .

وكان موسى قد راى من قبل نساء جميلات فاتنات فى ثياب مزركشة فيها الذهب والحجارة الكريمة يخطرن فى سفن جميلة تتهادى فوق سطح الماء على ضوء القمر الذى ينعكس نوره على الماء فتكسره الأمواج الصغيرة . وكان هؤلاء النسوة يقبلن عليه يردن ان يخلو بهن فيابى ذلك ويربأ بنفسه عن لقائهن. وكان فتنتهن البالغة لا تغريه اما اليوم فهو مشوق الى هؤلاء النسوة راغب فيهن على ماهن عليه من بساطة .

ولما نظر الى زيفورا خجلت منه وسقط ثوبها فرفعته وطوته حولها فى حركة رشيقة فيها حياء واغراء . ورأى موسى فى هذه الحركة جمالا اعجبه وعرف ما يستطيع ان يصوره الثوب من جمال واغراء حين تحاول المرأة الجميلة أن تستر جسمها فلا يزيده ذلك الا فتنة وسحرا . واخذ بقلبه هذا الأغراء البسيط الذى لم يصقله الدرس ولم يهذبه الفن . ولم تشبه شوائب الحضر .

ومع ذلك مر بخاطره فى تلك اللحظة صورة فتاة حبشية كانت تالفه كما ألفه أطفال مدين وتلعب معه كما كانوا يلعبون وكانت تدل عليه كما تدل المرأة الشابة التى جمعت بين الطفولة والاغراء فى ذلك العهد الدقيق الذى تتحول فيه الطفلة الى فتاة . ولم يكن ذلك الا خاطرا عابرا لم يعره موسى اهتماما كثيرا .

ولما همت زيفورا ان تخبر أباها برغبتها ان تخطب الى موسى أرادت اختها الصغرى ان تحول بينها وبين ذلك بذراعها اليمنى . فانتزعتها زيفورا نزعا عنيفا تألمت له اختها ألما شديدا . وازعج ذلك زيفورا فاعتذرت لاختها وطيبت خاطرها . ولكن الذراع ظل يؤلم الأخت زمنا طويلا .

واقام موسى لأهل مدين سدا يحجز الماء وعلمهم سر العجلات والشادوف. واصبح موضع احترام أهل مدين واحبوه حبا جما . واستنصحوه فى كل ما يعرض لهم .واصبح فيهم سيدا مطاعا محبوبا وخطبت زيفورا الى موسى وزفت اليه وكان يوم فرح عام شمل اهل القرية جميعا وسعد موسى غاية

السعادة واستقامت حياته بعد ان اضطربت اضطرابا مزعجا منذ أول عهده بالحياة واعجبه أن يعيش هذه العيشة الهادئة الصغيرة . ولم يكن يظن انه سيحظى بمثلها أبدا .

وبينا هو فى بستانه يوما جاءته أخت امراته وهى لا تزال تشكو الم ذراعها وقالت له .

ــ يسرنى يا موسى ان أراك سعيدا غاية السعادة فى حياتك هذه بيننا .

ــ ولم لا اكون سعيدا وقد عرفت فيكم الحب والعطف والهدوء والاطمئنان ولم اكن ارغب فى غير ذلك حين كانت الحياة حولى صاخبة عظيمة .

ــ ولا اشك أن زيفورا وهبتك من الحب كل ما ترغب فيه . وكنا نظن ان فيها طيبة نفس وهدوءا وحكمة .

ولكنا كنا نحسب ان فى طبعها برودا. وان عينيها لا تشعان الشوق والرغبة. وهما عنصران من عناصر الحب . بل هى لا تعرف شيئا عما يسميه الناس غراما .

ــ ويعجبنى منها هذا فانا لم اكن من رجال الحب . ولا من أهل الغرام الذى يتدله به الناس . وحبها هذا الهادىء هو كل ما أرغب فيه .

ــ وهى لاتغار عليك .والغيرة عندنا نحن النساء شىء لا يتم الحب بدونه . ولو راتنى بين ذراعيك الآن ما حفلت بذلك . ولا عنفتك عليه .

ــ ويرضينى منهـا ذلك فالغيرة داء المحبين . وهى أكثر ما تكون شرا حين لا تكون الا خيالا لا حقيقة له ونظراليها موسى فجاة وكانه ــ على جهله بعواطف النساء ــ فهم ان كلامها له خبىء وانها تكتم حبا عنيفا غلبتها عليه أختها الكبرى دون أن تكون أهلا لهذا الحب ــ وفطن الى انها تغريه بشىء لا يقبله لنفسه أبدا . ونظر كل منهما فى عينى الآخر فكان فى عينيه دهشة واستنكار واباء . وفى عينيها بريق ساطع يشف عن وشل يكاد يذرف دمعا . وكأنها تلتهمه التهاما وهاله ما رأى من شدة رغبتها اليه رغبة تختلف عن الرغبة التى رآها من قبل عند المبتذلات فى قصر فرعون. تلك كانت رغبات جسمية جارفة اما هذه الرغبة فكانت جسمية قلبية معا. ولعله لو كان مرهف الحس ملتهب العاطفة ما استطاع أن يقاوم جمال هذا الحب العارم . ولكنه كان عاقلا حازما شديد الحرص على ما كان يعتقده واجبا خلقيا فكان أن كاد يعرض عنها. ثم دارت بها الارض فارتمت عليه مغشيا عليها .وحملها موسى بين ذراعيه القويتين . فسرت فى جسمها نشوة جميلة كاجمل ما تكون النشوة وذابت نفسها لهذا الذى اعتراها . وطوقت رقبته بيديها وكانت يدها اليمنى من قبل لا تتحرك الا قليلا . وحملها موسى وهو قلق اشد القلق ان يكون اغماؤها نذيرا بشر يصيبها . وكانت هى تقدر ان هذا الاغماء فرصتها التى تستطيع أن تتمتع فيها بما لا تقدر عليه وهى واعية . وأن العرف والاخلاق تغفرلها ماهى فيه من نشوة خفية آثمة لو صارحت الناس بها لاحتقروها . وهى الآن يلذها ما هى فيه دون أن يعلم أحد عنها شيئا يشينها بل هم يجاوزونها على اثمها هذا بالعطف مادامت فاقدة الوعى .

وجاءت أختها الكبرى تلهث حين علمت ما حدث لأختها . وحنت عليها حنوا صادقا . وقدرت الصغرى هذا العطف وحزنت ألا تكون هي أيضا بريئة مثل زيفورا ولما أرادت زيفورا حين افاقت اختها أن تمتحن زراعها اليمنى فاجأتها هذه بضربة من يدها هذه كأنها تقول لا تفرحى بنصرك على فاني سليمة . وكان فرح زيفورا عظيما ان رات أختها وقد شفى ذراعها تماما.

واضطربت نفس موسى لهذا الحادث اضطرابا شديدا حين علم ان فى كل بيئة طاهرة أو عابثة اعماقا للنفس لا قبل لأحد مهما طهر أن يتقلب عليها الا ظاهرا .

＊＊＊

لم يكن موسى يعرف النساء على كثرة من لقى منهن . فلم يكن يقدر ما يخفين ولا يفقه كثيرا مما يظهرن ولم يكن بين طبيعته وطبيعتهن تجاوب عاطفى داخلى تلقائى . على حين ان اكثر الناس ممن هم اقل منه ذكاء وفهما يدركون الشىء الكثير مما كان يفوته من طبائع النساء .

فلما راى زيفورا عند البئر اطمأنت نفسه اليها . وعرف انها طلبته . ورغب اليها . بقلبه وعقله دون أن يكون غرامه بها عاطفة عنيفة . واقبلت هى عليه بكل جوارحها على انه أمل لم تكن تحلم ان يتحقق لها على هذا النحو .

وكان هو اعقل الناس واكثرهم حكمة ، واخلصهم نفسا . وكانت هى اطيب الناس وأرقهم قلبا . واكثرهم ولاء لمن تحب. وأحب كل منهما الآخر كأشد ما تسمح له طبيعته وأسلوبه فى الحب .

ووجد كل منهما فى رفيقه ضالته وامانيه . وجد فيها ما لم يجده فى غيرها من النساء اللائى لقيهن فى مصر . وقدر لها عطفها البالغ عليه . وكان فى أشد الحاجة الى هذا العطف. ووجدت فيه ما اعجبها قوة وامانة وذكاء وشدة عزم . فكانت هى محققة لآماله كلها . وكان هو محققا لآمالها كلها .

ومع ذلك دب بينهما خلاف لم يفهما له سببا . ولم يكن هناك شك أن كلا منهما يحب الآخر ولم يكن هناك شك فى أن كليهما بعيد عن ان يوصف بالحمق . ولم يكن أحدهما ملولا ولا عابثا .

ولم يمض الا وقت قليل حتى أصبح حديث الحب بينهما حديثا عجبا يبدأ عذبا رقيقا ثم يتحول رويدا رويدا فاذا به يسير الى الضيق والضجر . ثم يشتد ذلك ويثير الاستياء ثم السأم ثم الغضب . وهما لا يريدان من ذلك شيئا . بل يظن كل منهما انه انما يبث للآخر حبه على النحو الذى يراه . وان رفيقه مخطىء حين لا يقدر العاطفة القوية التى تحمل الآخر على هذا الحديث .

واخذت تسأله كثيرا عن ماضيه .

ـ حدثنى عن حياتك الصاخبة فى قصر فرعون . وعن مغامراتك فيه .. الم تكن عندكم الوان شتى من النساء الفاتنات اللائى اتقن الاغراء حتى ليتبع

فى حبائلهن اعظم الرجال . واكثرهم زهدا فيهن . وكيف كان حالك مع هؤلاء

ـ لم تكن لى معهن مغامرات .

ـ وكيف يكون ذلك ؟ السبت رجلا كالرجال وهن نساء كالنساء ؟ . واى عيب عليك لو اعترفت بما فعلت بهن وما فعلن بك ؟

ـ ولكنى لم افعل شيئا .

ـ وهل انت وحدك بين الرجال تتأبى عليهن ؟ هذا غير طبيعى .

ـ وانا لست طبيعيا .

ـ انك تخفى ما لا داعى لاخفائه . فالرجال كلهم سواء فى شأنهم مع النساء وكلهم يجرون وراءهن حيث يجدونهن . فما الذى يحملك على انكار ماضيك فتجعل بينى وبينك حجابا . الا تعلم انه لا يتم الحب بين اثنين حتى يكون كل منهما عالما بكل ما فى حياة الآخر .

ـ لا اريد ان احجب عنك شيئا انما اريد ان اقيم حجابا بين حياتى الحاضرة وحياتى الماضية .

ـ لا افهم لذلك سببا الا ان يكون ماضيك مثقلا بما لا تستطيع ان تعترف به .

ـ لعله مثقل بما لا احب ان اذكره ولو كان خيرا .

ـ معميات لا افهمها . وخير لنا ان تعمل على ان تشرحها لى حتى لا يكون بيننا ضباب من شك أو جهل .

ـ فاذا كنت انا لا افهم حياتى الماضية . فكيف اشرحها لغيرى .

ويمضى الحديث بينهما على هذا النحو . يبدأ عذبا رشيقا شائقا فى دوافعه واسلوبه . ثم ينتهى مريرا مؤلما .

وكان موسى لا يدرى سببا يحملها على هذا اللون من الحديث . ولم يفهم سر اصرارها عليه مع ما هو واضح من ضجره به . ولم يفهم انه قد يرضيها أن تكون قد اعجبت رجلا خبيرا بالنساء عرف الكثيرات ففضلها عليهن . وانه لا يرضيها أن يكون قد احبها عن جهل أو عن ضرورة حين لم يجد امامه عنها بديلا . ولم يكن يدرى أن بحثها عن فتنة الحياة فى مصر قد يكون مصدره الرغبة فى أن يعرف ما يعجبه وما لا يعجبه من مفاتن النساء وكانت تظن فاتنات مصر بلغن الغاية فى الاغراء فلعلها تحب أن تتشبه بهن أو أن تختلف عنهن حتى يكون اغراؤها له خاصا بها .

ولعله ان يكون مصدر الخلاف بينهما انه كان يعجبه منها ما لا يعجبها من نفسها . ولعلها كانت تود أن يعجب بفتنتها واغرائها أكثر من اعجابه بطيبة قلبها واخلاصها . ولعله كان يود أن تحبه لغير قوته وامانته . اذا كان هذا حقا مصدرا للخلاف بينهما فهو دليل على قوة شخصية كل منهما قوة تأبى أن تلين للآخر مهما يكن حبهما قويا خالصا

كان موسى رجلا كاملا ليس فيه ذلك القدر الصغير من الأنوثة الذى يجعله يفهم النساء بقلبه لا بعقله وحده



وكانت زيفورا امراة كاملة ليس فيها ذلك القدر الصغير من الرجولة الذى يجعلها تفهم الرجال بعقلها لا بعواطفها وحدها ذلك أن فهم الرجال النساء بالعقل وحده محال . وفهم النساء الرجال بالعواطف وحدها محال .

وهكذا لم يفهم موسى شيئا مما تصبو اليه نفس زيفورا وهى أعز الناس عليه . كما لم تفهم هى ما يؤلمه من حديثها وهو أعز الناس عليها .

وأكثر الذنب فى هذا الخلاف يقع على موسى من غير شك . اذ كان لايفهم رغبة النساء أن يؤكد الرجال لهن أنهم لا يزالون يحبونهن مهما يكن ذلك واضحا . وكان لا يفهم أن اتهامها له بالباطل انه يتقرب الى النساء عندما تتاح له فرصة لذلك وانه كان فى مصر زير نساء لم يكن حماقة منها ولم يكن لغيرتها من هؤلاء النسوة . بل كان ذلك رغبة منها فى الاحساس بالنصر بل لعله نوع من التحية تقدمه المرأة لأعز عزيز عليها كأنها تقول له ان كل امرأة عرفتك لابد لها من أن تحبك .

أساء موسى فهم ذلك كله . وضجر بأحاديثها حين كانت تتحدث فى مثل هذه الأمور . وكان ذلك كثيرا . فهى لا ترى ما يمنعه أن يتحدث عن الماضى كما يتحدث الناس جميعا . وكانت تجهل سبب أله حين تذكره بماضيه ولم يكن فى هذا الماضى ما يعيبه . ولكنه كان حريصا الا يذكره أبدا . يريد بذلك ان يقطع ما بينه وبين حياته الاولى . وكان حديثها عن مغامراته ينكىء جروحا قديمة كادت تندمل ، جروح الاخفاق التام الذى أصيب به

من جراء عناده واصراره على الا يعيش عيشة اقرانه . كان ينفر من اللائى يتقربن اليه لما فى تقربهم من ابتذال يقرب من القذارة . ولم يعرف كيف يتقرب الى البريئات اللائى يتعففن عن الابتذال جهلا منه بالاشارات الخفيفة والرغبات الخفية التي لا تزيد على نظرة عابرة أو شبه ابتسامة وهو كل ما تستطيع أن تفعله الخفرات . بل كان هذا موقفه من الحياة كلها لا يقبل على ما يتاح له منها . ولا يعرف كيف يبلغ منها ما يوافق طبعه الأبى .

يقول علماء الطبيعيات ان الانسان – فى ظروف تجريبية بعينها – يستطيع اذا ابتلت يده بالماء أن يقبض على الجمرة المسعرة فلا تحترق يده بنارها . ذلك انه يكون بين الجمرة واليد طبقة رقيقة من البخار وتمنع أن يصيبها حر النار . ويقولون ان الذين يسيرون حفاة على النار يفيدون من هذه الظاهرة الطبيعية .

وكذلك يحدث أن يكون هناك قوم يعيشون عيشة صاخبة عنيفة يتمتعون فيها بألوان من السرور واللذة القوية . خاضعين لعواطفهم المتاججة ورغباتهم العارمة تعتورهم شهواتهم الجامحة من من حب اللذات والغنى والسلطان . ثم يكون بينهم أفراد لا يحترقون بهذه النار . ولا يشعرون شعورا حادا ببهجتها كانهم فى معزل عن لذات الحياة وهم فى أوسط معمعتها ولا يكون ذلك لنقص فى احساسهم ولكنها هذه الطبقة العازلة التى تحميهم شر الجموح والشطط فى ما يتمتع به الناس .

وكان موسى من هذا الصنف من الناس وكان يعرف ذلك من نفسه . وكان يحسب ان هذا من آثار حياته المضطربة . ولم يقدر ان ذلك طبع فيه لا تستطيع حوادث الحياة أن تغير منه شيئا .

وكانت هذه الطبقة العازلة بين نفسه وبين الحياة الصاخبة من حوله هى الاباء . كان يأبى كثيرا مما يقبل الناس عليه متلهفين . ودفع ثمن هذا الاباء غاليا حيث حرم نفسه كثيرا مما هو طبيعى فى الشباب وليس كل ما فى الشباب شرا . وترك فيه الحرمان أثرا بالغا .

لم تكن له طفولة . ولم يكن له شباب . وها هو فى كهولته يقدر أن ذلك كان خطأ منه . وانه أسرف على نفسه بهذا الاباء والترفع لغير ما غاية يراها . وأن الارتفاع عن العواطف الانسانية قد يكون محمودا فى عهد الحكمة والوقار . ولكنه حين يكون فى الشباب قد يحرمهم كثيرا من مقومات الحياة الطبيعية .

ولكن الله أراد له ذلك . وأعده اعدادا عنيفا ليتلقى عن قريب الوحى والحكمة . واذا كان قد ظن انه أخفق رجلا فسيكون بعد قليل رسولا نبيا .

الذئاب الجائعة

تأليف : محمود البدوى

نقد : علاء الدين وحيد

ليس ادل على فقر مكتبتنا العربية فىالدراسات القصصية ، من ان نجد استاذا رائدا وواحـدا من أصحاب المدارس المتميزة فى كتابة القصة عنـدنا ، مثـل محمود البدوى ، بلا دراسة شاملة تحيط بفنه وتستوعب أدبه حتى اليوم ، رغم مرور أكثر من ربع قرن على وجوده فى الميدان . وهذه محاولة جد متواضعة لتناول ــ سريع ــ كتاب واحد من انتاجه ، وهو (الذئاب الجائعة) أحدث مجموعة قصصية أصدرها كاتبنا الكبير .

***

لماذا يكون البدوى فى احسن حالاته عندما يصور الجو الاجنبى ؟ ظاهرة تستلفت نظر القارىء دائما وهو يطالع احدى مجموعات قاصنا . فهل هى لهفة روح الفنان المثقف الحقيقية الى التحليق فى اجواء من التحرر الذى لايكبله جمود او تحفظ او تقليد بال ؟ انه يريد ان ينطلق فى صفاء بلا قيد من احكام جاهزة متزمتة تحجر على هذه الحرية وتشلها ، وخاصة اذا بدأ يعبر عن نفسه منذ الثلاثينات ويجد صاحبنا انه لايستطيع ان يكتفى ببصيص الضوء الذى يحاول ان يخترق طبقات متراكمة من ظلام استعمار واقطاع واستبداد هيئة حاكمة وحجاب امراة وادب مزخرف فارغ وفن ملوكى . ويبحث عن واحته ويعثر عليها فى الخارج ــ الخارج لا بمفهوم رجل الشارع بل بوعىالانسان الحضارى وارثالثقافات ــ انه يستطيع هناك ان«يتنفس» وجوده وطبيعتهكفنان مثقف يعشق البساطة ، حتىلتلحقه النظرة السطحية بالرجل العادى البسيط . وهذا فى رأيى هى البراعة المذهلة التى استطاعها البدوى وحده من ادبائنا القصاص على مااعتقد .

لقد أذاب ـ وهو عمل فى منتهى الصعوبة والتعقيد ـ كل ما حصله من ثقافة وفنون مختلفة فى هذا العنصر المثير ٠٠ البساطة .هذا الميزان فى التقييم الذى عرفه العرب القدماء وأطلقوا عليه « السهل الممتنع » أدب البدوى من هـذا النوع ، وهو يختلف عن لون آخر من البساطة كما عند أديب مصرى آخر هو توفيق الحكيم ـ ومجالنا القصة بالطبع ـ فهنـاك شىء ثان نسـتشعره مع بساطة الحكيم ٠٠ تكنيكه الواضح ، وهو ما نجح البدوى فى أن يجعلنا ظاهريا نفتقده عنده ٠ حتى ليخدعنا فى معظم الأحيان فى أنه « مؤلف » ويكتب فى ٠٠ قالب القصة !

وهكذا كانت قصته (فى القطار) . انها من القصص الجيد بل الممتاز فى المجموعة فببساطة الحيـاة عالج المؤلف الحب الذى نما بين الشـاب المصرى مراد والحسـناء التركية ألمظ ، من خلال علاقة انسانية هى غاية فى الرحابة والعمق معا ٠ لقـد نجح البدوى فى الابتعاد تماما عن التصنع وعن الاثارة المزيفة ٠ فكان مثيرا ! هـذا اللون من الاثارة النابع من الصدق وحده ٠ ان البدوى لا يثقل النفس البشرية بما ليس فيها ،ولذلك جاء اللقاء بين البطلين ثم اتصال العواطف بينهما ، والشهوة التى كادت تصرعه فى الليلة الأولى فى الفندق وتحيل هذه العـلاقة الى جنس صارخ لا يعترف الا بلغة اللحم ،ثم اندحار هذه الشهوة وابراز العوامل التى ساعدت على تنقية الحب بصدق عاطفة التآلف الخالص بين ألمظ وشهامة مراد عند مرضها . جاء هذا كله ليؤكد فى كل خطوة التعاطف الذى أراده القاص بين عمله والقارىء ٠ لقد التحمت هذه العناصر كلها لتخرج هذه القصة الحية الرائعة لتزدان بها المجموعة .

واذا كان البدوى قد عرض فى القصة السابقة للجو الأجنبى الخالص شخوصا ومكانا ٠ فقد تناول فى قصة مثل (حياة رجـل) هـذا الجو داخل الحدود ٠ فهو اذن نصف افرنجى أو ملون ! وتتكون البطولة النسائية فيه غالبا من سيدة غريبةـ ويكفى هنا ان نشير الى ان صاحبة البنسيون الأجنبية فى بلدنا ، تكاد تكون شخصية تقليدية فى قصص البـدوى ٠ لقـد تكرر وجودها مرات غير قليلة فى مجموعاته ،

وان لم تظهر هذه المرة !

والنموذج الثالث لهذا الجو الافرنجى يتبلور فى الشـخصية المصرية المتأثرة بهذا الجو ، كزوجة شقيق راوى (النفوس المعذبة) ٠ فهى رغم احتقارها لقرويته، كانت تتجمل امامه ((وكنت كريفى)) أجهل السبب ، ولا اعرف ان المراة المتفرنجة تبدى زينتها دائما لغير بعلها ٠ (ص ٢١) ٠

وتأثرا بهذا الجو الأجنبى المتحرر ، نجد البدوى يشتط فى احيان قليلة فى تصوير تحرر أبطاله ـ لانعنى بالطبع بالنسبة الى القيم الاخلاقية التقليدية ـ مما

لانجده اولا يمكن ان نجده كثيرا بين ظهرانينا ، كما فى قصة (قلب عذراء) . فاحسان ترفض عرض حبيبها حسن يدها ، لأنها فكرت فى أن عائلته القروية لن تقبلها بين أعضائها ، لأنها تعمل ممرضة ـ ويبدو ان المؤلف اراد ان يرمز باسراع بطلته الى المبادرة بالرفض ، الى أنها اقوى من هذه التقاليد الريفية التى تقف ضدها .
وبهذه المناسبة ما كان أغنى قاصنا بالاكتفاء بشيخوخة قلب احسان تعليلا لهذا الرفض ، بدلا من التشبث بحكاية التقاليد هذه التى أبهتت ملامح القصة ـ تفعل احسان هذه مفضلة (وهى الفتاة الشرقية) ان تستمر فى علاقتها الغرامية المتكاملة مع حسن بلا عقد شرعى . « دعنا نعش كما نحن ، وستعرف يوما ما أن هناك صداقة يمكن ان توجد بين المرأة والرجل . » (ص ٨٧) !

وانطباعا بتأثير الجو الأجنبى ايضا ، نجد فى نفس القصة (قلب عذراء) هذا التقليد الغربى .. تقبيل يد السيدة . وهو مالا نفعله نحن فى بلادنا بهذه الصورة غير العادية التى تكررت فى القصة .

« أنت تعرف ان حادثا بسيطا يقع فى حياة الانسانية قد يغير وجه التاريخ ، وكذلك الانسان قد يعرض له حادث تافه فيغير مجرى حياته ، يغير نظرته للأمور ويبدله تبديلا ، ويخلق منه رجلا آخر . » (ص ٥٧ ـ ٥٨) .

لانجد اشارة دالة على منهج محمود البدوى فى كتابة القصة ، اكثر من الفقرة السابقة التى حدث بها بطل (حياة رجل) وراويها صديقه . واذا عنيت هذه العبارات كما هو واضح طبيعة الأحداث ، فان كاتبنا يريد بها أيضا نسيج شخصياته فهو لا ينتقى شخوصه من المرضى أو الشواذ أو القلة النادرة ، بل يختارها من الناس العاديين . ان ذلك أقرب الى بساطته وطبيعته ، انه يحاول أن يخترق غلافها الخارجى الذى لا يكاد يجعلها تفترق عن غيرها من أمثالها ، ويصل الى أعماقها ليوقفنا على عوالمها المجهولة التى تعيش فيها بكل ما تحوى من أمان وأحلام وعواطف . ان الشخصية البسيطة تتحمل نفسا بشرية ايضا . ولعلها اقرب الى الانسان الذى نريد فهمه . اننا نبحث عن الجوهر ، والشخصية غير العادية بما ينطوى عليها تركيبها يمكن أن تبعدنا عن هذا الجوهر بالوانها الفاقعة . أن توفيق افندى فى (رجل مريض) أحد هذه الشخصيات البسيطة . انه رجل دمث الطباع لين الجانب الى حد الخور ، قلق دائما لا يستقر فى عمل ما ، يحلم بالسفر الى الخارج ليدرس فن الطباعة فى المانيا . ولكنها امنية تقف عند حد الحلم ، ورغم ذلك فهو يتشبث بها بينه وبين نفسه مهما ساءت أحواله .

فى أكثر من قصة فى هذه المجموعة نسمع نغمة تردد ، ان ألوان المعرفة جميعا

ليس من الضروري ان تستقي من المدرسة فالعامة يصلون أيضا الى لب المعرفة وكنه الحقيقة ،بلا حاجة الى التعليم المنتظم وغير المنتظم .فالفطرة السليمة والروح الصافية ، وبلفظ آخر النفس البسيطة تحصل ببساطتها هذه على درجة من فهم الحياة لا تقل عما تحصل عليه النفس المركبة بثقافتها ودراستها . ففي (الأعمى) مثلا ، عندما يعتدي سيد المؤذن الكفيف على جميلة الزوجة القروية ، فتؤخذ لحظتها ولا تقاوم ولا تلتذ ، ثم تحاسب نفسها حسابا عسيرا على سقطتها ، نقرأ : « هكذا شعورها بفطرته ، تعرف من غير معلم ولا مدرسة انها خلقت لرجل واحد ليس الا، رجل واحد يأخذ منها قلبها وجسمها ، ويستغرق تفكيرها ووجودها .. » (ص ١٢٨) .

وكذلك (في القرية) نقرأ على لسان راوي القصة وبطلها الفلاح الأجير ، كيف أن تعرض أفراد الترحيلة أجسامهم للجو الطلق ، أثناء العمل في الحقول مفيد للصحة « وكنا نرتدي أقمصة قصيرة زرقاء ، ونعرض أجسامنا لكل تقلبات الجو ، لنأمن عادية المرض ، كنا نجري على حكم الفطرة السليمة ، فلم نكن درسنا الطب، ولا تعلمنا فك الخط ، ومع ذلك كان نظرنا الى الأمور صائبا ، وادراكنا صحيحا . » (ص ٣٦) .

***

ما تعليل هذه الظاهرة ؟ انها لا تتناول الناس البسطاء بقدر ما تصف بساطة المؤلف ، التي تظهر حتى في معالجته للموت ؛ انه الموت ، هذا البطل الثابت الذي يأخذ دوره دائما او في معظم الأحيان في قصص محمود البدوي . لقد تناوله قاصنا كما تناول الحياة في بساطة ، وهي ليست بساطة السطح بل بساطة الشمول التي بذلت عمرها في الفهم والتجربة والادراك . كاتبنا اذن لا يفر من معالجة الموت او أو تجاهله أو الدوران حوله أو يلقي تساؤلا مجردا فارغا لا ينبيء الا عن سفسطة أو ثرثرة . لا يفعل البدوي شيئا من هذا ، بل يحاول ان يضع الموت في مكانه المناسب الذي اختارته له الطبيعة ، وفي الوقت ذاته يحاول ان يعكس وجوده على البشر الذين يفد عليهم . وسمة ظاهرة الوضوح في قصص البدوي في هذا المجال . ان الموت لا يقع وسط مظاهر احتفالية جنائزية تنتظره في فزع ورهبة ، أو في بداية أو نهاية الأحداث الضخام . انه شيء عادي لا « يفاجيء » الا اذا عددنا أحداث الحياة الروتينية من المفاجآت . وهكذا استسيغ وجوده ، كما تستساغ مئات الأشياء الصغيرة في حياة المرء .

والمؤلف لا يجعل الموت قريبا عاديا منا فحسب ، فهذا الاعتراف بوجوده ليس الا مفتاح فهمه . ومهما بدا لنا عقم محاولة الانسان لهذا الفهم ، فلا يجب بالطبع ان نكتفي بمجرد استشعار ذلك والوقوف عنده . وليس اقل من ان نسير هذه الخطوات القصار التي يستطيعها العقل البشري ، قبل ان نتوه في مجال البحث

وراء المجهول . ولذلك نرى راوى (ذئاب جائعة) وبطلها مثلا . يحاول ان يتامل روعة الموت فى وجه صديقه الذى قتلته رصاصة ، والذى لم يكن يرهب الردى أو يتوقعه .

فى هذه المجموعة قصة معينة تستوقف قارىء محمود البدوى ، وربما تضطره الى اطالة التفكير فيما لم تفعله قصة أخرى فى (الذئاب الجائعة) . ومن الطريف انها ليست من القصص القوى ، فهى قصة ضعيفة مفككة مفتقرة الى وحدة الحدث ورغم ذلك فهى تستأهل منا وقفة اكثر من قصيرة . ذلك لأنى احسب ان فى هذه القصة (حياة رجل) ملامح دالة يعرفها القارىء العربى عن محمود البدوى نفسه وعن منهجه الأدبى ايضا ، ولا أعنى ان الدكتور عرفى بطلها ، هو صورة شخصية للمؤلف مطابقة تماما . فعملية الخلق ووجود قاصنا الكبير فى الميدان يتابع اثراء فننا القصصى ونهاية القصة ذاتها ، كل ذلك ينكر مثل هذا الفهم . ولكنى أقصد ان البدوى قال بعض ، خاص رايه فى الحياة والفن وجوهرهما ، والذى يتفق مع مابستخلص من أية دراسة مستأنية لفنه القصصى .

لقد حاول أديبنا ان يعرض من خلال بطله ، مأساة الفنان الأصيل الذى يتعرض لموقف اختيار ، بين الفن الرفيع الذى تفرضه عليه أصالته والذى لا يلتفت اليه الا قلة من الناس ، وبين «الفن» السوقى الذى تحبه الجماهير وتطلبه وتشتريه وترفع صاحبه الى أعلى عليين . وعندما يختار عرفى الجانب الأول ، يكون هذا بمثابة التسليم لقدرة ورفع الراية البيضاء المذعنة للمصير فيتقوقع أولا ثم يتحطم . « صفق الناس للمغنى ، وكادت الأكف تطير فى الجو من فرط الحماسة مع انه لم يقل شيئا سوى أنه تأوه ، وتأوه ثم تأوه ، وقال كلاما لامعنى له ، لا هو بالشعر ، ولا هو بالنثر ، وانما هو أشبه بنواح العجائز » (ص ٥٣) . لقد خرج بطلنا الذى كان يشاهد هذه الحفلة ثائرا ناقما على جمهورها الرخيص « كيف اقبل على نفسى أن أكون بهلوانا لهؤلاء الحمقى . » : نعم كيف يمكن للبدوى أن يضع فنه تحت رحمة النزوات ...

***

ومع الدافع القوى الى تناول هــذه القضية الهامة ، ومع ما ألمحنا اليه قبلا من صلة هذه القصة بشخص مؤلفها . الا ان اصابع محمود البدوى فقدت الامساك بخيوطها . ان (حياة رجل) تصلح نموذجا للأعمال القوية التى يعرضها أصحابها الفشل لما يمكن أن نسميه الفقدان أو الاستهانة بوضع اللمسات الأخيرة . هناك مثلا اهتزاز السبب المباشر حول يأس عرفى من جدية الاستمساك بالعمل فى ميدان الفن الرفيع . فهل هو حضـــوره الحفلة الغنائية أو هى تجـربة مع الكاتبة الأجنبيــة . فاذا لم تكن الحفلة اكثر من هزة أولى نبهته الى حقيقة الواقع الفنى السائد فى بلده ، فهل تكون تجربة مع المرأة الأجنبية هى الهزة الثانية والأخيرة التى جعلته يختار

طـريقه النهائى ؟ القصة كانت تريد ان تعبر عن ذلك ، ولكنها لم تفلح وتحولت التجربة التى كان يراد لها ان تكون فنية الى تجربة غرامية واتصال جسـدى .

لقد زارت الكاتبة الافرنجية السيدة جراسـيا معهد الموسيقى الذى يدرس فيه بطلنا ، ووقع كل منهما فى نفس صاحبه موقعا حسنا ، ولذلك فعندما التقيا ثانية قضيا وقتا سعيدا تخلله الحديث عن الشعر والموسيقى . فأين هى الصدمة الفنية التى لحقته من جراء هذه العلاقة العاطفية وجعلته يكفر بالفن ويقاطعه ؟!

أراد محمود البدوى ان يقول لنا ان تجربة عونى الجنسية مع هذه المرأة — الأولى فى حياته — جعلته يدرك كم هى عظمة الجنس، هذا الذى لم يكن يعرفه من قبل . ان الجنس واقع لذيذ ولكن الموسيقى والشعر الذى يقرضه عالم من الاوهام الباطلة . فليدع الباطل الى الحق ، وقد كان . فهل هذا ما اراده قاصنا حقيقة؟ وفيم كان اذن هذا الجهد الكبير فى تصـوير موقف الفنـان ؟ أم ان البدوى لم يطمع فى أكثر من تجسيد شخصية تثرثر كثيرا بما لا يتفق وابعادها الحقيقية ؟

ومن الأسباب التى أدت ايضا الى ضعف تصوير شخصية البطل وبالتالى الى اضعاف الموقف الذى اتخذه بالنسبة الى الفن . فشل عونى فى تعلم الموسـيقى واعترافه بهذا الفشل . فكيف لنا أن نتأكد من جديته أو أصالته وهو يتعرض للحكم على المشتغلين بالموسيقى ؟! اول ما يتبادر الى الذهن بغض النظر عن حقيقة هؤلاء المشتغلين ، انها عقدة نقص الفاشل تجاه الناجحين . وشىء آخـر ، ان موقف عونى هذا من الفن يحدث وهو لا زال فى أول الطريق ، فى مقاعد الدرس يتعلم . لا يملك بالطبع تجربة الممارسة ولا ينتظر منه حكمة القاضى وعدالته . ويمكن ان تحمل حدته على محمل آخر .. مثالية المراهق ابن السابعة عشرة !

لقد كان موقف عونى أبلغ فى ايحائه فى هذا المجال ، لو جعله القاص فنانا يشتغل بالفن لا الطب . ولكن يبدو ان محمود البدوى لم يرد من (حياة رجل) أكثر من تصوير لقطات لبطله . وهكذا رأينا بعد ذلك لقطة أخرى عن دكتور عونى واكتشافه ان المريض الذى ذهب لعيادته مع نعمات هانم ليس الا كلبا ! ولقطة ثالثة عن عونى وشجاعته فى باخرة يعصف بها الريح .

***

فى بعض قصص هـــذه المجموعة لم يستطع المؤلف أن يتقمص الشخصية القصصية التى جاء بها تماما ، فظهرت شخصيته هو ، أو على الأقل شخصية مثقف ما . وقد أوضح هذا التباين أن يكون بطل القصة جاهلا من الطبقات الفقيرة ، فيجرى البدوى على لسـانه أشياء لا يصل اليها تفكيره بهذه الدرجة المتعمقة .
كما فى (ذئاب جائعة) ومسئولية المجتمع فى تحول الراوى البطل عضو العصابة

من الطريق السوى الى طريق الاجرام (ص ٨) . واحيانا يتشكل ظهور المؤلف فى محاولة للخروج على سياق القصة فى اطالة وحشو ، كما فى (قلب عذراء) والكاتب يتحدث عن خروج المرضى الى حديقة المستشفى وما يساورهم من أفكار تنطلق خلف سور المستشفى (ص ٧١) .

وقريب من هذا - فى مجال الاقحام - ما حدث فى احدى قصص (الذئاب الجائعة) حينما أشار الكاتب أكثر من مرة فى لفظ صريح ، الى ان أحداث قصته لم تحدث هذه السنوات وانما وقعت قبل ١٩٥٢ ، فهل من ضرورة تستدعى مثل هذه الاشارة او هذا التحذير ؟

ان العمل الناضج فى رايى يفسر نفسه دائما ويعلن عن موقفه ويحتفظ بقوته، ولا يعبأ بمرور السنين واختلاف المقاييس . فالشىء الأصيل يحتفظ بأصالته ابدا، فلا حاجة به اذن الى وضع لافتة فوقه تشير الى بعض معالم الطريق التى تغيرت فى الواقع الذى يتناوله . ويخيل الى ان الاستاذ البدوى بالغ فى هذا الاحتياط ، فاذا كان فى الامكان التجاوز قليلا عن هذا الموقف والمؤلف يلفتنا الى التغيير الطارىء على مجتمعنا فى «هامش» الصفحة ، فان الذى لا يمكن الاغضاء عنه فى كثير أو قليل ، السماح لهذا الهامش بالتسلل داخل العمل الأدبى نفسه ، فنقرأ فى القصة بلفظ مباشر قاطع تهافتت له السياق عن وقوع الاحداث فى «العهد البائد» ! (ص ٤٥) .

ان القصة (فى القرية) تعرض فى احدى قسماتها لعهد الملكية والاقطاع ، حيث أجر العامل الريفى لا يزيد عن ثلاثة قروش يوميا . واظن فى هذا الكفاية .

ومن الطريف ان هذه القصة عندما نشرت فى نفس المجموعة فى طبعة اولى، خلت من الاشارة الى لفظ «العهد البائد» ! ولا يجمح بنا الخيال والذكاء متصورا ان القاص ولا شك نشر مجموعته لأول مرة قبل الثورة ، فاضطر - بلا حق وبلا سبب فنى - الى هذا التحذير . فمن الطريف مرة أخرى ان النشر الأول حدث بعد الثورة أيضا فى سلسلة «الكتاب الذهبى» عدد شهر ابريل ١٩٥٤ ! فلماذا غير المؤلف موقفه بلا داع اذن ؟!

***

احدى سمات محمود البدوى انه قاص يحاول ان يكتب ما يعتقده حقا . والخط العريض لهذه السمة، منهجه فى الكتابة الذى يرفض تملق مشاعر الجماهير. وليس أدل على ذلك من ان قاصنا لم يشترك فى «الهوجة» التى حدثت منذ سنوات قلائل فى حقلنا الثقافى ، والتى أرادت صبغ أدبنا بلون معين زاعق بدعوى مستوردة من الخارج . كما ان احد الخطوط الرفيعة لهذه السمة اهتمام البدوى بالجنس، هذا الاهتمام الذى يستأهله عمل هذا العنصر الضخم فى تشكيل حياتنا . ومن

الطريف ان هذا الخيط الرفيع « يناقض » فى الظاهر ـ نتيجة استجابة الجماهير المتعطشة الى الحب والتى لا تزال أعماقها مقيدة بعهود الحريم ـ الموقف السابق لأديبنا ، فما أعظم احتفال الكثرة الكثيرة من قرائنا بكل ما يشتم منه جنسا ! ولكن البدوى لا يناقض نفسه ، بل يحافظ على مبدئه فى ضرورة ارتفاع الكاتب بقارئه لا الهبوط الى مستوى الاخير . ولذا فهو فى جنسه لا يرسم صورا فاضحة لا عمل لها الا اثارة الغريزة ، بل يعمد الى النوازع الانسانية محللا . غير منكر أحيانا تسجيل لمسة صريحة أو ما يمكن أن يطلق عليها عارية ، يقتضيها الموقف والصدق .

نذكر هذا كله ونحن ننتهى من قراءة (الذئاب الجائعة) لندرك أن البدوى فى مجموعته هذه لم يبد اهتمامه المعروف بالجنس ـ لانعنى بالطبع ان يقحمه اقحاما! ـ بل انه ليخطو خطوة أبعد من ذلك . فيقص قصة حفلت بالجنس وان لم تكن عارية الجسد ويضع مكانها قصة أخرى ! نشير بذلك الى ابعاده ل (رجل) التى ظهرت فى الطبعة الاولى ـ الكتاب الذهبى ـ واحلاله (الدراجة) محلها ـ الكتاب الماسى !

واذا لم يظن القارىء الظنون بموقف المؤلف من هذا التغيير ، فان الأمر يخرج من مجرد الشك فى اتخاذ البدوى موقفا آخر من الجنس ، اذا وقفنا مثلا على ما صنعه أديبنا بقصة (فى القرية) ، التى تحكى غرام فلاح أجير باحدى فتيات الغجر . وقبل ان نتناول بعض ملامح التغيير ، نتساءل أولا عن علة وجوده . نحن نعرف ان السبب الرئيسى لقيام المبتدع بمعالجة انتاجه ثانية ، ان يجده أضعف مما أراد له ان يخرج الى القارىء فهل كان هذا ما استشعره الاستاذ البدوى ؟

اختار المؤلف لبطولة قصته فتاة غجرية تجرى الدماء الحارة فى عروقها .

ولكن عندما أراد قلمه ان يعكس طبيعة الشخصية العنيفة ، بدت الخطوط مهتزة وغير ثابتة . بل وعكس شعور القارىء شيئا غير ذلك ، ان الكلمات لحقها بتر واضطراب وان قاصه على غير عادته ، غير مقنع . وبدا الوضع غير مفهوم على الاطلاق عندما ارد المتلقى أن يتأكد ما اذا كان هذا كله قد حدث للقصة فى صورتها الأولى أيضا ام لا ، فوجد لدهشته الحقيقية ان الخطوط المهتزة والكلمات المبتورة قاصرة على الطبعة الجديدة ! وان (فى القرية) فى طبعتها القديمة ناضجة مكتملة تبرز شخصية المرأة الغجرية المنطلقة التى لا تكترث باخفاء رغبتها فى الرجل الفحل ، ولا تقول مختصرة بصوت تقريرى لا حرارة فيه « قبل » لحظة الاشباع الجسدى لصاحبها : « انك وحش » (ص ٤٤ ـ طبعة الكتاب الماسى) ، بل تقولها كاملة «بعد» لحظة الاشباع هذه ـ وفارق كبير فى الجو النفسى بين قبل وبعد ـ وكأنها تشكر رفيقها على ساعة المتعة باللغة التى تفهمها : « انك وحش .. ولكنى أحب

الوحوش !.. » (ص ٤٧ ـ طبعة الكتاب الذهبى) ، لقد حملت الينا هذه العبارة حيوية الانثى المتحررة السعيدة ونشاطها ، لا خمود المراة الساكنة وتبلدها كما فى العبارة السابقة .

وشىء آخر ، فالتزييف المفتعل أدى الى تمييع الموقف ، كما حدث لبطلنا نعمان عندما لم يستطع ان يكبح جماح شهوته ، فعول على ان يقضى لبانته من صاحبته الفجرية . تقول الطبعة الحديثة « شددت على ذراعها بقبضة من فولاذ .. وانتهى الأمر بسقوطها وسقوطى » (ص ٤٤) ـ كذا ! ـ بينما طبعة الكتاب الذهبى « شددت على ذراعها بقبضة من فولاذ . وحملتها .. وفى سرعة البرق دخلت بها الحقل » (ص ٤٦) . نعم هكذا يفعل الفلاح العاشق المتأثر ببيئة القروية. وهكذا صنع ايضا بطل آخر لمحمود البدوى فى قصة (الأعمى) فى نفس المجموعة . فلماذا اعترف المؤلف بهذا الموقف هنا وانكره هناك ؟ لا أدرى .

مرة أخرى ، لماذا أجرى قاصنا تغييره اذن ، هل وجد فى القصة لمسات جنسية اكثر من اللازم ؟ ـ لن نناقش الساعة ما يمكن ان يشى به هذا الموقف من تبديل فى نظرة البدوى الى الجنس ـ ؟ لا اظن ! فان عوامل الافساد التى سببتها الرتوش الاخيرة هى المسئولة عن اظهار اللمسات الجنسية المفتعلة لا اخفائها ، حتى شكلت بطل القصة فى صورة مراهق غبى . ويكفى انها ألغت عامل التبرير باختصارها لبعض اجزاء التحليل الرائع الذى غاص به المؤلف الى أغوار الشخصية ، كهذه اللقطة البارعة الدقيقة التى استعاد بها نعمان ماضيه وربطه بحاضره : « عندما كنت صغيرا ، كنت أخرج مع لداتى من أبناء قريتى الى النيل، وتتسلق صوارى المركب الى ان نصل الى قمتها .. ونقفز من هذه القمة الى الماء .. ونغوص الى القاع حتى تلمس اقدامنا الوحل . ثم نشب بعد ذلك فى بطء ويصافح وجهى سطح الماء فانفض راسى ، وأنا شاعر بدوار لذيذ ! وهذا هو حالى مع هذه المراة ، فأنا غائص الى الاعماق ، وشاعر بنفس الدوار » . (ص٤٧ ـ طبعة الكتاب الذهبى) .

اذا عمدنا الى الغاء اللمسات التحليلية من القصة ـ كالفقرة السابقة ـ ، فماذا ابقينا لها ؟!.

يوسف كونراد ومذهبه الفنى

بقلم

حسن لطفى المنفلوطى

يمتاز يوسف كونراد من بين كتاب القصة الحديثة فى انجلترا باتســاع فى أفق الخيال وقوة الذهن والاخلاص الفنى الكامل · ولا شك فى أن هذه المزايا هى التى حالت دون شهرته السريعة · وكان وما زال يعد كاتب الخاصة وان لم تنقصه الشهرة· وهو كاتب خالق مبدع ، انجليزى التبعية بولندى الأصل ، وقصصه فريدة فى الأدب الانجليزى ·

وحياته كانت مليئة بالتقلبات الغريبة · فقد ولد من أسرة بولندية فى مقاطعة أوكرانيا عام ١٨٥٦ · وكانت أوكرانيا مقاطعة بولندية وهى الآن من جمهـــوريات الاتحاد السوفيتى · وشب هناك فى وقت سادت فيه القلاقل والاضطرابات ، واشتد فيه النزاع على هذه المقاطعة بين روسيا وبولندا · وقد توفى والداه على أثر ما لقيا من تشريد ونفى سياسى · فكفله خاله ، وعنى بتربيته ، وأحضر له مربيا ممتازا يعده لدخول جامعة «كركاو» · ولكنه هوى البحر صغيرا ، وأراد أن يكون بحارا يجوب العالم على ظهر السفن · وبذل أهلوه كما بذل مربيه جهودا كبيرة فى سبيل نزع هذه الرغبة من نفسه ، ولكن دون جدوى · وأخيرا ترك بولندا وهو فى سن الســـابعة عشرة ، وكان على وشك دخول الجامعة ، وسافر الى مرسيليا ، ومن هناك ركب البحر لأول مرة ·

وقضى ثلاثين عاما يجوب البحر ، وصل فيهـا الى أعلى المراتب ، ونال الجنسية البريطانية · ثم أصيب بمرض اضطر من جرائه الى أن يترك البحر ويســتقر فوق اليابسة بقية حياته ·

وحدث ان ارسل بعد وصوله الى انجلترا قصة أسماها مباذل الماير الى أحـــد الناشرين ، وكان قد كتبها فى أوقات غريبة ، وعلى سنوات عدة ، ودهش عندما قبلها الناشر وطبعها فى عام ١٨٩٥ · ومن ذلك اليوم عاش حياة الكاتب الهـادىء ، وهى

حياة لم تكن تبشر بها حياته الماضية • ولم يستطع كونراد نفسه أن يعرف ما الذى حرك فى نفسه الرغبة فى أن يصبح بحارا ، ثم كيف أصبح هذا البحار كاتبا قصصيا•

وكان نجاح قصته الأولى مفاجأة له ، فاستمر فى الكتابة ، واستطاع فى وقت قصير أن يحقق مبادىء الفن وأساليبه • وهذه المبادىء والأساليب هى التى استعملها فى حياته الأدبية بعد ذلك •

وتعد مقدمة كتاب « الأسود من النرجس » من أهم (ما كتب عن نظرية الأدب)

وخاصة من ناحية أثرها فى الفن القصصى الحديث • وهذه المقدمة تكشف عن الأهداف التى رمى اليها فى كتاباته ، والوسائل التى استعملها للوصول إلى هذه الأهداف •

وهو يبدأ مقدمته بتعريف واضح للفن ، مقارنا اياه بالفلسفة التى تعالج الأفكار، والعلم الذى يعالج الحقائق والنظريات ، ثم يصل الى نتيجته ويقول :

« ان الفنان لايلمس فينا جانب العقل والحكمة ، وانما يلمس فينا ذلك الجانب الموهوب ، ولذلك فأثره أبقى وأخلد • اذ هو يتحدث الى قدرتنا على السرور والتعجب، والى احساسنا بالعطف والشفقة ، والجمال والألم ، والى هذا الاحساس الكامن فينا الذى يربطنا ببقية البشر ••• هذا الرباط القوى الدقيق الذى يربط ملايين البشر فى أحلامهم وآلامهم ، وأفراحهم وأحزانهم ، وفى الخوف والوجل ، والذى يربط الانسان بأخيه الانسان ، ويربط الانسانية كلها ، الميت بالحى ، والحى بالذى لم يولد بعد » •

ثم يتحدث عن القصة ويقول :

« انها تؤثر فى المزاج ان اعتبرناها فنا • وهذا ما يجب ان تهدف اليه ، فتشابه فى ذلك فنى الرسم والموسيقى وكذلك جميع الفنون الأخرى ••• انها تاثير مزاج واحد فى آلاف الأمزجة ••• مزاج فيه قوة طاغية ، يهب الحوادث الجارية معناها الحقيقى ، ويخلق من هذه الحوادث العظة والحكمة ، ويضفى على الزمان والمكان الجو العاطفى • ويجب أن ينقل الينا هذا الأثر خلال الحواس حتى يكون فعالا • وفى الحقيقة لا يمكن أن ينقل الينا هذا الأثر الا بهذه الوسيلة ، لأن المزاج ، سواء أكان فرديا أم جماعيا ، لا يخضع لقوة الاقناع • فجميع الفنون تؤثر أولا فى الشعور • ولهذا ينبغى أن تهدف الكلمة المكتوبة التأثير على الشعور اذا كنا نريد أن نصل بها الى المنابع السرية للعواطف الايجابية • ويجب أن يطمع الكاتب فى أن يكون فى أدبه المرونة التى نجدها فى فن النحت ، والألوان التى نراها فى فن الرسم • وقدرة فن الموسيقى الايحائية • وهذا لا يتأتى الا بالاخلاص التام فى خلق مزيج كامل من الشكل والمادة ، وبالعناية التامة بتكوين الكلمات ورنينها، وباستعمال الضوء الايحائى العجيب الذى يضفى نورا على الكلمات العادية والألفاظ القديمة التى ضمرت وطمست معالمها بفعل الزمان وسوء الاستعمال » •

« والسبيل أمام كاتب النثر هو أن يسعى سعيا متواصلا الى الابداع والخلق ، سائرا فى هذا الطريق غير عابىء بالجهد والتعب ، أو النقد واللوم ، وأن يكون جوابه على القارىء النفعى الذى يبحث فى القصة عما يستمد منه الشجاعة أو العزاء ، وعما يسليه أو يخيفه ، وعما يثير عجبه أو دهشته ، هو هذا : ان هدفى الذى أسعى الى تحقيقه هو أن أجعلك بقوة الكلمات المكتوبة تسمع وتشعر وفوق ذلك ترى ، وهذا كل شىء ٠ فان نجحت فى ذلك ، فسوف تجد ما تريد من تشجيع وعزاء ، ومن خوف وتسلية ٠٠٠ تجد كل ما تريد ، وتجد فوق ذلك شيئا أنت تنساه ٠٠٠٠ تجد قبسا من الحقيقة » ٠

وكل قصة كتبها كونراد ان هى الا دليل على اخلاصه للمثل التى وضعها نصب عينيه ، وقد أراد أن يهب فن القصة ما فى فن النحت من مرونة ودقة وبروز ٠ وجرت عادة كبار الكتاب أن يدرسوا شخوصهم دراسة دقيقة وافية ٠ ويحاولوا تصوير مادرسوه بان يقصوا القصة بضمير المخاطب أو الغائب ٠ ولم يخرج كونراد فى ذلك عن تقاليد كتاب القصة ، ولكنه رأى أن طريقة العرض هذه لاتفى بما يريد من صدق فى التصوير ودقة فى الوصف ٠ فاخترع شخصية « الكابتن مارلو » ٠ ومارلو هذا رجل قد ترك سن الشباب ومارس الحياة وعركها ، ثم اعتزلها ، وان لم يفقد العطف على الانسان ٠ ونجد هذه الشخصية لأول مرة فى قصة « اللورد جيم » ، فلا يحدثنا المؤلف ، انما يحدثنا مارلو عما رأى وسمع ٠ وساعد هذا على بعث الدم الحار فى شخصية اللورد جيم ، وفى ابرازها ٠ وان كنا نجد بعض الاضطراب فى هذه القصة فلأنها تجربة ٠

ثم خطا كونراد بعد ذلك خطوة أخرى فى قصة « فرصة » فاظهر لنــا حوادث القصة وشخوصها معكوسة فى أكثر من ذهن واحد ٠ فاستعمل اربعة قصاص ٠ وهى طريقة يتجنبها أغلب كتاب القصة لما فيها من صعوبات ولما تحتاجه من عناية ودقة ٠ وكان نجاحه فيها رائعا حتى ان القارىء لايحس بان المؤلف قد بذل جهدا ما ٠ وهذه القصة عمل فنى رائع والشخصيتان الأساسيتان فيها « فلورا وكابتن انتونى » قد صورتهما يدان بارعتان ٠ وهما أكثر من تمثالين ، فقد وهبا الحـركة والاحسـاس وتحركا وسط عالم من الحقيقة ٠

ويعتمد كونراد فى أدبه اعتمادا كبيرا على الحواس ، ويثير خيال القارىء فيجعله « يحس ويسمع وفوق ذلك يرى » ٠ وهو نحات ماهر فى تتبع الخطوط والمنحنيات ، وموفق فى اختيار ألوانه ، ودقيق فى وصف الصوت والذوق والرائحـــة ، ولذلك يتطلب من القارىء مجهودا وتركيزا وخيالا فى تتبع تفاصيل قصصه ٠ فاذا استطاع القارىء أن يقوم بمثل هذا المجهود ، وجد أن هذه القصص فريدة ، وتركت فى نفسه من الأثر مالايحسه الا فيما رآى وسمع ، بل يشعر بأنها تجاربه الخاصة التى لاتزول ذكراها من نفسه سريعا ٠

ويعتبر كونراد مثل رائع للخروج عن القومية ، فلغة طفولته وشبابه كانت البولندية ، وظلت كذلك داخل نفسه الا اثناء العمل والدراسة ، فقد أخذت اللغة الفرنسية مكانها • وقد تأثر تأثيرا كبيرا بهذه اللغة وعاداتها الذهنيـــة ، وتعلم أساليبه الفنية على يد أساتذة المدرسة الطبيعية الفرنسية • أما اللغة الانجليزية ، فقد تعلمها بعد ذلك واستعملها بعد نضجه ، وكتب بهـا مؤلفاته وقد أصبحت هذه اللغة بفضل موهبة نادرة قادرة على الاستيعاب في يده أداة طيعة للتعبير الأدبي • فمفرداته وتعابيره تكشف عن ثروة اللغة الانجليزية في المفردات والتعابير أكثر مما تكشفها كتابات كبار الكتاب الانجليز أنفسهم ، وتدل على سروره بالكلمات وجزالتها ، وعلى غرامه بأنواع الصفات ، كما تدل على الجهود الكبيرة المضنية التي بذلها في تعلمها والتدرب على الكتابة بها •

وقصصه تخلو من النقد ، فهو لايقترح اصلاحا ولا يحتضن مثـــلا ، ولا يوجه لوما الى أحد ، ولا يحبذ عملا ما • بل هو فنان لايخضع للحياة ، بل يخضعهـا له • ومن هذه الناحية يسمى كاتبا واقعيا ، ولكن واقعية كونراد أوسـع مما اعتاد عليه أصحاب المذهب الطبيعي الذي تأثر به • فلم يكتف بتصوير حقائق الحياة السطحية بتفاصيلها الدقيقة • بل هو أكثر من ذلك • فقد وهبته حياة البحار القاسيـة ، والعيش بين المغامرين الذين يسعون الى الثروة ويتكالبون على جمعها بأى الوسائل ، ورؤية أساليب استغلال الانسان لأخيه الانسان ، وتجاربه بين مختلف الأجناس في مختلف البلاد ، وهبه كل هذا اتساعا في أفق التفكير وبصيرة في ادراك الحقـــائق ، وفهما للقوى النفسية وأنواع الضعف الانساني • كان يرتب أجـزاء الحقيقـة التي يختارها من هنا وهناك بشكل منظور ، ويربط بينها وبين الحياة بوجه عام •

وقد نجد في قصصه شيئا من الغرابة والغموض والاحساس بالقدر • وهـذا يرجع الى طبيعته الصقلبية • وأثر الأدب الروسى عليه • ولكن هـذا لا يعني أنه كاتب خيالي ، فهو يقدم لنا الحياة كما هي ، متبعا في ذلك المدرسة الطبيعية الفرنسية مـع تعديله لها • فلا تجد بين شخوصه أبطالا ، وقد رسم هذه الشخوص دون أن يحابى جنسا أو لونا أو طبقة اجتماعية • ولا يوجد بين هذه الشخوص المختلفة تشـــابه ، ولا يجمعهم شيء غير أنهم مضطرون جميعا الى الصراع ضد قوة ليست خيرة ، وهـذه القوة حقيقة غير خيالية ، تؤثر في حياة الانسان أينما كان •

ولا يظهر كونراد الانسان تعسا في صراعه مع هذه القوة • بل على العكس من ذلك ، فقد راى وهو بحار كيف يتحد البحارة ضد الرياح عندما تثور ، فيظهر هـذا الاتحاد ما في نفوسهم من عواطف نبيلة • وهذه القوة التي تجلب الشقاء على الانسان ، انما تنشأ داخل الانسان نفسه ••• من طمعه ونهمه مما يجعله خائنا حسودا •

ويمكننا أن نقسم قصصه الى ثلاث مجموعات • تحتوى المجمـوعة الأولى على أربع قصص • تعرض الحياة في جزر الهند الشرقية ، الى حيث رحل الانسان الابيض

بحثا وراء الثروة · تاركا خلفه فى بلاده غشاء المدنية الرقيق الذى كان يرتديه خوفا من القانون والمجتمع ، وتستبد به روح الجشع والطمع والاستهتار بكرامة الانسان وروحه · وهذه القصص هى : مبادل الماير ، والأسود من النرجس ، ومنبوذ الجزر ، واللورد جيم ·

وفى هذه المجموعة الثانية قصة واحدة وهى nostromo وتعد أفضل قصصه فى رأى بعض النقاد ، اذ هى ملحمة كاملة ، تعرض الحياة الحديثة حينذاك وما تميزت به من روح المادة والاستغلال · ونكاد نجد فيها جميع العواطف البشرية من نجاح واخفاق · ومن حب وبغض ـ ومن وطنية وأنانية · ونجد فيها أن مناجم «سنت تومية» هى رمز للقانون والنظام ، كما هى سبب للثورات والمآسى والبؤس والشقاء ، وقد خلق المؤلف فى هذه القصة جمهورية فى أمريكا الجنوبية وأسكنها بالرجال والنساء ، ففيها سكانها الأصليون ، وهم خليط من الاسبان والهنود الحمر ، كما فيها أوربيون من جنسيات مختلفة ، ألقت بهم المقادير الى ذلك المكان · ورجال آخرون جاءوا سعيا وراء الثروة · وتكشف القصة عما فى حياتهم من أحداث ومآس ·

والمجموعة الثالثة تضم أربعة قصص اهتم فيها المؤلف بالحياة فى أوربا ، وشخصياتها قليلة ، وهى كالعادة واضحة المعالم تدب فيها روح الحياة ·

وأخيرا نصل الى المجموعة النهائية وهى تضم قصتين وهما «فرصة ، وانتصار» · ونجد كونراد فى هاتين القصتين قد نضج فكره وزاد اهتمامه بمصير الانسان · وما زال واقعيا وما زالت ألوانه زاهية صادقة ، ومعالجته لموضوعاته معالجة بارعة ، ولكننا نجد فيها ظلالا قاتمة تشبه الظلال التى تلقى بها السحب على الأرض ، فتحجب الشمس ودفئها · ويتضح فى هاتين القصتين روح التشاؤم واليأس من الانسان لجشعه وطمعه ·

ولا يهتم كونراد بأثر هذا الطمع على الطامعين ، ولكن بأثره على غير الطامعين والأنانيين ، ويعتبر أن الشر هو القوى التى تحطم رباط الصداقة والمحبة بين الناس ، ويرينا أن مأساة الانسان هى أن يجد نفسه يعيش بين الناس وقد فقد الثقة بهم · وان كان الشر هو القوة التى تفرق بين الانسان وأخيه الانسان · فهناك قوى أخرى تقربهم وتلم شملهم ، وهى قوى المحبة والولاء والاخلاص ، والحاجة المشتركة أمام الخطر المشترك · ويظهر لنا كونراد فى هاتين القصتين داعيا يبشر بتآلف القلوب البشرية ·

وطبيعى أن تسود فلسفته تلك الروح الصوفية · فهو ابن رجل قد نفى سياسيا ومن شعب لاقى ألوان العذاب والاضطهاد على يد القياصرة الروس ، يحن الى الوحدة والتضامن ويكره الطامع والغاصب ويقول ، ان من يقرأ قصصى يعرف

معتقداتي • فالعالم الزمني يعتمد على أفكار بسيطة جدا تشبه في قدمها الجبال ••• ويعتمد على فكرة الاخلاص » ولا شيء يثير اخلاص الانسان لاخيه الانسان ، ولو كان في ذلك ثورة على العدالة •

وكتب هذا في مذكراته «مذكرات خاصة» وكان مخلصا في سرد ذكرياته ، في هذه المذكرات عظيما في وصفها وتحليلها • ينتقل بنا فيها من لندن العابسة الى سهول بولندا الفسيحة وقد غطتها الثلوج البيضاء ، ثم الى أنهار المناطق الاستوائية حيث تسود الحرارة وتنتشر الأمراض والحميات ، ثم الى مرسيليا حيث ركب البحر لأول مرة ، فتشاهد منازلها القديمة المتداعية ، ونرى حاجز المياه والأرصفة وقصر « ايف » كلها غارقة في ضوء القمر الفضي •

وكتابه الاخير « خط الظلال » هو كتاب شيخوخته • ويعد بمثابة اعترافات وتجارب شخصية • وكتبه بلغة عامية على غير عادته • ويمتاز هذا الكتاب الأخير بالهدوء والحزن • وهو يحتوى على أفضل ما في نفسه • ونرى من خلال حديثه الذي يتميز بالغموض روحا قوية لم تهزمها أحداث الزمان ، ونلمس في وضوح عقيدته أن كل ما يمر بالانسان من آلام ، انما يزيد من قوته الروحية ، ما دام مؤمنا بتآلف القلوب البشرية •

ومات هذا الكاتب في عام ١٩٢٤ • ودفن في احتفال مهيب • ثم أسدل عليه ستار النسيان ، فلم يقدره الشعب الانجليزي حق قدره لأنه كان غريبا عنه بأحاسيسه وشعوره وبآماله وأفكاره • ولكنه ظل حيا بل تزداد قيمته يوما بعد يوم في أنحاء العالم وخاصة في الجامعات والاكاديميات والأوساط الثقافية وعند كتاب القصة ودارسيها ، وذلك لما في أساليبه الفنية من قيمة كبيرة ولما لمذهبه في القصة من أثر في تطور القصة الحديثة •

الغيور !

متولى

بقلم : صوفى عبد الله

هل انا انا ؟

هــــذا هو الســـؤال الذى بات يحيرنى ...

فكلما نظرت الى نفسى «من الخارج» اتفقت فى الراى مع الناس جميعا فيمن اكون انا .

لا تعجبوا ! فالكائنــــات كلهــا لها وجودان : وجود « من الخارج ... » هو ذلك الوجود الذى يراه النـــاس ويسمعونه ويلمسونه ، ووجود آخـر « من الداخـــل » قد لا يراه احد ولا يســمعه ولا يلمسه ، لانه وجود « خاص جدا » للكائن نفسه .

وبما اننى كائن . فلا بد اذن ان تنطبق على الاحكام العامة التى تسرى على جميع الكائنات . ومن هنا كان من المحتـــم ان يكون لى وجودان : ذلك الوجود الخارجى الذى يحسه الناس، ووجود آخر لا يحســـه الا انا . وفى بعض الأحيان فقط لا فى سائرها !

الى هنا والمســألة ـ كما ترون ـ بسيطة جدا ومنطقية للغاية . ولـكن الصعوبة تأتى من اننى كلما نظرت الى نفسى عانيت ما يعـــانيه كل أحول ! فباحــــدى عينى أنظر الى نفسى من الخارج فاشارك جميع الناس فى النظر الى هذا المخلوق المسجل اســـمه فى شهادة الميلاد وله أوصـــاف بدنيـــة وسلوك وعلاقات ظاهرة معـــروفة . وبعينى الاخرى ارى مخلوقا آخـر . اراني انا ولـكن من الداخـل ، ارى انسانا مختلفا جدا عن ذلك الانســان الذى يســــمعه النـــــاس ويرونه ويتسامعون به .

ولهذا كان طبيعيــا جدا وأنا أغانى من هذا «الحول» العقلى ـ أن أتســاءل اى هذين انا ؟ وهل انا الذى يعـرفه الناس هو انا حقا ؟

جميع الناس يقولون عنى أننى رجل محظوظ ...

وهكذا اقول انا ايضا كلما نظـرت الى نفسى من الزاوية التى ينظر منها النـــاس ، الى ذلك المخلوق المســـمى « أنا » من الخارج . واجد معهم الحق كله فى أن يصفونى هــــذا الوصـــف البهيج الذى لا يخلو من حســـد . ولا اكتمكم ان نفسى تبتهج بما يعانونه من الحسد لى بعض الابتهاج .

أراهم على حق كلما نظرت ـ كمـــا ينظرون ـ الى أسباب الســـــعادة الغامرة التى تحيط بى منذ مولدى .

ومع هذا كله فانا انســـان تعيس !

أو هكذا اصبحت أراني كلما نظرت بعيني الاخرى الى نفسى من الداخل . ويزيد عذابى أن حظى السعيد هو الذى كان بالذات سبب تعاستى والسر فى سوء حظى ! ..

كلا .. لا تتهمونى بالجنون ... اصبروا قليلا لتعرفوا وجهةنظرى التى تبرر هذا التناقض الذى يبدو لاول وهلة خيالا أو جنونا . وبعد هذا ستحكمون انتم انفسكم اننى رجل عاقل ... عاقل جدا ولكنه تعس !..

عمرى وصحتى ...

شباب كالورد ... فى السابعة والعشرين !

شكلى ومظهرى ؟

دع هذا جانبا ! فحسبك من امرى اننى ولدت وفى فمى ملعقة من ذهب .. كما يقولون ، وفى وجهى وقامتى كنزان من الذهب ايضا !

ولدت غنيا وسيما بالوراثة . وولدت وجيها مرموقا معافى من العمل والكدح بالوراثة أيضا . ومرشحا لعضوية أرقى الأندية والأوساط بالمؤهل السالف الذكر ..

عاطل بالوراثة ؟

ربما .. بل هو بالتأكيد صحيح .. ولكن هذا لم يكن مصدر تعاستى بل بالعكس مصدر نشوتى !

شباب وفراغ وثراء .. طالما ردد الناس فيها قول أبلغ قدامى الشعراء فى أنها مفسدة للمرء اى مفسدة ...

وانا لم اشعر الا انها مسعدة للمرء اى مسعدة !

منذ أن كنت فى الثامنة عشرة والحسان يترامين على كما تترامى الفراشات على النور ، وكانت قلوبهن تتساقط فى لظى شبابى المستعر ، ويحترقن واحدة بعد واحدة ، وانا لا ابالى ، بل أجد فى ذلك لذة لا تعدلها الا لذة التفاف مزيد من أسراب الفراشات الحسان ! ...

الحب ؟ .. الهيام ؟ .. الاشواق المتقدة والاحلام الضخام ؟ ..

تلك بضاعة المحرومين من الحظوة عند النساء ، بضاعة من لا يملكون من جمالهن الا الاحلام والتمنى ولوعة العجز عن تحقيق رغباتهن المحرقةمنهن. اما انا .. فلم يكن عندى وقت للرغبة والتمنى . كانت يدى مملوءة باكثر مما تريد ، فليس أمامى الا ان أختار من الوانهن وأفانين فتنتهن ما اهوى . وكل مليحة بمذاق ...

وكان أجمل ما فى تلك النشوات المتصلة شعورى بحريتى وبسطوتى . أنا غير مرتبط باحد . غير مسئول عن شئ ، وغير مسئول أمام أحد . ابدا المغامرة وانا اعلم انها مغامرة عابرة... وتكون خاطرتى وانا فى أول لقاء ، وعندما تحترق شفتاى باول قبلة، ان هذه الحسناء لى كلما شئت. وطالما شئت ، ولكنى لست لها ! وفى استطاعتى ان اصرف نفسى عنها فى اية لحظة فلا أتألم ، وقد تتألم . . . بل انى قد أتلذذ بذلك الاعراض عنها الى سواها . وما أكثر اللواتى كانت كل امنيتهن أن يختطفننى من أذرعة

الاخريات ، ليظفرن بلذة التفوق والانتصار ... وانا وحدى الظافر المنتصر

ولم أكن اتصور حياة فى دنيا ولا آخرة تفوق هذا النعيم المتجدد المتعدد الملذات والمفاتن ...

وفجاة تسربت الأفعى الى جنتى لتطردنى منها ...

تسربت الى جنتى تلك – وانا لا أدرى – أفعى السأم والملل والبطر .. واصبحت كل حواء جديدة نسخة معادة مكررة ، أعلم سلفا ما سيكون من حركاتها وسكناتها ، فلا تتحرك لها نفسى ...

كل مملوك مزهود فيه ... مرغوب عنه !! ...

هذا ما كتب على ابن آدم ، وهذا ما قراته مسطورا بأجساد عشرات وعشرات ممن ترامين على احضانى حتى مجتهن أعصابى ! .

الرجل صياد بالفطرة ... فى تكوينه غريزة الصيد ... واية لذة تبقى لصياد لا يتسع به الوقت لاطلاق بندقيته ، لأن الطيور تخر من تلقاء نفسها تحت قدميه ، وتحط على كتفيه ، وتتمسح بعنقه وخديه ؟

وتركت صيد الظباء من بنات الانس ، الى صيد الطير والوحش ، لأجد مجالا لغريزة الصيد المركبة فى أعماق رجولتى ... وهجرت النوادى والمجتمعات، واقمت فى الريف برهة.. والملل يقتلنى ... حتى أنكرنى أصحابى وأقاربى وانكروا أمرى ...

واخيرا لم تستطع عمتى – التى ربتنى بعد وفاة والدى وانا صغير – أن تسكت ، تحدثت الى وبحكمة التجربة والسن قالت لى :

– هذه يا مصطفى أعراض الزواج !

وفزعت ... فانا لم احرص على شىء حرصى على حريتى ، وكيف يمكن لمثلى أن يكون زوجا ، مخلصا ومرتبطا بامراة واحدة ، مهما كان جمالها وسحرها ؟ .

وابتسمت عمتى ابتسامة من تدرى من امر النفس البشرية ما لا أدرى .. وسكتت وتركتنى لنفسى .

والعجيب ان سكوتها حرك ذهنى ، فصارت فكرة الزواج تلح على . . لماذا لا استقر ؟ لماذا لا يكون هدوء الزواج دواء السأم ؟ لماذا لا يكون فراغ حياتى من الارتباط بانسان هو سر أزمتى ؟

ولكن كيف اثق بامراة ؟ كيف اثق بحواء واحدة وانا الذى عرفت ما لم يعرفه رجل عن المراة ؟ عرفت غدرها وأساليبها الماكرة فى خداع الزوج والاب والاخ ، لتبدو شريفة وهى تتبذل ، وتخلع كل عذار ، وتتجرد من آخر أثر للحياء بين احضان عشيق مثلى لا يحترمها ،ولا يبقى عليها ، ولا يعدها الا بمتعة عابرة كانها كأس أو سيجارة .. نهايتها بعد لذة لاذعة الى فراغ ، أو رماد ؟

ومرة أخرى تقدمت عمتى لتمد لى يد العون من خبرتها ... وهدتنى الى فتاة ... بل الى برعم لم تتفتح اكمامه عن الوردة بعد .. فتاة بريئة، طاهرة،

نقية كقطرة الندى فى الفجر الوليد ...

ودخلت تلك الأسرة خاطبا ...

واقبلت الفتاة البريئة بكل طهرها على فارس الاحلام الذى وقف ببابها فوق صهوة جواد أبيض ...

ولم يفتني ــ أنا الخبير بالنساء ــ أن أدرك كم هى ساذجة بريئة . ورقص قلبى فرحا ، وقلت مع الناس .

ــ المحظوظ محظوظ دائما وفى كل شىء حقا ! اجمل بنات حواء وانت اعزب ، واطهر بنات حواء وأجملهن وأوفاهن وانت متزوج !

ولكن براءتها وسذاجتها كانت عندى اثمن الف مرة من جمالها الفتان .. وشبابها الفينان ... شباب بنت السابعة عشرة !

ودخلت البيت ، وزادت الاواصر ، وصرنا نخرج معا ، ونختلس القبلات ولكننى كنت ــ أنا الخبير بالنساء ــ أدرك تماما انها ليست قبلات المراة العاشقة ، بل قبلات الفتاة الساذجة المفتونة بحلم العرس ، والبيت والاستقرار السعيد ، والامومة . . . وكل ما تحلم به الفتيات الصغيرات ، من غير ولع هائم بشخص محدود !

وتنبهت غريزة الصائد ، واستيقظ غرور العاشق الغازى ..

وبدات أوقظ المراة فيها لتحبنى حب المراة لرجلها المنشود ...

ولن يكون ذلك عسيرا على أنا الخبير بالنساء ... !

واحسست بطعم قبلاتها يتغير ، فانتشى غرورى ، وتاقت نفسى لدليل حاسم جديد على انمصطفى هو الذى تحبه فتاتى لا الزوج الموعود ...

وذات يوم ، ورأسها الصغير فوق كتفى قلت لها ، وطعم قبلتى لم يزل يخدر أعصابها العذراء :

ــ أنا لأنام ليلى يا «منى» ... من شدة الحزن والأسى !

ورفعت راسها الجميل وحملقت فى وجهى بعينيها البريئتين ! .. وقصصت عليها بصوت مدرب قصة ماض مثقل بالذنوب والعذاب، وان امراة خطرة من نساء ذلك الماضى تملك تحت يدها ما يكفل بالقائى فى غياهب السجون، وهى تتوعدنى اذا تزوجت وهجرتها أن تقضى على ... واننى لهذا لا اجد بدا من الانسحاب من حياتها !

وتعلقت «منى» بعنقى وبكت ..

وفى اليوم التالى كانت هى التى سعت الى تناشدنى الا اتركها ، فهى لا يمكن أن تعيش بدونى ... وذرفت دمعة من دموع التماسيح ، واظهرت عجزى عن اتمام ذلك الزواج ، حرصا عليها منتلويثسمعتها وسمعة أهلها.. لان مصيرىالمحقق هوالسجن والفضيحة ولن تتورع تلك المراة عن ذلك ... بل قد تقتلنى !

ــ أنا لا أستطيع أن أعيش بدونك يا «منى» ... ولكننى سأتحمل عذابى وحرمانى من اجلك ... من أجل شرفك ...

وبكت بين ذراعى ، وخرجت ..

ولم يمضيومان حتى عادت مصفرة

مقرحة العينين من السهر ، والامتناع
عن النوم ، وادمان البكاء ، ودفنت
رأسها بين يديها وهى تقول :

ـ ليس من الضرورى أن نتزوج
يا مصطفى ... ولكننى لا أستطيع
أن أعيش بدونك ... أنا لك ...
بزواج ... أو بغير زواج !



وكان هذا حسبي ، كي ينتشي الصائد .. الدون جوان في أعماقي ، ولكي أعلم انني تزوجت امراة تعشقني لشخصي ، اكثر من حرصها على كل اعتبار آخر ...

وواعدتها على الفور ، كي أدبر لها أسباب الهرب ، لتقيم في مكان مجهول، ازورها فيه خلسة ... بينما أهلها يبحثون عنها وابحث أنا معهم عن عروسي المفقودة ...

ولم تفكر فيما يصيب ابويها من حزن وعار ... لم تفكر في شيء ...

وازداد غروري انتشاء ..

وفي الموعد المضروب ، كنت ادخل بيت أبويها واطالب بتعجيل القران ، وهمست لها انني سويت المسالة مع تلك المراة ، واشتريت منها الوثائق التي تهددني بها ...

وهل انا بحاجة لاحدثكم عن سعادتي الزوجية ؟ ...

انها لا يمكن ان توصف .. لا يمكن .. فليس لها نظير ...

زوجتي أطهر زوجة ... واجمل واوفى زوجة ... واحب زوجة ... انها تعبدني ، وأنا أعبدها !

ولكنني معذب ... تعس ... أحترق بسعادتي احراقا ، ولا اجد لشيء طعما ... حتى ولا لحب زوجتي ! ..

اهي الغيرة ! ..

ربما ... ولكنها غير ذات موضوع ... ليس لي غرام اغار منه في الماضي او الحاضر ..

ومعهذا فانا غيور، تكاد تقتلني غيرة اشد من غيرة عطيل !

حظي الذي لا نظير له جعلني اكسب جميع النساء وأنا أعزب واكسب أيضا هذه العذراء النقية ... أحبتني ووهبتني كل شيء روحا وجسدا ، من غير ذلك العقد ...

صحيح انني رفضت ... وكفاني منها الدليل على الحب ... ولكن مع هذا ... لم تسقط كما سقطت النساء من قبلها بسبب خارج عن ارادتها .. لان الرجل الذي أغواها تعفف ، لا لأنها تمنعت !

هذه المغوى انا ... ربما فعلت هذا ... وانا أعلمه جيدا ... ولكنه ليس انا ... انا الآن زوج طيب يريد زوجته ذات حصانة على الغواية ... اما الذي أغواها ففتى ماجن لا عهد له ولا ضمير ولا خلق !

زوجتي سقطت أمام غواية ماجن.. ولا يقلل من خطورة هذه الحقيقة ان هذا الماجن كان انا ... ولا استطيع ان انفي من ذهني هذا الخاطر المزعج الذي يسمم كياني كله ، كلما رايتها تتفانى في حبي ، وتذوب تحت أتفه لمساتي ــ التي أتكلفها تكلفا ... وانا ساخط معذب ، من غير أن يكون لي ادنى حق في تبرير سخطي وعذابي ..

انا الغيور بلا غريم ..

من أقاصيص الأولين

عرض وتقديم : سامية زكي

الخيزران :

كانت من قبل جارية لرجل من ثقيف ، ورأت فيما يرى النائم أن الشمس والقمر يبزغان من جسدها ، وقصت رؤياها هذه على سيدها ، وما كان جوابه الا ان قال لها : لست من جوارى مثلى ، انت تلدين خليفتين .

قدم بها سيدها الثقفى الى مكة ، وباعها فى سوق الرقيق ، وعرضها الذى اشتراها على الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور ، الذى قال لها : من أين أنت ؟

قالت : مولدى مكة ، ومنشئى بجرش .

قال : أفلك أحد ؟

قالت : مالى أحد الا الله ، وما ولدت أمى غيرى .

فقال المنصور لأحد غلمانه : اذهب بها الى المهدى ، وقل له : انها تصلح للولد .

أتى بها الغلام الى حيث أمره الخليفة ، وعرضها على المهدى الذى قال لها : والله يا جارية انك لعلى غاية المتمنى .

وقعت من المهدى موقعا حسنا ، وحظيت عنده ، وولدت له ولدين صار كل منهما خليفة للمسلمين فيما بعد . أما أولهما فهو موسى الهادى ، وأما الثانى فهو هارون الرشيد .

وحين شعرت بمكانتها عند المهدى ، وحين رأت أن فى ابنيهـــا موسى وهارون ما يعصمهـــا من كل تغير أو انحراف فى قلب المهدى ، أفصحت عن سر مكتوم ، وقالت له :

ان لى أهل بيت بجرش فى اليمن ٠

قال المهدى : ومن لك من الأهل ؟

قالت : لى أختان ،اسم احداهما « أسماء » واسم الأخرى « سلســـل » ٠ ولى أم ، وأخوان ٠

كتب المهدى باحضار أهلها فأحضروا ٠ وتزوج جعفر بن أبى جعفر المنصور ، وأخو الخليفة المهدى « سلسل » التى ولدت زبيده التى تزوجها فيما بعد ابن عمهـا هارون الرشيد ٠

بقيت أسماء عذراء فترة من الزمن ثم تزوجها الخليفة المهدى بحيلة احتالها ٠

تقدم الى الخيزران وقال لها : قد ولدت لى رجلين همـــا موسى وهارون ، وقد بايعت لهما بالخلافة من بعدى ، وما أحب أن تبقى جارية ، وأحب أن أعتقك ثم تخرجين الى مكة وتقدمين فأتزوجك ٠

قالت : الصواب رأيت يأمير المؤمنين ٠

أعتقها المهدى وصارت حرة ، ثم خرجت الى مكة ، وانتهزها المهدى فرصة فعقد على أسماء ، ومهرها مليون درهم ، ووهب لها مليون درهم أخرى ٠

وعند عودة الخيزران من مكة خرج المهدى لاستقبالها ، وكانت الأخبار بزواجه أختها قد وصلتها ، وكانت فى يأس من أمر عودتها الى المهدى من حيث أن الشريعة قد حرمت الجمع بين الأختين ــ لذا لم تكد تراه حتى بادرته القول فى جرأة :

ما خبر أسماء ، وكم وهبت لها ؟

قال : من أسماء ؟

قالت : امرأتك

قال : ان كانت أسماء امرأتى فهى طالق ٠

قالت : طلقتها حين علمت بقدومى ٠

قال : أما اذ علمت فقد مهرتها ألف ألف درهم ، ووهبت لها ألف ألف درهم .

وعقد على الخيزران كما وعدها وتزوجها .

قال الواقدى : دخلت يوما على الخليفة المهدى فدخل الى دار الحريم ثم خرج متنكرا ممتلئا غيظا . فلما جلس قلت :

يا أمير المؤمنين ، خرجت على خلاف الحال التى دخلت عليها ؟

فقال : نعم . دخلت على الخيزران ، فوثبت على ، ومدت يدها الى ، ومزقت ثوبى وقالت لى ياقشاش ، اى خير رأيت منك ؟ لقد اشتريتها من نخاس ، ورأت منى مارأت وعقدت لابنيها ولاية العهد . ويحك : أفأنا قشاش ؟

قال الواقدى : فقلت : يا أمير المؤمنين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان النساء يغلبن الكرام ويغلبهن اللئام — وقال : خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى — وقال : قد خلقت المرأة من ضلع عوجاء ان قومتها كسرتها . وحدثته فى هذا الباب بكل ما حضرنى ، فسكن غضبه ، وأسفر وجهه ، وأمر لى بألفى دينار . وقال : أصلح بهذه منحالك ، فأخذتها وانصرفت .

قال الواقدى : فلما وصلت الى منزلى وافانى رسول من الخيزران فقال لى :

تقرأ عليك سيدتى السلام وتقول لك : يا عم قد سمعت جميع ما كلمت به أمير المؤمنين فأحسن الله جزاءك ، وهذه ألفا دينار الا عشرة دنانير بعثت بها اليك لانى لم أحب أن أساوى بين صلتى وصلة أمير المؤمنين . ووجهت الى بأثواب .

وقد دام سلطانها على الخليفة المهدى حتى أتته المنية عام ١٦٩ هـ

وحين ولى الخلافة ابنها موسى الهادى أرادت أن تستبد بأمور الخلافة ، وتدخلت فى كثير من الشئون — لولا أن وقف منها ابنها موقفا حازما ، ورغب فى ألا تسلك به مسلك أبيه .

لقد أرسل اليها ذات يوم يقول : لا تخرجى من خفر الكفاية الى بذاذة التبذل ، فانه ليس من قدر النساء الاعتراض فى أمر الملك . وعليك بصلاتك ، وتسبيحك ، وتبتلك ، ولك بعد هذا اطاعة مثلك فيما يجب لك .

كان أول أمره يجيبها الى كل ماتسأل قياما بحق الأمومة وبرا بها . ومضى على ذلك أربعة أشهر حتى رأى أن الناس قد طمعوا فيها ، وانثالوا عليها . وحتى عنم أن حجابها قد رسموا ألا يقف أحد ببابها راكبا دابته — كائنا من كان — بل يجب عليه النزول .

كلمته يوما فى أمر لم يجد الى اجابتها اليه من سبيل ، واحتج بحجة ٠

فقالت له : لابد من اجابتى اليها ٠

قال : لا أفعل ٠

قالت : فانى قد تضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك المالكى ـ وهو من رجال الدولة العباسية ٠

فغضب موسى الهادى وقال : ويلى على ابن الفاعله ٠ قد علمت أنه صاحبها ، والله لا قضيتها لك ٠

قالت : اذن والله لاأسألك حاجة أبدا ٠

قال : اذن والله لا أبالى ٠

وحمى ، وغضب ، فقامت مغضبة ٠

فقال لهـــا : مكانك تستوعبى كلامى ٠ والله ـ والا فأنا نفى من قرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ لئن بلغنى أنه وقف ببابك أحد من قوادى ، أو أحد من خاصتى أو خدمى ، لاضربن عنقه ولأقبضن ماله ، فمن فعل فليلزم ذلك ٠

ما هذه المواكب التى تغدو وتروح الى بابك فى كل يوم ؟ اما لك منزل يشغلك ؟ أو مصحف يذكرك ؟ أو بيت يصونك ؟ ٠

اياك ثم اياك ، ما فتحت بيتك لملى او ذمى ٠

فانصرفت من عنده ما ترى شيئا مما فى طريقها ، ولم تنطق عنده بحـلوة ولا مرة بعدها ، ومالت كل الميل الى ابنها الآخر هارون الرشيد ٠

وجمع موسى الهادى يوما القواد الذين يأتون باب الخيزران فقال لهم :

أيما خير أنا أم أنتم ؟

قالوا : بل أنت يا أمير المؤمنين ٠

قال : فأيما خير أمى أم أمهاتكم ؟

قالوا : بل أمك ياأمير المؤمنين ٠

قال : فأيكم يحب أن تتحدث الرجال بخبر أمه ، فيقولوا : فعلت أم فلان ، وصنعت أم فلان ؟

قالو : ما أحد منا يحب ذلك .

قال : فما بال الرجال يأتون أمي فيتحدثون بحديثها ؟

فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها البته :

شق عليها ذلك فاعتزلته ، وحلفت ألا تكلمه ، فما دخلت عليه حتى حضرته الوفاة .

***

ريطة

كانت هي الأخرى زوجة للخليفة المهدي ، ولم تكن جارية وانما هي ابنة عمه ـ أبو العباس السفاح ـ وولدت له هي الأخرى ولدين هما عبيد الله بن المهدي . ومن قصصها مع أبي دلامة الشاعر هاتين القصتين .

(أ)

كان أبو دلامة ـ على شدة اتصاله بأبي جعفر المنصور الخليفة العباسي ـ كارهاً للصلوات ، مستهترا ، يشرب الخمر ، فألزمه المنصور القيام بفرائض العبادات في شهر رمضان خاصة . فقال له أبو دلامة : البلية في شهر أصلح منها في طول الدهر .

وكان المهدي بن المنصور يبعث الى أبي دلامة في شهر رمضان في كل ليلة حرسيا يجيء به للعبادة .

شق ذلك على أبي دلامة ، وفزع الى الخيزران ، وكل أصحاب المهدي ليشفعوا له في الاعفاء من القيام في هذا الشهر المبارك ـ ولكن الخليفة لم يجبهم الى طلبهم .

قال أبو عبيد الله معاوية الأشعري الكاتب لأبي دلامة : الدال على الخير كفاعله ، فكيف شكرك ؟

قال أبو دلامة : أتم شكر .

قال : عليك بريطة زوجة المهدي فانه لايخالفها .

قال أبو دلامه : صدقت والله .

ثم رفع اليها رقعة يقول فيها :

أبلغا ريطة أنى كنت عبدا لأبيها
فمضى يرحمه الله وأوصى بى اليها
وأراها نسيتنى مثل نسيان أخيها
جاء شهر الصوم يمشى مشية ما أشتهيها
قائدا لى ليلة القدر كأنى أبتغيها
تنطح القبلة شهرا جبهتى لا تأتليها
ولقد عشت زمانا فى فيافى وجيها
فى ليال من شتاء كنت شيخا أشتهيها
قاعدا أوقد نارا لضباب أشتويها
وصبوح وغبوق فى علاب أحتسيها
ما أبالى ليلة القدر ولا تسمعنيها
فاطلبى لى فرجا منها وأجرى لك فيها

فلما قرأت الرقعة ضحكت ، وأرسلت اليه بجواب تقول فيه :

اصطبر حتى تمضى ليلة القدر .

فكتب اليها : انى لم أسألك أن تكلميه فى اعفائى عاما قابلا ، واذا مضيت ليلة القدر فقد فنى الشهر .

وكتب تحت ذلك هذه الأبيات :

خافى الهك فى نفس قد احتضرت
قامت قيامتها بين المصلينا
ما ليلة القدر من همى فاطلبها
انى أخاف المنايا قبل عشرينا
يا ليلة القدر قد كسرت أرجلنا
يا ليلة القدر حقا ما تمنينا
لا بارك الله فى خير أؤمله
فى ليلة بعد ما قمنا ثلاثينا

فلما قرأت الأبيات ضحكت ودخلت الى المهدى فشفعت له اليه ، وأنشدته الشعرين ، فضحك المهدى حتى استلقى ودعا بأبى دلامة ، وكانت ريطة معه ، وقال له :

قد شفعنا ريطة فيك ، وأمرنا لك بسبعة آلاف درهم •

فقال أبو دلامة : أما شفاعة سيدتي في حتى أعفيتني فاعفاها الله من النار ، وأما السبعة الآلاف فما أعجبني ما فعلته • اما أن تتمها بثلاثة الآلاف فتصير عشرة آلاف ، واما أن تنقصني منها ألفين فتصير خمسة آلاف ،فاني لا أعلم حساب السبعة •

فقال المهدي : قد جعلتها خمسة آلاف •

قال أبو دلامة : أعيذك بالله أن تختار أدنى الحالين وانت أنت • فعبث به المهدي ، ثم كلمته ريطة فيه ، فأتمها له عشرة آلاف درهم ، فأحيل على الخازن واخذها •

(ب)

وكانت ريطة قد وعدت أبا دلامة أن تعطيه جارية • فمدحها بعدة قصائد — وهي لا تفي بالوعد •

وخرجت ريطة من بغداد الى مكة حاجة ، فحجت ورجعت ، وكانت لها جارية يقال لها « أم عبيده » ، وكانت برزه ، تخرج ، وتكلم الرجال ، وتبلغ رسائل سيدتها ريطة •

فقال أبو دلامة لأم عبيدة حين عيل صبره :

أبلغي سيدتي ان … شئت يا أم عبيده
أنها أرشدها اللـ … ـه وان كانت رشيده
وعدتني قبل أن تخـ … ـرج للحج وليده
فتنظرت وأرسلـ … ـت بعشرين قصيده
كلما تخلق أولى … بدلت أخرى جديده
انني شيخ كبير … ليس في بيتي قعيده
غير مثل الغول عندي … ذات أوصال مديده
وجهها أسمج من حو … ت طري في عصيده
ذات رجل ويد كلتا … هما مثل القديده

فدخلت أم عبيده على السيدة ريطه فانشدتها الشعر • فامرت له بجاريه ومائتي دينار للنفقة عليها •

رسم فى الظلام

ترجمة : هدى السيد

منذ سنوات ست ، وفى صباح أحد أيام شهر أكتوبر الذى تكثر فى سمائه السحب الرمادية اللون ، كنت أستلقى على سريرى أطالع كتابا ، وفجأة رأيت بريقا يومض داخل رأسى واختفى الكتاب من أمامى ثم اختفت بعد ذلك الغرفة تماما . وسرعان ما وجدت نفسى سجينا .. حبيس قفص من الظلام ... وفى الحقيقة كان على أن أعد القوة لمواجهة تلك اللحظة الحرجة، ذلك أننى فيما مضى كنت قد أصبت بمرض « الجلوكوما » الذى سلبنى نور احدى عينى ، وحذرنى الأطباء حينذاك من أن العين الثانية قد سرى اليها المرض وأصيبت بالفعل، ومع ذلك فقد داخلنى شعور سخيف يقضى بأن أتجاهل هذا الأمر حتى أفر من ذلك المجهول المزعج الذى ظل يطاردنى فى كل لحظة .

وبينما أنا فى طريقى الى المستشفى أخذت أحدث نفسى وأمنيها بأن هذا الظلام لاشك أمر وقتى يزول بعد حين. تعلقت بهذا الأمل وتشبثت به حتى أطاح به الأطباء ... شعرت آنذاك وكأن روحى تسقط فى هوة سحيقة من اليأس والألم ذلك أننى عشت فيما مضى أعتز بكرامتى واستقلالى فى الحياة ، أما الآن فقد ذهب كل شىء ... نعم لقد فقدت وظيفتى كمراجع حسابات احدى الفنادق ، وقبعت فى منزل عار من الأثاث وحيدا تائها فى دياجير الظلام .

وقفت عجلة الزمن بالنسبة لى مدة أسابيع طوال بعد ذلك الحادث الأليم ، لم أكن أشعر خلالها الا بأيد تلمسنى وأصوات تتحدث ، ويخيل الى أنها أصوات وهمية آتية من عالم بعيد ، وفى بعض الأحيان كنت أجلس الساعات الطويلة صامتا لا أبدى حراكا ، ثابتا كالصخر الأصم .

ولما حان الوقت لأغادر المستشفى احسست برعدة من الذعر تسرى فى كيانى وتهز أعماقى ، ذلك أننى لم أدخر شيئا من المال فيما مضى استطيع به أن أقوم حياتى ـ ولكنى علمت فيما بعد أن هيئة مساعدة العجزة سوف تقرر لى معاشا عن العجز الكلى، وأن ادارة الضمان الاجتماعى ستساهم هى الاخرى بنصيب كاعانة لى ـ لم يكن لدى مسكن آوى اليه ، اذ أننى كنت أقطن من قبل فى مدينة صغيرة بقرب « فرجينينا » لم يكن لى فيها من أصدقاء أو معارف

اللهم الا قليلا • ولذلك قررت أن أعود الى مدينة « سافانا » وهى مدينة صغيرة عشت فيها وقتا ما حيث كان لى بعض الاصدقاء •

وفى مدينة سافانا هذه حدثت معجزة ••

فقد فكرت جديا أن أحاول الكتابة ، ولذلك أعلنت فى احدى الجرائد أطلب سكرتيرا يعمل بعض الوقت وبينت فى الاعلان انى ضرير ولا أستطيع أن أدفع الا أجرا قليلا ، وعلى الرغم من ذلك جاءنى أكثر من أربعين شخصا يرغبون فى العمل معى • ولكننى اخترت من بينهم آنسة تدعى (دوثى) جذبنى صوتها الجميل • كانت تشفق على بلا شك بادىء الامر ، ولكن ما لبثت أن تحولت هذه الشفقة الى حب كبير كان الزواج ثمرته ـ ومن ذلك الوقت لم أعد أعيش وحيدا ولكن مع ذلك كنت أشعر أحيانا بأسى كبير ، كيف لا ! وقد دفعت بـ (دوثى) ـ كما كنت أدعوها ـ الى أعماق جحيمى الذى كنت أعيش فيه •

لم تنجح محاولتى للكتابة كما توهمت أول الامر وذلك بسبب الفراغ المظلم الذى كان قابعا وراء عينى والذى وقف حجر عثرة أمام تفكيرى ، وكثيرا ما كنت أثور وأصرخ فى وجه (دوثى) بشدة وعنف اذا ماحاولت أن تهدىء من روعى •

وذات يوم ، وعلى أثر احدى تلك الانفعالات المتكررة ، سمعتها تقول بصوتها الهادىء الصبور :

ـ ساخرج لبرهة قصيرة • اليك هذا القلم وتلك الورقة فلربما أحسست ميلا الى كتابة بعض الملحوظات :

ولما انصرفت أخذت أفكر فيما عساى أن أفعل لأرضى (دوثى) وأصلح أثر انفعالى فى نفسها •• بدأت أخط علامة على الورقة التى أمامى ثم مررت بأصابعى عليها •• لاحظت أن أطراف أصابعى أصبحت أكثر حساسية عن ذى قبل ، فقد استطعت أن أميز العلامة التى رسمتها وأشعر بملامحها بوضوح كبير •

حدثت نفسى آنذاك قائلا :

ـ يا لسوء الحظ ، لو أنك تعلمت الرسم فيما مضى لاستطعت على الأقل أن ترسم لها بعض المناظر ••

كنت على حق فيما قلت ، اذ أننى لم أحاول قط فى الماضى أن أرسم منظرا أو ألون رسما •• وفجأة لاح فى مخيلتى منظر كنت قد أعجبت به ذات مرة ، كان يصور حركة المد والجزر •• بحيرة ، تتهادى مياهها الخمرية فى سحر وجمال أخاذ ، وتطل من خلفها غابة شامخة من أشجار الصنوبر •

همست فى خاطرى :

ـ حسن ، لن يضيرنى شىء أن أحاول رسم هذا المنظر الجميل ! •

ولما عادت (دوثى) ناولتها الورقة التى كنت أرسم فيها ـ مرت برهة من الصمت العميق سألتنى بعدها :

ـ من رسم هذا المنظر ؟

ولما أخبرتها بما حدث همست قائلة :

ـ اذا شاهد أى شخص هذا الرسم فلن يظن أبدا أنك ضرير •

أمسكت بقلمى وأخذت أرسم منظرا آخر لأريها كيف رسمت المنظر الأول • كنت أقيس المسافات وأدونها بعلامات

أخطها بظفر ابهامى ثم أرسم خطوطا أتحسس بها ملامح المنظر بأطراف أصابعى ، وأوضح الظل والضوء بين أصابعى المنبسطة على صفحة الورقة ٠

٠٠٠ يا له من أمر عجيب حقا ٠٠ شعرت وأنا أرسم أن الظلام الذى كنت سجينه لم يعد فارغا موحشا بعد ٠ فقد كنت أبصر من جديد ـ نعم كنت أرى من خلال ذاكرتى وليس من عينى ٠٠

ومن تلك اللحظة بدأت أعيش مرة ثانية ، اخذت أعمل فى لوحتى بصبر كبير ، كان يشجعنى عليه ايمان عميق بأننى ربما أحاول شيئا فريدا لانظير له٠ لقد أحدثت أخطاء لا حصر لها ولكن كل خطأ منها كان عبارة عن تحد للتجويد والتحسين ٠ ومن المعروف أن الانسان الذى يشعر بمسئولية التحدى لا شك انه على قدر كبيرمن الوعى والادراك كان احساسى الفنى يتحرك فى أعماق نفسى بمهل وألم فى نفس الوقت ، فقد كان على بادىء الامر أن أركز فكرى وأحصر خيالى ـ ساعات طويلة ـ فى الموضوع الذى أختار رسمه ، وأحيانا كان يمتد بى الزمن الى أيام عديدة حتى أستوعب الصورة فى ذهنى بوضوح تام وأميز ملامحها وألوانها ، بعد ذلك كنت أبدأ فى رسم الخطوط الاساسية للمنظر مستخدما فىذلك قلما عاديامن الرصاص اللين ليسهل على أن أستشعر خطه العريض، وكنت أفضل دائما رسم الاشياء الجوهرية فى اللوحة أولا ثم أتدرج منها الى المناظر الظاهرية الاخرى ـ فمثلا اذا حاولت رسم باقة من الأزهار الجميلة فانى أرسم الزهرة الاولى المميزة ثم يلى ذلك باقى الازهار أما عند رسم المنظر الطبيعى فكنت أبدأ بالمناظر الظاهرية كالمنزل أو القارب أو الشجرة مثلا أو أى شىء آخر هام ثم أتدرج الى مادون ذلك ـ فاذا ما انتهيت من الرسم بدأت مرحلة التلوين٠ واشتريت لهذا الغرض أقلاما خاصة لتلوين اللوحات بألوان الزيت ـ وابتكرت مقبضا لها يتكون من خمسة صفوف مميزة ، فى كل صف ستة تجاديف لوضع الالوان المختلفة ٠ وكلفت (دوتى) بوضع اللون الاخضر بجميع مشتقاته فيالصف الاول: الاخضر الداكن فى أقصى اليسار وتتدرج بعد ذلك مشتقاته المختلفة ٠ وهكذا بالنسبة لسائر الالوان كالازرق والبنى والرمادى أما الصف الخامس٠ فقد خصصته للالوان المختلطة المتنوعة التى تلزم أحيانا فى تلوين بعض المناظر الخاصة ٠ وكنت أتذكر دائما هذه الصفوف على الترتيب السابق وموضع الالوان فيها ـ بالتمرين والممارسة استطعت أن استشعر خطوط رسمى بطرف ريشة الألوان ٠٠ وتعلمت كيف أتجنب اختلاط الالوان على لوحتى، كذلك أمكننى أن أميز بينها ، وأختار منها ما يلائم المنظر الذى أرسمه ، فالالوان يختلف لمسها بالنسبة لما تحويه من مادة ملونة ٠ فمثلا اللون الازرق الداكن تركيب خشن يشبه فى ملمسه ورق الصنفرة بينما اللون الازرق الفاتح يمتاز بملمس ناعم انسيابى ٠ وتدريجيا وبمحاولاتى المتكررة تحسنت قدرتى علىالرسم ولكن واجهتنى فى نفس الوقت بعض الصعاب ، فغالبا عند ما كنت أحاول رسم موضوع ما ، كان يعوزنى استيعاب الحيوية الملازمة للمنظر الذى أتخيله فى ذاكرتى ، وبمعنى آخر كان وضوح المنظر فى مخيلتى ، يبدو ضعيفا غير واضح المعالم ٠



وذات يوم وجدتنى أسأل نفسى :

ــ لماذا كنت ضريرا وأنت مبصر !! اى قبل أن يحكم عليك بأن تصبح ضريرا بالفعل ؟!

وأحسست فى تلك اللحظة رغبة ملحة فى أن أصبح فى كل فرد يستطيع أن يرى بعينيه قائلا :

ــ « يا صاح استخدم عينيك ، كن نهما وأنت تشاهد المناظر والأشياء المختلفة ، باحثا وراء كل تجربة جديدة، لاتدع الجمال يمر من حولك دون أن تشبع العين منه وتحتفظ به » .

وبعد فترة استطعت أن أبتكر طريقة فنية بها أستطيع أن أسترجع قوة ذاكرتى فكنت اذا ما استيقظت فى الصباح أستلقى برهة فى هدوء، وسكينة أستعيد الماضى وأستعرضه أمامى بوضوح وروية وأبذل جهدى فى تخير بعض المناظر وأتذكرها فى مخيلتى ، وهكذا أمكننى أن أسترجع منظرا كنت قد شاهدته ذات يوم وأنا واقف على قمة جبل «لوك أوت » أشخص بناظرى الى تلك المساحات الشاسعة التى تغطيها بسط زاهية من الخضرة الناضرة فى وديان أنهار أمريكا المترامية ، بدت أمامى بحقولها مختلفة الالوان وأنهارها متباينة التعاريج والانثناءات .

بعد ذلك لاح لمخيلتى منظر لمستنقع تحف به أشجار السرو ، تتلألأ مياهه تحت أشعة القمر الفضية ، ورأيت بعين الخيال البحر الاطلنطى ، الذى يمتد نحو الشمال الشرقى ثائرا يرغى ويزبد بأمواهه المتلاطمة .

وعادة كنت اذا ما تملكنى منظر ما واستحوذ تماما على مشاعرى ، أحاول أولا رسمه فى الحال على الورق ، وقد وجدت من خلال تجاربى العديدة أنه تلزمنى مدة تتراوح بين ثمان الى عشر

ساعات لأرسم منظرا متكاملا تملأه الحياة ، وتمتد هذه المدة الى الضعف تقريبا اذا قمت بتلوينه ـ ولكن مع هذا كانت هناك بعض اللوحات التى استنفدت منى شهورا كاملة من العمل المتواصل . وقد بلغ عدد اللوحات التى قمت برسمها تسعمائة لوحة (٩٠٠) بعت بعضها وأهديت الكثير منها ، كذلك جاءنى الناس من كل فج ليروا انتاجى الفنى وأخص بالذكر منهم الرئيس « ترومان » الذى خرج من عندى ومعه احدى لوحاتى ـ كما عرض على رجل من نيويورك اتفاقا ينص بأن يكون له حق شراء جميع انتاجى .

ومرت السنوات القليلة التالية سراعا ـ رزقنا خلالها ـ أنا ودوتى ـ بمولود بلغ من العمر عامين يملأه المرح والحيوية وحب الاستطلاع البرىء شأنه فى ذلك شأن جميع الاطفال الامر الذى اضطرنى أن أضع أقلام الرسم فوق البيانو لتهرب من عبثه المتواصل ، وتكون فى مأمن من يديه .

والآن وبعد أن لاقيت من النجاح مالاقيت أصرح بأن حياتى لاتزال ضيقة الحدود ، محدودة الجنبات تحوطها بعض الحواجز التى كانت وليدة ظروفى الخاصة ولكن مع ذلك أعترف بأنى مدين لها بالكثير .

وانى لأدرك تماما ـ رغم انى لست من هؤلاء المتضلعين فى الدين ـ أدرك بأن وراء تلك السنوات الست الماضية كان يكمن هدف كبير ، هو الذى ذلل الكثير من الصعاب التى اعترضت سبيلى ، وجعل تلك الحواجز تتضاءل تدريجيا على عكس مابدت عليه أولا . نعم أن مثل تلك الحواجز كفيلة بأن تفقد الشخص قلبه وتوهن عزيمته اذا ما استسلم لها ، ولكنه اذا ماتشبث بهدفه بقوة لا تعرف الخور وأمل لا يتسرب اليه اليأس وثقة بالنفس لايوهنها الضعف فانه لاشك يشعر بشىء يتحرك فى كيانه يجعله يتطلع الى حياة طيبة جديدة ـ وانه لواجدها .

الأرنبة والأنف



محمد الخضرى عبد الحميد

التقطت انفاسى قبل أن تتسرب فلولها الباقيات ، ثم ابتلعت لعابى بصعوبه ، وبعدها أنشأت — من خلال الاحذية الكثيرة المتباينة المكدسة فى تزاحم أمام مستوى عينى ، كالجذور ، فى غابة من السيقان والاقدام — أبحث عن ذيل فستان « سميحة » ، حتى وجدته ، فتعلقت به كأنه كان «القشة» فى المحيط .. وعلى الأثر أخذت نفسا عميقا .. وتكورت ناهضا بظهرى فى غمار الخضم ، تجاه « السطح » .. معاودا ببسالة — اشكر عليها ! — الكفاح لنصب القامة ، علنى أجد — بين سوق أشجار الغابة البشرية — موضعا لقدمى .. !

فى الحقيقة اننا كنا « احسن من غيرنا » ! .. فلقد خلفنا وراءنا الكثيرين ، فى هول وكرب ، تائهين هناك على « محطة الجيزة » بعد ان لم يقو واحد منهم على أن ينفذ من ثغرة واحدة فى نوافذ القطار المقفلة اتقاء شدة الزحام ، أو فى أبواب العربات المسدودة بركام هائل من لحم آدمى !! .. فذلك كان آخر قطار يحمل مواطنى الصعيد ، عقب انتهاء أعياد الاحتفالات القومية فى القاهرة .. ومن يتاخر عن اللحاق به فقد ضاعت قيمة تذكرته المخفضة ، ومن ثم كان ذلك الاقبال الجنونى الرهيب على قطار واحد محدود العربات .. بسيل من الآدميين عرم لا تحتمل أربعة قطر مجتمعة أن تستوعبه كله !

وأتيح لى أن اتحامل فى نصف وقفة .. ومددت ذراعى أضرب بهما — عشوائيا — على غير هدى الا التخمين واقتفاء اثر ملامس الأثواب والبذلات والجلابيب والمعاطف ، حتى حطت اصابعى الجوالة فى همة عمياء فوق كتف حريرية الملمس فصرخت بمرح وبملء فمى المدفون : « انتى فين » ؟! فجاءنى صوتها — صوت « سميحة » زميلتى أمينة مكتبة المدينة — يقول فى حيرة الفريق آنس هتافا رحيما : « قل لى أولا : انت فين انت » ؟!

وعندما سحبت ذراعى الى الوراء بصعوبة بالغة — بعد أن اطمأننت على « موقعها ! » — انفرست أظافرى ، بفعل الضغط الثقيل غير المنتظم — فى شىء طرى ، وعندئذ واتانى صياح خشن غاضب : « حاسب ياشخص !! ..

حاسب ارنبة انفى » !! .. وانفجرت ضحكة بعيدة ! .. وكنت قد تعلقت واقفا ، وليس هنا ادنى خطا فى التعبير فقد كان جسمى معصورا بين أجساد اخرى مدفوعا الى فوق .. اما القدمان فكانتا تتأرجحان باحثتين ــ عبثا ــ عن ارض صلبة ترتكزان عليها ! .. وكان فى المقدور تحمل هذا الوضع دقائق اخر .. لكن حدث أن اختل التوازن ، ولقيتنى بعد أن كنت « مزروعا ! » بالطول ، اذا بى أطفو على سطح الرءوس واتمدد ــ مكره اخوك ــ بالعرض .. !! وصرخ صوت آخر اكثر حنقا : « انزل يارجل حطمت الطربوش الهى يحطم ضلوعك !! .. انا مفتش زراعة ! .. فهمى السنجاب درجة رابعة ! .. انا .. انا حامل تذكرة اولى » !! .. ولكن غطت على احتجاجاته الراقية المسكينة كركرة ضحكة أنثوية ناعمة ، بديعة المضمون .. !!

غير ان الله انقذنا بتخفيف العبء هونا ما ، فقد نزلت طائفة فى محطة المحافظة التالية ! .. وعموما .. لم يكن الامر « نزولا » بقدر ما كان «كركبة!» على أرض الرصيف حديدى البلاط !!..

وبهذا وحده قدر لنا ــ اناوسميحة ــ أن نقف اخيرا عينا لعين ، وان كان جسدانا لا يزالان غاطسين فى العباب .. !!

وشىء ما حدا بى الى ان اتفقد اولئك الذين آذيتهم مضطرا ، وأضروا بنا مرغمين ، .. رأيت شيخا معمما بدينا وانيقا فى ذات الوقت يكابد فى بطولة صوفية محنة الاحتفاظ الى اقصى وقت مستطاع بالحيز الضخم الذى يشغله .. لاشك انه هو بعينه صاحب « ارنبة الانف ! » ــ المجنى عليها ! ــ التى اصيبت بخمشات اظافرى !! .. ارنبة انفه ! .. هاها : .. مدرس عربى بالضرورة .. !!

وواصلت التعرف ــ فى حومة الشد والجذب والانفاس اللاهثة ــ على رفقاء «الحشر» العظيم ! .. لكننى جوبهت بأنين مهذب ساخط عندما لويت رقبتى الى الوراء : « ياسيد ! .. يامواطن !.. كسرت نظارتى الشمسية ! ده نوع ايطالى ، مفيش منه ! .. حرام عليكم ياخوانا ، ده انا مفتش زراعة ! .. انا رحت درجة أولى بتذكرتى الممتازة لقيتها مليانة بطرقاتها ناس وقفف وشنط ومقاطف » !! ..

وللمرة الثانية رنت الضحكة المجهولة السليطة .. !

وعلى اثرها صدحت الضحكة النسائية القريبة ذات الطابع الملىء بالنزق والخفة ، والمفعم طربا أرعن غريرا !!

وفى احدى هزات القطار مالت « الحمولة » كلها ، فى اتجاه واحد .. فسقط الى قاع العربة من سقط .. وعام على المناكب والاعناق من ضغطه وقع الميل المفاجىء .. وكان الركام اللحمى كله قد طوى مفتش الزراعة ــ حامل تذكرة الدرجة الاولى ! ــ فراح يندب الظرف ، ويرثى النظارة ويترحم فى لوعة ثكلى على « شنبرها ! » الفريد نادر المثال .. بينما علت دمدمة الاستاذ البدين ، وهو ينشج بدوره و « يؤبن !! » ارنبة الانف المجروحة مع أخواتها الاخريات من معظم تضاريس الوجه .. !

وكما يحدث فى كل مرة من مرات الشكوى والزعيق والاحتجاج جلجلت الضحكتان ! . طرقعت ضحكة الرجل الساخر البعيد .. وغردت ضحكة « الأنثى » الطروب التى لم نكن رأينا لها وجها بعد . . . !

ومالت « سميحة » على أذنى هامسة وهى تجذبنى بما وسعها من جهد ، مشيرة الى مقعد غير بعيد : « باين عليها عروسة جديدة » !!

ونظرت الى الاتجاه الذى أو مأت اليه ، فاذا بصبية من الريف ، جاروا على حسنها الفطرى بضروب صارخة الابتذال من الكحل والحمرة والحناء ، فبدت فى ابتسامتها الوسيعة – شبه الثابتة – كدمية صغيرة من دمى الاعياد ذوات الالوان الفاقعة الزاهية . . . !

وأخشى أن اكون قد أطلت – أكثر مما ينبغى – فى تسليط نظرتى .. فان سميحة ما لبثت ان جذبت مرفقى الى الخلف فجأة ، مصطنعة ضحكة دهش مثيرة لتحول انتباهى الى ناحية أخرى يجرى فيها « مشهد » آخر ! . كان الرجل ذو الضحكة العريضة المتحررة ، وهو – بالتأكيد – واحد من « أولاد البلد » أصحاب المقاهى ، أو ممن يحملون المؤهل الشعبى العريق «المعلم» .. كان قد استقل أحسن استقلال قوة زنديه حتى شق لنفسه طريقا ، وانتشل من ركن الدوامة القصى ، مفتش الزراعة ، وعاد به فى حنكة رجل انقاذ سواحل فاجلسه فوق تل من الحقائب كان يصنع لنفسه منه مقعدا عاليا ينثر من فوقه سخرياته الضاحكة ! .. وشكره الرجل فى رقة وكياسة ثم لم يلبثا أن اندمجا معا فى حديث شائق سمعنا منه بعض الشذرات :

– قلت لى ان سيادتك مفتش زراعة .. !

– آه والله يا .. يا .. اسم الكريم ؟!

– محسوبك والعبد لله .. المعلم كرشه .. !!

– تشرفنا على كل حال ! .. أنا فهمى .. فهمى السنجاب .. !!

– بالجودة يابو السناجيب ! .. تسمح بقى تقبل منى دى ؟!

– ايه دى ؟! .. نضارة ؟! .. مصرى ؟!!

– آه ! .. والا اكمنها مصرى يعنى ؟! .. أجدع صنف وحياة رقبتك !

– لا مش قصدى .. صنف جميل فعلا .. لكن . . .

– طب وشرفك ما تكسفنى ! .. ده احنا ولاد بلد ياسى مفتش ! .. دهدى .. !! .. أنا ما يخلصنيش أبدا تفضل كده من غير نضارة ! . آه . « الشهومية ! » بتاعتى ما تستحملش !! .. وانا كنت جايبها للواد ابنى حاكم اصله « تلموذ ! » وعايق حبتين ، لكن هايف .. خسارة فيه !!

ومن الركن جاءت مناقشة اعلى غطت على حديث ذينك الرجلين .. كان الاستاذ ذو العمة يجيب شخصا آخر بحمية :

ـ .. يا ابنى أصل عامل عملية فيها ! .. ثم ان لسانى اخد على كده ! .. انا معلم لغة عربية ! .. ما اقدرش اقول:

(مناخيرى) ! .. وكمان اسم « أرنبة الانف » حاجة مش غريبة ياأخى !.. ماقريتشى حتى «القراء الرشيدة» ؟!.. لكل أنف أرنبة ! .

عند ذاك جابهه شاب يقول :

ـ اشمعنى انوفنا احنا خاليـــة من الارانب ؟!!

ونظرت فاذا الشيخ المعمم كان قد اوجد له أولاد الحلال مكانا كريما على قمة « مقطف ! » ، ومن ثم ـ وهذا كان سر لطف الحديث ـ بدأ كلامه مـــع مناقشيه لينا رقيقا .. !!

ولثـــانى مرة أحسست بالمرفق الايمن يكاد يخلع من كتفى خلعا بفعل جذبة قوية قالت لى « سميحة » بعدها :

ـ مالك سارح كده ؟! .. عاجباك « العروسة الجديدة » ؟! .. ثم أتبعت ملاحظتها تلك بابتســامة حيية خجول وهى تومىء براســها ذى الجدائل النحيلة ، ثم تقول باسمة :

ـ اسمع .. « ارنبة انفى ! » أنا الأخرى ، يكون فى علمك ، تشـــم كل حاجة .. !

ـ كل حاجة زى ... ايه ؟!
ـ البنت الفلاحة المزوقة !.. عاجباك جدا ! .. واخدة بالى أنا .. !

هنـــا يقتضينى الحال أن أقول أن « سميحة » زميلتى أمينة المكتبة التى أعمل بها « كاتب حســابات » لهـا مشكلة ! .. ومشكلتها تتصل ـ بخيط او أكثر ـ بمشـــكلتى ! .. فهى فتاة يتيمة ليست على جمال خارق ، تعول اخوة واخوات .. طالما حدثتها فى شان الزواج فكانت تعترض بهدوء ، وتتأبى فى غير دلال ، خشية أن يصرفها زواجها عن اداء رسالتها الاساسية فى الصرف على أخوتها .. وكان شرطى الوحيد هو « ألا تعمل » عنـــدما نتزوج ، وليس ذلك نتيجة قصور فى مداركى .. ولكنه خلاصـــة مركزة و « صـــيغة نهائية » لتخطيط طويل المدى كنت قد وضعته سلفا لمستقبل حياتى ! . وعند تلك الصخرة وقفت بزورقينـــا الرزينين التيارات .. فالاعجاب متبادل، بريئا عذريا وقورا .. ولـــكن .. لانحن أصـــبحنا زوجين .. ولا نحن صرنا ـ وحسب ـ مجرد زميلين .. وبعد هذا كله ف ... عرض الزواج لا يزال قائما لا يلقى الا الامتعـــاض الرقيق دائما .. !

وكنت انا الذى جذب كوعها هى بغتة هذه المرة وانا أشير الى فتى ريفى قادم بطفل صغير يرفعه الى اعلى ذراعيه ، مثيرا نخوة الناس المتراصين ان يفسحوا لئلا يضار الوليد ! .. ثم حط فى نهاية الشوط القاسى بوليده على حجر «لعبة البلاستك الملونة ! » صغيرة السن ، التى تلقفته بلهفة صبيانية طائشـــة وهى تهدهده وتناغيه بصـــفير ، وبتصـــغير الحروف ومط شفتيها ودغدغة وجنتيه

ـ « اسم الله ! .. سلامة ! .. انت جيت ياكبير ! .. جيت يا مرزوق ؟! .. شربت من حنفيـــة القطـــر يامرزوق ياضنايا » ؟! ... قلت لسميحة دهشا:

ـ ارنبة انفك صحيح قوية الشم !.. دلتنا على « ارنبة » حقيقية !

فلما سألتنى كيف ؟ أجبتها :

ـ انظرى ! .. بنت ال ١٣ سـنة ها هى تقدم للعالم «باكورة انتاجها»!!.. ياترى كم « نسخة !! » من « مرزوق » ستهديها عروس المولد هذه الى «مكتبة المجتمع » ؟!!

وسرحت « سميحة » وقد تشبثت عيناها باصرار حافل باستغراق عجيب تتأمل وتتابع دقائق المداعبات الطفلية التى احتدم أوارها بين العروس المخططة و .. و « مرزوقها ! » الاول ... !!

اما انا فبعد أن تذكرت علبة سجائرى اخرجت منها واحدة لاعطيها للشيخ ذى العمـامة .. وهنا اسـتلفت نظرى « مشـهد » آخر أروع .. الاستاذ اللغـوى من فـوق ذرا المقطف الذى يتربع عليه ، يتلقى اشارات تحايا اخوية ودود بالفة الالفة من مفتش الزراعة الذى لاح أنه « منسجم ! » جدا مع « المعلم كرشة » ويقول للشيخ :

ـ ازى أرنبـة انفك دلوقت ؟ ! . فتحسسها الشيخ وهو يجيب مقهقها :

ـ بخير ! .. على فكرة .. ان زرت المركز ممكن تمر على الجنينة بتاعتى ؟!

ـ بكل ممنونية ! ... العنوان ايه ؟!

ـ آدى « الكارت » بتاعى .. !

والقى بالبطاقة فطارت عبر الاكتاف والرءوس وتلقاها « كرشـة » الذى ناولها للمفتش وراحا يصلان ما كان قد توقف من حديثهما ! . واعجبنى ذلك الود الخالص الذى فرض نفسه فأزال فى طبيعية رائعة مصطنع الحواجز .. وعولت على تتبع التجربة اللطيفة ، الا أن همسة خافتة أفلتت من بين شـفتى « سميحة » قطعت تسلسل الافكار فى ذهنى :

ـ ياحلاوته ... !!

ـ هو مين ياسميحة ؟!

ـ مرزوق ... !!

وكان « مرزوق » الوليد يبادل امه (الطفلة) ضحكات ملائكيةعذبة .. فبانا لعينى ـ لست أدرى كيف ـ كما لو كانا ليس اكثر من « زميلين » سعيدين ! ..

حينئذ توقف القطار ، ونزل منه الاستاذ بعد أن صافحنا جميعا ، ثم لوح لنا بكلتا يديه ، ولما اقفل باب العربة وراءه .. عـاد ثانية فاطل من خـلال النافذة براسـه ، محييا ومودعا وهو يهمهم بعبارات الشكر للجميع .. وقبل ان يأخذ طريقه قدما .. عاد فرجع خطوة وهو يميل من فوق الرصيف فى تلكؤ يقول للمفتش : « اوعى تنسى » !! .. فرد عليه مفتش الزراعة ملوحا له أيضا وبين أصابعه البطاقة : « حاضر .. الى اللقاء ومع ألف سلامة » !

وبعد أن هدأت ضجة التوقف على المحطة .. وعـدنا انا وسـميحة الى مراقبة « الارنبة الجميلة » وتأمل انامل كفيهـا المخضبتين بالحنـاء القانية ،



والتعليق على ابلغ حركات « مرزوق » وليدها ، الباسم الضاحك بلا انقطاع مثلها .. !

كان مفتش الزراعـــة فى ذلك الآن يشرح للحلقة التى التفت حـوله ومن تحت « عرشه » العالى ، فى تقـدير ، كيفية تطعيم النباتات والشتلات بحيث يتحول « النارنج » فيصبح ــ حسب الطلب ! ــ ليمـــونا أو برتقــــالا أو «يوســـففندى» !! .. وكيف أن عود العنب الواحد فى الامكان تربيته ــ وفق المزاج ، وتبعا للحاجة ! ــ فيكون الناتج « عنب ارضى » أو « عنب سلوك » أو عنب ــ كاللبلاب السامق ــ يطرح فوق « تكاعيب » !!

وكان تعليق المعلم كرشة الذى طفى على همهمات الآخـرين عبـارة قالهـا باعجاب :

ــ ياقوة الله !.. الله يفتح عليك!.. اما حتة مفتش انما ... عترة .. !

وكان المفتش لبقـا وانيس المحضر لطيفا والحق يقـال ، لانه عنـدما جر الحديث موضوع أجهزة راديو «البطارية» المنتشر بغزارة فى الارياف وكيف أن « الترانزستور » قضى عليه قضـــاء مبرما ، وأنها سنة التطور وارتقاء العلم .. راح مفتش الزراعة يستفسر المعلم عن أنجح الطـرق لـ « تزويج » جهاز مذياعة القديم .. اذ انه بسبيل دفع قســـط أول لحجـز « تليفزيـون » بالمرة ! .. فقـال له المعـلم : « من عينى » !! .. وهنا مد المفتش يده فى جيبه واخرج حافظته واســتخرج من تجويف فيها احدى بطاقاته واعطاها لـ « المعلم كرشة » ورجاه أن يزوره ! .. ثم اخرج قلما وراح يسجل على ظهر « كارت » الاستاذ المعمم ، عنوان المعلم كرشة من الوقت الذى كان فيه المعلم

يملى عليه العنوان مفصـــلا بخريطة جغرافية تبين طرق الوصول اليه .. !

وهدات سرعة القطـــار ايذانا بقرب توقفه على محط محافظتنا .. وتأهبت للنزول .. واذا بى ارانى مضطرا الى « خلع » سميحة من عمق الشرود بعيد الغور الذى غاصت بجماع وجدانها فيه وراء تأملاتها الصامتة الهائمةفىالعروس الريفية الصغيرة وطفلهـا « مرزوق » الضحوك ، وكانا طوال الوقت لا يكفان لحظة عن المناوشـة ، والابتســـام ، والنهنهة .. !

وفيما نحن ـ انا وسميحة ـ نستعد للتقدم لنقترب من البـاب .. راينـا مفتش الزراعة يعانق المعلم كرشـــة بحرارة وصدق فى كثير من التقدير .. وراح المفتش يقول وهو يتاهب معنا لينزل بدوره على ذات المحطة الآتية :

ـ فرصــة سعيدة ! .. والله انى لست نادما على الفـارق فى تذكرتى الممتازة تذكرة الدرجـة الاولى .. أقسم بالله أنى قضيت وسطكم اسعد والذ « سفرية » فى حياتى ... !!

وشيعه المعلم فى احترام ضاحك :

« ابن حلال ياسنجاب ! .. فى حفظ الله يامفتش ! .. أما مفتش انما ... آخر ظرافة » !!

ونزلنا ، وفى ظنى أن كل ما كان سوف ينسى حالما تطأ اقدامنا « البر » على أرض رصيف بلدنا ...

الا ان الذى ادهشـــــنى ، وسرنى واسعدنى ، هو اننا وبعد ان قطعنا اكثر من كيلومتر ، مشيا فى وجوم وصمت .. فوجئت بـ « سميحة » تستوقفنى ، بفتة ، متوهجة الوجنتين وقد تألقت عينـــاها ببريق محير ، .. وفى حالة ليست اطلاقا بنت لحظتها قالت خجلى ولكن فى عزم حازم ، وبصوت مرتعش مرهف خالطته نغمـات سـحيقة العمق لم تكن من قبل مالوفة قط فى أى من طبقات صوتها :

ـ اســـمع .. مفيش مانع ، زى بعضه .. و .. و .. و .. وكفـاية علينا « مرزوق » واحد .. !! ؟!!



تعاطف !!

قصة

بقلم : فتحى هاشم

فى ليلة قمرية من ليالى الصيف ، اتخذ الرفاق مجلسهم المألوف على شاطىء الترعة حيث اعتادوا قضاء السهرة تحت شجرة هناك . حين أقبلت عليهم ، كانت الشلة بتمامها ، وتزيد رجلا غريبا لم أكن قد رأيته من قبل .

أثار هذا الرجل اهتمامى للوهلة الأولى ... كان ضامرا ضمورا غريبا ، كأنه توقف عن النمو فى سن العاشرة ، ضخم الرأس ، بارز عظام الوجنتين ، دميما ... ليس فيه ما يطيب للرائى سوى عينيه ، فهما مستديرتان ، بهيتان ، يترقرق فيها بريق ذهبى أخاذ ، توحيان بأن وراءهما عالما فسيحا بعيد الاغوار . على أن كلماته ــ وليس شكله ــ هى التى أبقت صورته فى ذاكرتى .

شرع يتكلم بعد أن جلست ، ويبدو أنه كان يواصل حديثا قطعه عليه مجيئى . قال موجها حديثه الى مختار الجالس جواره :

ــ أنت ترى هذا ... ولكنى لا أوافقك ...

وسكت هنيهة ، وأخذ يفرك كفيه ثم استطرد :

ــ الألم ؟!.. الألم فخر الانسان ... هو تاج الشوك النبيل الذى يتوج هامات البشر ... وهو أيضا الينبوع لكل شعور رفيع ، انه ينبوع الحب ، والمروءة ، والحنان ، والسرور ... انه ينبوع السرور أيضا ...

ضحك مختار ضحكة خفيفة وقال معلقا :

ــ آه . هذه النقطة الأخيرة لا أفهمها ... ولكن لا تنس أن الحيوانات تتألم ...

ولم تكن تبدو عليه الرغبة الجادة فى النقاش ، وان ما قاله لم يكن أكثر من ملاحظة ومضت فى خياله فنطقها دون أن يهتم بسماع رد عليها ، ولعله قال ذلك لمجرد السخرية من صاحبه . بيد أن هذا اندفع متحمسا :

ــ أجل هذا صحيح ... ولكنها فى هذه الحالة تكون قد اقتربت خطوة من الانسان .. لقد رأيت بعينى رأسى تعبيرا بشريا عن الألم فى عيون بعض الحيوانات .. أتفهم ؟... تعبير بشرى ... رأيت ذلك مرة فى عينى جاموسة ؟!

لفظ الكلمة الاخيرة بصوت خافت ، كأنه خاف أن يخدش أسماعنا . على أنه

ما كاد يلفظها حتى دهمته زوبعة من الضحك والتعليقات ٠ وانتظر حتى صمتوا فعاد يقول رافعا صوته عن ذى قبل :

ــ كانت متعبة ، بارزة العظام ، وبها جرح مستقيم فى ظهرها ٠٠٠ ويبدو انها كانت حديثة الولادة ــ فضرعها المنتفخ يشير الى ذلك ــ ولعلهم ساقوا وليدها الى المذبح فهذا يحدث كثيرا ٠٠ وكانت تسير بين رجلين ، الأول يشدها، والثانى يسوقها بعصا ويضربها ٠٠٠ ولكنها توقفت وأبت أن تسير رغم الضرب والشد والدفع وصيحات الغضب التى راح يطلقها الرجلان ٠٠٠ وحين اشتد عليها النكير ، أخذت تحرك عنقها يمنة ويسرة وهى تزفر ، وقد ترقرق فى عينيها تعبير حقيقى ، تعبير بشرى ٠٠٠ كان مزيجا من الألم واليأس والحزن والملل ٠٠٠ تصور كل هذا يبدو فى عينى جاموسة فى لحظة ألم !!

عاد الرجال الى الضحك والصخب مرة أخرى ، وتخلى بعضهم عن واجب المجاملة للضيف فهجموا عليه يقرصونه بسخرياتهم ٠

قطب الرجل جبينه وأخذ ينقل عينيه فى الوجوه وقد ارتسم فيهما تعبير غامض ٠٠٠ وكنت أحسب أنه لن يعود الى الكلام بعدما حدث ولكنى رأيته ينظر الى وعلى فمه ابتسامة هزيلة ثم شرع يخاطبنى ٠ قال دون أن تختلج نبرة صوته :

ــ انهم لا يفهمون !!٠٠ ان الناس لا يفهمون ــ وذلك ما يثير الخوف حقا ــ ان الأشياء النبيلة فى متناول أيديهم جميعا ، ولكنهم لا يتناولونها ٠٠٠ منلهم كمثل الهمجى الذى يعيش فى مدخل منجم من مناجم الذهب ، ولا يفعل أكثر من أن يبول فيه ويتخذه حظيرة لمواشيه !!

وقطع هذا الحوار نداء حاد جاء من عرض الطريق : « طحال عال » ٠ حينئذ دب النشاط فى الحاضرين وتحسس البعض بطونهم، وقام من بينهم من ينادى البائع ، وقد ألهاهم ذلك عن مناوشة الغريب والرد عليه ٠

كدس البائع الخبز ، والطحال ، وشرائح الطماطم ،وقراطيس الملح ، على مائدة صغيرة فى الوسط ، واذ تم اعداد كل شىء أعلن أحدهم بدء العشاء قائلا « تفضلوا ٠٠٠ »

وكان مثل هذا العشاء يجتذب عادة الكلاب الضالة من حولنا ، فما هى الا لحظة حتى ظهرت طلائعهم ٠٠٠ جاء أولا كلب ضخم أسود ، يتيه بقوته ، وتقدم من الآكلين بجسارة وثقة ٠ وبغتة قذفه أحدنا بحجر أصاب جنبه ٠ زمجر الكلب وكشر لنا عن أنيابه ، ولكن حجرا آخر جعله يولى الأدبار ٠٠٠ جرى مسافة ثم وقف واستدار الينا يرمقنا فى صمت ، كمخلوق يريد أن يفصح عن شىء ٠٠٠ وضحك الضيف قائلا :

ــ انه يشتمنا ٠٠٠

وقوبلت هذه الملاحظة بالفكاهة والرضا ٠

لم تكف الكلاب عن ملاحقتنا ، ولم نكف نحن عن زجرها ورجمها ٠ وكان من عادة الكلاب القوية أن تزمجر وتكشر عن أنيابها ، اذا أصابتها رمية حجر ، أما الكلاب الضعيفة ، فكانت تصرخ



وتصىء ، وتجرى مذعورة وذيلها منكسر بين رجليها الخلفيتين ·

ويبدو أن الكلاب يئست منا فى النهاية فكان أن اختفت، وان ظل بعضها رابضا على مبعدة ، يراوده الأمل دون أن يجسر على الاقتراب ···

وظللتنا لحظة صمت ، لم يكن يسمع خلالها سوى المضغ ، والتمطق ، والبلع·

ورأيت صديقنا الغريب يلتفت فجأة مناديا « تعال » وأشار الى شىء لم أتبينه فى أول الأمر ··· وحين دققت النظر رأيت كلبا ضامرا بارز العظام ···

اقترب الكلب محاذرا وهو يظلع ويجر نصفه الخلفى ـ كانت احدى ساقيه الخلفيتين مكسورة ـ بينما راح صاحبنا يستحثه ويشجعه قائلا « تعال لا تخف

... تعال ... » • وتكأ الكلب عند ورقة قذرة بها آثار طعام ، وراح يلعقها بشغف ثم التهمها ... وضحك الضيف ملاحظا :

ـ الفقر أيضا يصيب الكلاب ...

ثم عاد الى الكلب ، يناديه ويقربه ، ويلقى اليه بقطع الخبز • وأخذ الكلب يقترب حتى صار عند قدميه • وعندما هم أحدهم بطرده نهاه عن ذلك ، فكان أن تركوه وقد أثار هذا العمل شيئا من النفور فى نفوسهم ، على أن الغريب لم يبال بأحد ، وظل يوالى الكلب بالفتات وهو يضحك راضيا ، وانتهز فرصة مرور بائع الطحال مرة أخرى ، فاشترى بقرش وقدمه له قطعة قطعة ، وفى النهاية تمدد الكلب تحت الكرسى ونام مطمئنا •

وظل الرجل طوال السهرة يوليه عنايته ، فهو لا يفتأ يتلمسه بنظراته بين آن وآخر ، ويسأله ملاطفا :

ـ مبسوط ..؟

حينئذ يهز الكلب ذيله ويصىء ، معربا عن عرفانه ورضاه •

وقد أثار هذا المسلك بعض البسمات والغمزات ، وتفتحت شهية الجميع للسخرية ... همس الذى بجوارى :

ـ انهما متشابهان تماما ، كأنهما شقيقان ...

وقال آخر :

ـ الطيور على أشكالها تقع ..

ولكن مختار خاطب الضيف فى سخرية سافرة ، اذ كان يبدو أنهما صديقان ، وليس بينهما حرج • قال وهو يربت كتفه :

ـ بدأت الآن أومن بتناسخ الارواح ... لو كنت أعرف أنك ميت ، وقابلت هذا الحيوان فى الطريق ، لقلت فى نفسى ، ان روحك تقمصت هذا الكلب الناشف ...

ولم يبد على الرجل الغضب لسماع هذا الكلام ، بل شاركنا الضحك ... ثم انحنى ونظر الى الكلب قائلا :

ـ أتسمع ما يقولون ؟.. لاتهتم لهذا النباح ...

ثم رفع رأسه وقد تألقت عيناه بالغبطة وأشرقت على فمه ابتسامة صافية ، غلب صفاؤها على دمامة وجهه وقال :

ـ سيظلون دائما على أعتاب المنجم دون أن يخطر ببالهم أن يتقدموا خطوة الى الداخل ...

وشغلتنا بعد ذلك أحاديث متباينة حتى شارفت السهرة نهايتها ، وقام الضيف لينصرف •

وحين خطا أولى خطواته لاحظت أنه أعرج ... واذ رآنى أحدق فى رجله المكسورة ، ابتسم ابتسامة خفيفة ، ثم حيا ومضى يظلع ، والكلب يظلع من ورائه •

بين السيرة والقصة

بقلم الكاتب الفرنسي : أندرية موروا
ترجمة : صديق شيبوب

تناول الكاتب الفرنسي « اندريه موروا » موضوع الموازنة بين السيرة والقصة وبيان وجوه الشبه والاختلاف بينهما في المحاضرة الاخيرة من ست محاضرات ألقاها في شهر مايو سنة ١٩٢٨ بكلية « ترينيتي كوليج » بكامبريدج ثم جمعها في كتاب عنوانه «ظواهر السيرة» .

واندريه موروا اشتهر بكتابة السير والتراجم ، وله في هذا الباب العديد من المؤلفات المعروفة ، كما كتب عددا من القصص الطويلة والقصيرة .

ولا شك في ان ممارسة اندريه موروا للفنين وامتلاكه لناصيتهما يضفي على الموازنة التي عقدها أهمية خاصة . وهذه ترجمتها :

في المحاضرات السابقة كنا نطارد شبحا يهرب أمامنا ، وهو معرفة حقيقة الانسان . وتساءلنا هل يستطيع كاتب السيرة ادراك هذا الشبح والوصول اليه . وكان رأينا انه لن يتمكن من ذلك ، لأننا في كل مرة نعتقد اننا تمكنا من وضع يدنا على كتف الشبح الشفافة كان الشبح ينقسم الى شطرين ويفلت كل واحد منهما هاربا في شعاب متفرقة واتجاهات متضادة .

فمن ناحية أعمال الشخص وحياته الظاهرة فاننا نعرف انه سافر ، وانه التقى بهذه السيدة ، وانه ألقى ذلك الخطاب . لكن في الناحية الاخرى فان حياته الداخلية تفلت منا كلما اعتقدنا اننا أدركناها . انها تظهر أحيانا ظهورا ماديا في شكل مذكرات يومية ، أو رسائل ، ولكن هذه الوثائق لا تلبث ان تثير شبهاتنا لاننا نشعر ان وراء سطورها ، وفي الاعماق ، توجد أشياء أخرى كان يجب ان نعرفها ، هذه الاشياء الاخرى التي نشعر بها في أنفسنا مثل تيار الافكار المستمر في تدفقه ، والصور العابرة التي تجول في المخيلة ، والنوايا والحسرات ... كيف نستطيع معرفة هذا جميعه عن رجل مات ومضى عن هذه الدنيا وأصبح البحث عن طوايا نفسه في صبر وأناة غير ذي جدوى .

يضاف الى ما تقدم انه عندما يساعد الحظ وتكشف الصدفة عن أعمال بطلنا ونواياه معا نجد انهما متضادان لانه في حين كنا نود ان نستوفي الحكم على العمل تظهر سلامة الطوية فتنتزع كل سلاح من أيدينا ، ونستنتج من هذا انه إذ اطلعنا

على الاعمال فقط كان من العسير علينا تفسيرها • وأنتم تعلمون قصة «روسيتى» الذى أحس عند وفاة زوجته بندم شديد على سوء معاملته لها ، فأراد أن يعاقب نفسه ودفن معها فى القبر كل الأشعار التى نظمها منذ زواجهما والتى كانت فى نظره رمز جنايته • وكان «روسينى» يخشى ان يكون قد ضحى بشخص حى فى سبيل فنه فاراد أن يعاقب نفسه بازالة ذلك العمل الفنى • وتعلمون أيضا أن « روسيتى » بعد مرور شهور على ذلك لم يتمالك ان فتح المقبرة واسترد أشعاره • وهى قصة مثيرة حقا • والقاص يستطيع ان يجعل منها موضوع قصة مؤثرة وان يدلنا على الأحاسيس التى اضطربت بها نفس «روسيتى» فى تلك الفترة من حياته وأدت الى تنفيذ ماعتزمه• ولكن ماذا يفعل كاتب السيرة ؟ ان أشياء كثيرة تفوته • كيف كان يفكر روسيتى ، وما هى مشاعره عندما قام بعمله الاول (دفن المخطوط) وماذا كانت أحاسيسه عندما نفذ عزمه الاخير الرهيب (فتح القبر) • اننا لا نعرف شيئا من هذا ولن نعرفه •

يساور القلق نفس كاتب السيرة اذا شاء ان يتخيل ما اذا كانت تتضمنه وثيقة مفقودة • ومن الامثلة على ذلك اننا نعرف من شهادات بعض المعاصرين ان الشاعر شيلى عندما هجر زوجته «هاريت» وهرب مع «ميرى جودوين» كان يتهم زوجته بالخيانة، وهو عذر يبرر تصرفه • ولكنه لو لم توجد الوثائق التى دلت على ذلك فيما بعد لظهر عمل شيلى قاسيا لا مبرر له •

ففى السيرة لا يعيش الأشخاص الا بقدر ما رآهم غيرهم يحيون ، وما دونوا من اعمالهم • وكانت الفلسفة المثالية القديمة تقول : « المشاهدة دليل على الوجود » ، فلا وجود لبطل السيرة الا بالرسوم التى وضعها له الذين عرفوه أو التى وضعها لنفسه • أما الانسان الحقيقى فلن نصل الى جميع ظواهره ، فى حين أن هذا الانسان قد وجد فعلا ولكن كيف نعثر عليه ، وأى صياد ماهر يستطيع أن يطارد الشبحين فى وقت واحد • هل هو كاتب السيرة ؟ ان الجواب بالنفى أقرب الى الصواب ، ولعله القاص •

يستطيع القاص أن يتخذ موقفا يمكنه من أن يتمثل وجهتى النظر فى وقت واحد •• ونضرب على ذلك مثلا بجندى ظل عند الهجوم مختبئا فى حفرة ولم يشترك مع زملائه الا بعد أن توقفت مدفعية العدو عن اطلاق قذائفها لانتهاء الهجوم • فلو اكتشف أمر هذا الجندى أحد الضباط لاعتبره جبانا ، ولو عرف كاتب لسيرة ذلك الجندى الحادث لوصفه بانه كانت تنقصه الشجاعة • ولكن هذا الجندى فى نظر نفسه لم يكن جبانا ولا خائرالعزيمة ولعله كان يود أن يكون شجاعا ولكن جسمه لم يطاوعه واضطره أن يبقى فى مكانه • ان القاص وحده هو الذى يستطيع أن يعرف ذلك ، وأن يعرف فى الوقت نفسه حكم الضابط على الجندى ، وأن يعبر بلسان الاثنين معا • والحق أننا لا نعرف الحقيقة كاملة عن حياة الناس الا اذا وقفنا على أقوال الشاهد ووجهة نظر الانسان نفسه ، أو كما يقول « رامون فرنانديز » الا اذا « وازنا بين الشهادتين والأخطاء التى ارتكبها الشاهد والتى ارتكبها الانسان ، لأن هذا الأخير قد تخونه مشاعره فى أكثر الأحيان ، والشاهد قد تخدعه مظاهر الأعمال » • فالانسان صاحب الفعل يقول دائما : « لقد تصرف تصرفا حسنا » ويتمثل بقول شاعركم :

« حقا لقد تصرف على أحسن وجه

« لماذا لا يفعل ذلك ؟

« ولكن هل فعل ذلك ؟ هذه هى الشهادة

« ولا أريد أن أعرف غير هذا » •

يستطيع القاص أن يعرض الموضوع من مختلف وجهات النظر فيطلعنا على حكم صاحب الفعل على فعله ، وكذلك رأى الآخرين فيه . وهناك وجهة نظر ثالثة وصفها « فرنانديز » بأنها « تتألف من الرأيين السابقين وتعتبر أساسا لعملية الخلق ... لننظر عن كثب فنشاهد أنه لا وجود لاحدى شخصيات القصة الا بعد التوفيق بين حياتها الباطنية وحياتها الظاهرة للعيان لأن احداهما تؤثر فى الأخرى ، أو أنهما وجدتا معا وفاقا لما يراه القاص » .

ويظهر ضعف كاتب السيرة بالنسبة للقاص انه لا يستطيع تأليف الحياتين الباطنية والظاهرية معا . فكاتب السيرة يرى «بيل» (أحد رؤساء الوزارات البريطانية) جالسا على مقعد أمام خصومه يوجهون اليه حملات شديدة ، لعل فى بعضها تحاملا كبيرا ، وقد حنى رأسه وعلت وجهه مسحة كآبة . فيتساءل الكاتب بماذا يفكر هذا الرجل ؟ ... انه لا يدرى من أمره شيئا ... على أنه توجد فى بعض الأحيان وقائع مادية ، ولعلها تتوفر لكاتب السيرة أكثر مما تتوفر للقاص . ولكن هذه الوقائع ليست كل شيء .

انظروا الى المؤرخ الذى يدرس عصر ما قبل التاريخ ، ان لديه وقائع ومادة ضخمة . انه يجد فى جوف الأرض بلطة مصنوعة من الحجر المصقول وعصيا صغيرة فى أشكال مختلفة ، ويرى على جدران المغارة صورا مرسومة للأبقار الوحشية . ولكن وفرة هذه المخلفات المعروضة فى المتاحف تثير السأم وتبعث على الملل ، فى حين لاتفيدنا شيئا عن الانسان الأول . ومن الصعب ـ كما يقول شسترتون ـ ان نتخيل انسانا قضى حياته فى قلع الأحجار وقطعها دون أن تكون هذه الحياة نسيجا من الرغبات والشهوات والمخاوف . و « كبلينج » عندما يصور حياة القبائل فى عصر ما قبل التاريخ يطلعنا على أشياء عديدة لا وجود لها فى المتاحف .

وكذلك يستطيع كاتب السيرة أن يكون فى حوزته مائة وخمسون رسالة كتبها أحد الوزراء ، وقد يتعاظم هذا العدد حتى يبلغ الألف وخمسمائة ، وقد يكون من الخير أن تنشر هذه الرسائل لأنها تعتبر وثائق هامة ، ولكنك لن تخرج من هذا المنجم الزاخر بالمعلومات صورة حية لصاحبها لأنه يجب أن يضفى على هذه الوثائق الحياة والوجود ، لا أن نكتفى بان نعيش فيها . ويقول الفيلسوف الفرنسى «الان» ان التاريخ فارغ لا يحوى شيئا لانه مضطر الى تصديق الشهوات التى يعترف بها أصحابها ، وهكذا يتحرك فى نظام تجريدى وتفوته الحياة الواقعية . فالتاريخ يجمع مختلف أنواع البلطات ، ولكنه اذا أعوزته هذه البلطات ولم يعثر عليها قال انه لا وجود لها ، مما لم يقم عليه دليل .

وقد بين « ا.م.فورستر » فى المحاضرات التى ألقاها عليكم فى السنة الماضيه الفرق بين شخصية القصة وشخصية المترجم له فقال :

« اذا كانت احدى شخصيات القصة تطابق تمام المطابقة الملكة فيكتوريا ، فانها حينئذ الملكة فكتوريا ، والقصة أو الجزء من القصة الخاص بوصفها يتحول الى تاريخ . والتاريخ يقوم على الأسانيد . أما القصة فتستعين بالأسانيد على قدر مزاج القاص. وهذا القدر المجهول من الاستعانة يعدل تلك الأسانيد أو يحولها عن أصلها تماما .

فالمؤرخ يعالج أفعال الرجال وأخلاقهم بقدر ما يستطيع استنتاجه من تلك الافعال ، ويتناول الطباع كما يتناولها القاص ولكنه لا يستطيع معرفة وجودها الا عند ظهورها ، ولولا ان الملكة فيكتوريا لم تقل : «لم نقض وقتا طيبا» لما عرف من حولها على المائدة ان الحفل كان فى نظرها مدعاة ملل وسأم . وكان باستطاعتها ان تقطب

حاجبيها ليستنتج من حولها شعورها، وكذلك النظرات والاشارات تعتبر من الاسانيد التاريخية . ولكن هب انها ظلت هادئة لا تعبر عن رأيها بأي بادرة فمن كان في امكانه معرفته ؟ فالحياة الخفية تظل خفية كما تدل عليها صفتها ، ولا يزول خفاؤها الا اذا عبر عنها بعلامات ظاهرة فتتحول عندئذ الى فعل . ووظيفة القاص ان يكشف عن الحياة الخفية من منابعها ، وان يقول عن الملكة فيكتوريا أكثر ما يمكن معرفته . وهو اذا فعل صور لنا شخصيته ، ولكنها ليست شخصية الملكة فيكتوريا المعروفة في التاريخ » .

وهل أستطيع ان أضيف كلمة الى ما تقدم وهي انها قد لا تكون الملكة فيكتوريا المعروفة في التاريخ ولكنها أقرب شبها بالملكة فيكتوريا من شخصيتها المعروفة في التاريخ .

يقول «روز» انه «لكي تكون فكرة أصح عن عهد الثورة الفرنسية ونابوليون، وعن خطورة هذا العهد يجب ان ننصرف عن المؤرخين الى القاصين ، وان نقرأ قصة «الحرب والسلام » لتولستوي و «الأسر» لهاردي وهذا قول قريب من الحقيقة . وأقول «قريب» لأن تولستوي لم يفهم حقيقة عظمة نابوليون وانسانيته ، ولكنه عرف كيف يجعل من اسكندر ونابوليون وكوتزوف شخصيات حية ، وقد تم له ذلك لان تولستوي كان واسع الخيال صادق الرؤى ، وكان يعرف تصرفات أبطال القصة من رجال التاريخ ، ويعرف التعبيرات التي تظهر على وجوههم ، والاشارات والحركات التي يبدونها ، وقد تكون هذه الاشارات وتلك التعبيرات حقيقية تاريخية ، ولكننا قلما نستطيع معرفتها من كتب التاريخ . وأي مؤرخ يحق له ان يكتب كما كتب تولستوي واصفا زيارة نابوليون للجيش الروسي :

« قال بونابارت الصغير بصوت واضح النبرات ، وهو يحدق النظر من تحت الى فوق في عيني القيصر :

ــ يا صاحب الجلالة أستأذنكم بأن أمنح أشجع جنودكم وسام اللجيون دونور .

« وكان القيصر يصغي اليه باهتمام ويبتسم ويشير برأسه موافقا .

« وأضاف نابوليون بصوت هادئ في حين استدار بنظره الى الجنود الروس المصطفين أمامه لتأدية التحية العسكرية .

ــ الى الذي تفوق ببسالته في هذه الحرب .

« وقال اسكندر وهو يتقدم نحو الامير كوزلوفسكي قائد الكتيبة :

ــ أستأذن جلالتكم بأن أسأل رأي الكولونيل .

« وانتزع نابوليون بصعوبة قفازه من يده الصغيرة البيضاء فتمزق ورمى به فتقدم أحد ياوربه والتقطه . »

الى أن قال :

« وأدار نابوليون ظهره الى الوراء استدارة خفيفة لا تكاد تلحظ ، ومد يده الصغيرة الكثيزة كأنه يحاول ان يتناول شيئا . وفهم رجال حاشيته رغبته وتحركوا وتشاوروا وشرعوا يناول أحدهم الآخر شيئا صغيرا . وأسرع الغلام الذي رآه نقولا عند بوريس فحياه باحترام ووضع في هذه اليد الممدودة صليبا يتدلى من رباط أحمر

فتناوله نابوليون دون ان يلقى عليه نظرة ، ثم اقترب من لازاريف الذى كان يحرص على ان ينظر بعينيه الواسعتين الى امبراطوره · وتطلع نابوليون الى القيصر كأنه يريد ان يشير الى انه يفعل ما سيفعله ارضاء له · ووضع نابوليون يده التى تحمل الصليب على صدر الجندى لمسة منه تكفى لكى تجعل هذا البطل سعيدا ···»

ليس باستطاعة كاتب السيرة ان يقدم هذه الصورة الحية للامبراطور · وليس هناك أى سند أو وثيقة تتيح له أن يصفه وهو يمد يده الصغيرة الكنيزة ، وهو يتطلع الى القيصر فى تلك اللحظة ، الا اذا وجد من شاهد هــذا المــوقف وكتبه واصفا الاشارات والحركات · ولكن أحدا لم يلتفت الى تدوين مثل هذه الملاحظات فى لحظات التاريخ الخطيرة ·

تعتبر هذه الملاحظات وأمثالها غير مشجعة لكاتب السيرة ، فهل يترتب على ذلك أن يعترف بفوز القاص عليه ، أم ان عليه فى بعض المواقف أن ينتفع بتجارب القاص ويحاول استعمال أساليبه الفنية ؟ ··· وهل يتميز كاتب السيرة على القاص فى بعض المجالات ؟ هذه أسئلة أود أن أبحثها معكم بصفتى من كتاب التراجم والسير على ضوء ما ذكره القاص «فورستر» فى هذا الصدد ·

تحدث فورستر عن بناء القصة وعن الشكل الذى يجعل من القصة عملا فنيا قريبا الى الاذهان ·

ونجد من هذه الناحية ان موقف كاتب التراجم أصعب من موقف القاص الا فى بعض الحالات النادرة ، أى عندما يكتب سيرة رجل كانت حياته واضحة المعالم جلية · فهو فى هذه الحالة يجمع أكداسا لا شكل لها مؤلفة من قطع متناثرة موزعة فى حوادث متفرقة · ولكنه يجب أن ينصف الصحارى التى تفصل بينها · وفى حياة كل انسان فترات طويلة فارغة تتخلل الفترات النابضة بالحوادث · وكان «بلزاك» لا يخشى الصحارى فى قصصه · ولكن كاتب السيرة لن يجد حياة رجل تتجه الى ناحية واحدة ، وتسيطر عليها شهوة واحدة ، كما هو الحال فى بعض قصص بلزاك ·

ولذلك يكابد كاتب التراجم صعوبات أشق مما يعانيه القاص فى التأليف · ولكن لديه ما يعوضه عن ذلك · فهو يتناول من الواقع أشكالا معدة من قبل ، وليس عليه الا ان يستخدمها · وهذا مصدر قوة للفنان ، ومما يشحذ عزيمته · والفنان عادة يعانى مشقات قاسية فى ذلك النضال الذى يقوم بين المادة التى تقاوم والعقل الذى يرغب فى انتاج الروائع · كان ميكيلانجلو وغيره من كبار النحاتين فى عهد البعث يتلقون من الامراء كتلا من الرخام مختلفة الاشكال ، ويتلقون معها رغبات أولئك الامراء · وكثيرا ما خرج من تلك الاشكال الغريبة النصب الرائعة فى أوضاع خلابة لان المقاومة التى أبدتها كتل الرخام شحذت همة أولئك الفنانين فأبدعوا فى الخلق·ولعل أجمل الصور تولدت عن الصعوبات التى يتلقاها الشاعر فى نظم القصيد الاتباعى · وقد كان من سوء حظ بعض القصص ان مؤلفيها كتبوها فى حرية تامة ، وأرادوا ان يسووا «الاشخاص وفاقا لرغباتهم فجعلوا منها مخلوقات مبهمة مجردة من الحياة ، وجدت للتدليل على فكرة معينة أو لتأخذ مكانها فى بناء هندسى رسمت خطوطه من قبل · ومن هذا النوع قصة «تاييس» لأناطول فرانس ، وهى مثل يضرب للقصة التى تعالج الشئون العقلية بخطوط مرسومة بمهارة ·

وتستطيعون ان تلاحظوا اذا درستم تاريخ القصة فى بريطانيا وغيرها ان أحسن

القاصين كانوا يفرضون على أنفسهم البحث عن أشخاصهم فى الحياة الواقعية والوثائق كما يفعل كاتب التراجم تماما • فمريديث استمد الكثير من شخصيات قصصه من الواقع ، وتولستوى استعان بتاريخ أسرته فى كتابة قصة « الحرب والسلام » ، وأندريه جيد قال فى «مذكرات المزيفين» انه يفضل الاستعانة بخبر من الاخبار المتنوعة على أن يتبع الموضوع • واعتقد أن القصة المستمدة من بعض الحوادث الجارية بعد ان حولها القاص الى عمل فنى تاتى أقرب الى الواقع من القصة المبتدعة • وفى استطاعة القاص ان يحذف ما يشاء حذفه من الحوادث التى يعتمدها واستبعاد مالا يلائم موضوعه ولكن كاتب التراجم مضطر الى الخضوع للواقع بحذافيره ، وان يعنى بالعرض والتأليف ، والا انتفى عنه لقب الفنان • ولعله يستطيع ذلك بواسطة تسليط الاضواء كما يفعل الرسام ، أو بواسطة الوزن كما يفعل الشاعر •

ولننتقل الآن الى ما نسميه بالحكايات • ان خير ما يوصف به القاص انه يضطر المطالع الى انتظار البقية بشغف وتطلع • ان شهرزاد لم تنج من الموت الا لان زوجها المخيف كان يرغب فى معرفة الفصل التالى • فهل كانت شهر زاد تنجو لو انها كانت تكتب السير • وهل تؤلف السير حكاية متصلة الاجزاء مثيرة للاهتمام كالقصة ؟ هذه حكاية «ديزرايلى» ، انها شديدة الشبه بحكايات ألف ليلة وليلة ، وهى قصة لان الثقة بالنفس والشجاعة تنتصران فى النهاية • ولا تنقصها الجنية الطيبة • كانت الملكة فيكتوريا هذه الجنية ، بل انها شبيهة بقصة « الجميلة فى الغابة النائمة » مليئة بعرائس الجن ، وكن «آن ميرى» و «ليدى دوروثى نيفيل» و «ليدى شستر فيلد» ... أجل ، اعتقد ان شهر زاد كانت تستطيع ان تنجو من الموت بواسطة سيرة ديزرايلى •

وكانت شهر زاد لتنجو أيضا من الموت بسيرة «مريديث» ان حياته مثيرة كالقصص ومبنية بناء قصصيا • فالطفولة تمر فى دكان خياط ، والفشل فى الزواج الاول والحب الرومنسى الطاهر للفتاة «جانيت دوف جوردون» ، ونجاح الزواج الثانى وأخيرا صفاء الحياة •

على ان حياة شخصيات أخرى تظل باهتة ، وتمر بغير مفاجآت ، ولا تستطيع ان تستأثر باهتمام القارىء • وفى حياة شخصيات غيرها نجد حوادث مثيرة ولكنها قليلة ومتشابهة بحيث لا تصلح لقصة متناسقة • هذه شخصية السيدة «سيد ونز» ، نحكم لأول وهلة ان سيرتها مثيرة لاننا نجد فيها بعض مشاهد خارجة عن المألوف وجديرة بالوصف والتصوير • وكانت السيدة ذات نفس جميلة وطيبة • ولكن جميع السير التى كتبت لها جاءت فاترة غائمة لان حياة هذه الممثلة دارت على نمط واحد •

ولذلك يجب ان نحاذر من كتابة السير المملة • ولكن من المقرر ان هناك قصصا مملة أيضا ، وانه وجد قاصون قاموا بكتابتها •

وننتقل الى الحديث عن الاشخاص • قال «فورستر» ان هناك نوعين من الناس يجب ان نفرق بينهما وهما : الانسان الحقيقى والانسان الخيالى • والانسان الخيالى أصعب تصويرا من الحقيقى • ومن خصائصه انه يولد ، وانه يلحقه الموت • وهو لا يحتاج الا لقليل من الغذاء والنوم ، ويهتم طويلا وبغير ملل بالعلاقات بين الناس • والانسان الخيالى لا يفكر الا فى الحب ، فى حين ان الانسان الحقيقى يصرف اهتمامه بنوع خاص الى غذائه وعمله ولا يهتم بالحب الا فى ساعة أو ساعتين من يومه اذا وجد الى ذلك سبيلا •

على ان هناك نوعا ثالثا من الناس وهو انسان السيرة ، ويختلف عن الاثنين

السابقين بأنه أكثر منهما عملا واهتماما بشئون الحياة • فربما قضى الانسان أياما طوالا متكاسلا أو جادا نشيطا، وهو يلعب الجولف ويزجى الوقت فى محادثة أصدقائه، أما انسان السيرة فانه يعمل دائما يكتب الرسائل الى أصدقائه ويحاول أن يتولى مقاليد الحكم ، أو يغازل النساء ، أو يقطع صلته بهن • انه مخلوق ذو نشاط عظيم •

وتختلف طريقة انسان السيرة فى التعبير عن الانسان الخيالى وان كان يشبهه من نواح أخرى • فالانسان الخيالى يتكلم كثيرا ، أو يفكر فى شكل حوار داخلى بينه وبين نفسه • ولكننا نستطيع سماعه بفعل القاص الذى يقوم بعمل الخالق المطلع على خفايا القلوب • اما انسان السيرة فيتحدث قليلا ولا يفكر أبدا عندما يخلو الى نفسه ، ويكتب رسائل عديدة ، وكثيرا ما يدون مذكرات • وهو جدير باللوم اذا لم يفعل هذا أو ذاك ، بل يعاقب عليه لانه يصبح كأنه لم يوجد •

صحيح ان الانسان الحقيقى يكتب أيضا الرسائل ، ولكن رسائله ليست على جانب كبير من الاهمية • وفى أغلب الاحيان لا يعنى بها عناية تذكر ، ولا يؤمن بما تحويه • اما انسان السيرة فانه اذا كتب رسالة فكر كثيرا فيما يكتب ، أو على الاقل هذا ما يزعمه جميع الذين يكتبون عنه •

وتختلف معاملة الناس لانسان السيرة عن معاملتهم للانسان الحقيقى • ان انسان السيرة يعامل بقسوة أكثر من زميله • فالانسان الحقيقى يستطيع ان يناقض نفسه ، وان يحب أكثر من امرأة فى وقت واحد ، وان يبدأ حياته فوضويا ثم ينتهى محافظا ، أو عكس ذلك • والناس يغفرون له هذه الاعمال لانهم لا يلقون على حياته نظرة شاملة • ويشهدون تطوره ببطء شديد • اما حياة انسان السيرة فانها مضمومة فى ثلاثمائة صفحة ننظر فيها نظرة الناقد الفاحص ، ونصدر عليها أحكاما قاسية اذا وجدنا صاحبها يناقض نفسه • وهكذا نشتد فى الحكم على شاتوبريان ونصفه بأنه متقلب غادر لانه كان يكتب ثلاث رسائل غرام الى ثلاث نساء مختلفات فى يوم واحد •

على انه يجب ان نشير الى ان عهد الرسائل والمذكرات أخذ بالزوال لان الحياة المضطربة التى نعيشها ووسائل الاتصال السريعة قضت على تلك الأوراق التى تعتبر لحم انسان السيرة ودمه • فالاتصالات الغرامية تقضى اليوم بالتليفون • ولو وجد «بايرون» و «كارولين لامب» فى عصرنا الحديث لما بقى أثر لخصامهما • ولا يعنى بالكتابة الا رجال الدولة لانهم يحرصون على تحديد المسئوليات • ولكنهم يكتبون على الآلة الكاتبة • وهكذا نجد كاتب سيرة الرئيس الامريكى ويلسون يعمد لتأييد أقواله الى نشر صور لتقارير مكتوبة على الآلة الكاتبة • حقا ان حياة انسان السيرة أصبحت عرضة للزوال •

على اننا اذا أولينا انسان السيرة العناية اللازمة استطاع ان يعيش • انه شبيه بتلك النباتات السريعة العطب التى تحتاج الى عناية كبيرة ولكنها تعوضنا عن هذه العناية بأوراقها الفارعة وزهورها الجميلة ••• وهكذا اذا تناول حياة انسان السيرة طبيب ماهر استطاع بواسطة علاج ملائم أن يبعث فيه تلك الحياة الداخلية التى تعد من خصائص الانسان الخيالى ، ولكن دون اضرار بالحقيقة •

ونتساءل فى الختام هل نحاول ان نكتب كتابا بعنوان « بلوطرخوس أو مستقبل السيرة » •

وفي رأيي أن المستقبل لن يختلف عن الحاضر لانه لا رقي ولا تقدم في الأدب • فليس تنيسون أعظم من هوميروس ، ولا بروست أعظم من مونتيني ، أو ستراشي من بوسويل • انهم يختلفون في الخصائص الادبية فقط • والادب يسير سيرا متساويا أكثر مما يتبع خطا متصلا • وسنواجه من جديد عهود استقرار ديني واجتماعي يكتب فيها قليل من السير التي تكشف عن الحياة الداخلية ، وكثير من الثناء • ونلقى بعد ذلك عهودا يسودها الشك واليأس فتظهر فيها السير من جديد بشكل نطمئن اليه•

وأيا كان الشكل الذى تتخذه السيرة في المستقبل فانها تظل من أنواع الادب الصعبة المراس ، لأننا نطالبها بتدفق العلم ، وسحر الفن • واحساس القصة للواقعى وأكاذيب التاريخ الملفقة ببراعة • ويحتاج التوفيق بين هذا الخليط العجيب الى كثير من الحذر واللباقة • وقد قال كارليل ان السيرة التي يحسن المؤلف كتابتها نادرة كالحياة التي يحسن صاحبها استعمالها • وقد دل كارليل في قوله انه ناقد متفائل قدر ما هو رجل أخلاق متشائم • ولكن أيا كانت الصعوبات التي يلقاها كاتب السيرة فان هذا الفن جدير بأن نخصه باهتمامنا وأحاسيسنا • فعبادة الابطال قديمة وجدت مع الانسان ، وهذه العبادة تقدم للناس أمثلة رفيعة لكنها ليست مما لا يستطاع الوصول اليها ، وامثلة عجيبة ولكنها ليست مما لا يستطاع تصديقه • وهاتان الصفتان تضفيان على تلك العبادة شكلا فنيا رائعا ، وتجعلان منها عقيدة انسانية بحتة •

الست فله

متولى

الفائزة بالجائزة الأولى لنادى القصة

بقلم : غنيم محمد غنيم

« .. ودخلنا الى رئيس القلم

يا ست فلة

نسأله عن الموضوع

وقال لنا .. ان التعزيز سيشملنا
وانه كتب فى حقنا تقريرا عظيما
ولا تبقى بعد ذلك الا موافقة المدير
ولما طلعنا للمدير .. ياست فلة
سلم علينا

وقال لنا ان أعمالك مرضية
يا سيد اسكندر
وتقريراتك جيدة
وعلاوتك يا سيد اسكندر
ثلاثة جنيهات
افرحى يا ست فلة
فسوف ننتعش ونتبحبح »

قال هذا ويده تداعب شعر فلة الغزير الناعم ، ونظرته كلها الهناء . وفلة ليست زوجته فان زوجته قد فرت مع أحد الرجال منذ سنوات . لقد أحبها وقدسها ، وأحاطها بالطهر والعفاف ، ولما تزوجها كذلك أحاطها بالطهر والعفاف ، لم يتخذ منها امرأة كما يتخذ سائر الرجال ، بل ظلت قديسة . الصلة تسمو عن صلة الجسد والرباط يترفع عن أن يكون ماديا ، فكيف يتحول ذلك الاحساس العطرى الأثيرى الرفيع ، كيف يتحول بطقوس تافهة فارغة ... يتحول فى لحظة قصيرة الى نوع من التمزيق والشق والاعتصار كيف بكلمات سخيفة كاذبة يطلقون حيوانية الانسان بمخالبها وأنيابها وعرقها الشبق اللزج .

ولا يزال يقدم لزوجته صور العفاف والسمو فى كل لمسة ، وكل نظرة ، وكل حديث . واتضح ـ بعد ذلك ـ ان حبيبته ليست قديسة كما اعتقد ... وفرت مع رجل .

فلة اذن قطة صغيرة من أطفال القطط .. مرحة عابثة ، جميلة غزيرة الشعر ، صار السيد اسكندر يحدثها على النحو الفائت ، الا أنها كانت غائبة الذهن عن الموضوع ، لا تتابعه بالاهتمام المرجو .. عيناها معلقتان بصرصور يسعى فى ركن الردهة ، رفعت له أذنيها فى تحفز .. واختلج جسمها الصغير النشط ، وانفلتت من تحت كف السيد ، وهجمت على الصرصور

٠٠ تداعبه مداعبة مبدئية ٠ وثب اسكندر من الأريكة وجرى وراءها يمنعها من الصرصور ، وأعادها الى حجره يؤنبها فى تؤدة وحنان ٠

« قلنا ان الصراصير لها النفتالين

كما أن الفيران لها السم

أما اذا جعنا نحن ٠٠٠ يا ست فلة فلدينا الحليب ، ولدينا البقسماط

واذا طلبنا السمك ، نحضر السمك

واذا اشتقنا للدجاج والحمام ، فلن نتأخر ٠٠ يا ست فلة »

واستجابت فلة للحنان الذى أخذ يدره صاحبها ، فاتكأت على جانبها ، وبدأت تناوش وتلاعب ، بأسنانها الشوكية الصغيرة ، جعلت تعض كف اسكندر ، وتضربه بأرجلها الصغيرة ٠٠ التذ بذلك أيما لذة ، وهى تدفع يده برجليها الخلفيتين ٠٠ لهما قوة طفولية حنون ٠

لم يكن بالشقة غير اسكندر وقطته ٠٠ واسكندر موظف ، صوته رفيع ضعيف ، وهو متوسط الطول والنحافة ، وجهه مستدير مضغوط ، سماته مرهفة هشة ، يخفى عينيه بمنظار أخضر قاتم كأنه أسود منظار كبير مستدير ، كأنما يريد أن يمنع العالم ٠٠ أن يكفه عن نفسه ٠ واسكندر هذا منطو ٠٠ انطوائية انهزامية عن ضعف أسلحة ، ليس لديه شوكة ولا ناب ، غير ثورة جياشة فى أعماقه يشعلها ضد نفسه ، فهى تأكله كما تأكل الطبيعة صم الصخر ، تبريه وتلعقه وتؤثر كثيرا على عقله ، فهى تلعقه لعقا ، كما تلعق القطة بلسانها المبردى ٠

عواطفه كلها ممنوحة بسخاء للقطة ٠٠ مراقة عليها ، والقطة كذلك تحب صاحبها وتألفه كأنه قط ٠

كانت للسيد تهويمات تفك الرباط عن عقله ، فتتداعى اليه قصة زوجته « لم نقصر فى حقها

يا ست فلة

لكنها خانتنا ، وفرت مع عشيقها

وأنت بالطبع لا تفهمين معنى عشيقها انه لص ٠ أضرى من اللصوص ٠

ومع ذلك يحميه القانون

ويعجب الناس به كأنه فاتح منتصر

ونضيع نحن تحت الأرجل ، يا ست فلة

لأننا لسنا غزاة ، ولا منتصرين

نحن نقدم الحب ولا نقدم الدنس

وهى دنسة

انت لا تعلمين الدنس

انه بشع ٠٠ بشع يا ست فله

تريد أن تكون عبده ، مستعبدة

تجعل من جسمها قارورة للصديد

ونحن لا نريد ذلك ٠٠ لا نريده ، يا ست فله

وهكذا ترين ، أننا كنا فى واد ، وهى فى واد

وفرت دميعات من عينيه ، ووجمت القطة ، فقد أحست بأن صاحبها حزين فاستجابت لمشاعر الحزن وامتصتها واستكانت الى جواره ، وهو يمدها بأحاسيس الحزن ٠

أخـذت فله تنمو بمرور الأيـام ، بنموهـــا تغيرت كما يتغير كل كائن بنموه ، وأحس بذلك صاحبهـا .. تركت عبثها الذى لم تكن تفتر عنه ، ومرحها وتقافزهـا فى كل مكان .. أصبحت لها نظرات حالمـة لينة . لم يكد السيد اسـكندر يولج مفتاحه فى الباب حتى تكون بانتظـاره رافعـة الذيل .. تدور حول ساقيه فى التصاق قوى حميم . تتمسـح بهما تمسحا ضروريا فى دورات قصيرة ، ثم انها لم تعد تعابث بهروبهـا متى أراد أن يمسك بها .. كانت تستكين للمسـة .. وتظهر خضوعـا للمسـكة .. وتستحلى ..

أخذ اسكندر يرتاب ارتيابا داخليا مبهما لهذه التصرفات .. ارتيابا لايدرى له سـببا محددا .. أخذت تموء مواء غريبا ، يكاد يفصح ويبين فيصـير كلاما ، نظرتها كانت تنطق لكن السيد كان يصرف انتباهه ويقسر ذهنـه على ألا يبحث .

المسالة صارت مريبة ، حتى لمسته المداعبة أصبحت تضعها فى وضـع لم يكن من قبل ، فتأخذ فى مواء ضعيف متهافت وتمدد ظهرها ، وترمى بساقيها الى الخلف وتتطلع الى السيد .. وصارت تتحكك بسيقان الموائد والكراسى . . والواضح أن أسلوب الطلب لا يحتـاج الى ابانـة .. يكفى الكائن أن يريد فتتحدث جوارحه بمـا يريد حديثـا بليغا مفيدا لا يخطئه ملاحظ أبدا ، رغم هذا كان السيد يتجاهل

الا انه كان أمام الامر الواقع حينما رأى ذكور القطط تتجمع على بابـه ، وتذكور على سلمه .. ذكورا بغيضـة ضخمة الرأس ، نامية الجسم .. كان يطردها اذا جاء بلا تمهل وبلا رفق .

ولا يكاد يفتح الباب حتى يجد فـلة رابضة الى جواره ، تتمسح بسـاقه حينما يدخل ثم تحاول أن تنفلت منه الى الخارج . فيسرع الى اغلاق الباب .. ويداعبها . وهو يخفى غيظه ، فلا يجد منها غير النظرة الحائرة الســاهمة ، والتمطى والتمرغ المستسلم .. فيعمد الى الترفيه عنهـا ، وتقديم مزيد من اللبن والطعام والحلوى ، ويحـاول أن يسليها .

« آه ... لقد كبرت يا ست فله

ونحن نخاف عليك من التسلل الى الخارج

تفرست هذه النمور الرابضة

يا ست فله

وانت رقيقة مرفهة

ليس لك قبـل بوسائلها الشريرة الوحشية »

وكثيرا ما كانت تعاف الطعام والحلوى وتدور فى الحجرات تموء مواء خافتـا مرتعشـا .. حتى اذا سمعت نداء خارجيا من قط رابض ، قفزت بسرعـة الى الباب وأخذت تجيبه وهى تتمسح بخشب الباب ، وتموء مواء مرتعشـا كانها تسكبه من أعماقها رغوة ساخنة تتدفق ، وترجع الى صاحبها تستجديه وتستعطفه ، تطلب منه أن يفتح الباب.

حينئذ تشتعل نيران الغيرة فى قلب اسكندر ، وتتقلب فى داخله عاصفة متلفة هوجاء ، فيحمل هراوة ويخرج الى السلم يطرد القطط .

وكان قط عجوز ضـخم الراس ، أعور العين ، بادى الاجرام والشراسة ، هو الذى يداوم على الحضـور ويربض الى جوار الباب ، يناجى قطته ويناديها ٠

ذات يوم غافلته القطة فتسللت من بين ساقيه فى خفة ، ولم يشـعر بها الا وهى تنحدر على السلم ، يتبعهـا ذلك الذكر الضخم الأعور ، فى تحفز وتوتر وذكوره ، رافعا أذنيه ، مشرئبا برقبته ، وأعضاؤه كلها متصلبة ٠ ولم يكد الذكر يثب اليها وهو يموء مـواء متهدجا ، وينشب أنيابه فى فراء رقبتها حتى هجم عليه السيد واسـتطاع أن يستخلص فلة ويحتضنها فى صدره ، ويصعد بها ثانية ، متجاهلا جهودهـا فى الخلاص والتملص ٠

وضعهـا على حجره ، وأخذ يربت شعرها الناعم الغزير حتى هدأت ٠٠

« ثم ماذا ؟ يا ست فله

ثم ماذا ؟

هل سـتنحدرين الى العبث المتلف يا ست فله ؟

كنـا عـاقلين ومؤدبين نحيـا فى سعادة

ماذا يملك لك ذلك الخنشور الاعور ؟

ماذا عنده لك يا ست فله ؟

أهـو يقـدم لك الحليب الدافىء والبقسماط ؟

هل يملك لك النظافة والايواء ؟
انه ضائع صعلوك متشرد
ما لك وهؤلاء يا ست فله ؟
انه سفاح قاتل مشوه
مالنا نحن والسفاحين المجرمين

نحن فى حالنا يا ست فله
أنا لا أقصد شيئا
أنا أريد أن أحميك
أنت غريرة ساذجة يا ست فله
لا تعرفين ما يضرك مما ينفعك
وأنا أهديك ٠٠ أنا مجرب
جربت يا ست فله
هل تشكين فى حبى لك ؟
لماذا تغافلينني وتتسللين
يا ست فله ؟

* * *

وأصبح ذلك الذكر الخنشور غريما للسيد اسكندر ٠٠ يحمل له ما يحمله لأى غريم من الغيظ المكبوت والحقـد ٠٠ يتألم لمرآه ، ويشـعر أمامه ذلك الارتباك النفسى الذى يستشعره أمام أى غريم عدو من البشر ٠

لم يتـوان عن التردد ذلك الذكر الأعور رغم طرده المتكرر ٠٠ مواؤه على أنواعه من مناجـاة الى طلب صريح كان يتسلل الى مسمع السيد فتهب فى أعماقه عاصفة الحقد والغيرة والغضب ٠

منذ أن فرت فلة ، كان السيد يحرص على أن يحبسها فى حجرة من الحجرات حتى لا يمكنها من أن ـ تتسلل حينما يفتح الباب ٠٠ كان يسمع أظافرهـا وهى تعالج المنافذ ٠٠ تخمش الباب ، وتتعلق مخالبها أسفله ، تحاول أن تمد رجليها من تحت عقب الباب ، وتجذبه اليهـا فى محاولات يائسة وتشنج صلب ٠٠ تنشب أظافرها فى عقب الباب وتغرزها ثم تجذبها حتى لتكاد تنقلع من أصابعهـا المتصلبة ثم تأخذهـا ـ أحيانا ـ موجة جنونية من المواء فكان يضطر لاطلاقها فى كثير من الأحيان ٠

وتربص لهذا الذكر العنيد الصفيق



القــدر ٠٠٠ وخرج اليه بهراوته ذات يــوم ، لم يفر القط حين رآه ٠٠ بل تململ فى كبرياء ، ونظر الى الرجــل نظرة مغيظة محتقرة ، كهربت أوصاله ٠٠ كأنه يعلم كل شىء ٠٠ ويعانده ، يريد أن ينتصر عليــه ، وأن يدحره ويذله ، ويسلب منــه القطة العزيزة بعينه هذه القاسية ، وكبريائه وصلفه ٠٠ ونبضت شرايينــه بحنق كالنار ، واشتعلت دماؤه وصعدت الى رأسه ٠٠ لم ير الدنيــا ولم يشعر الا بانتفاض خيوط الدم فى اضطرامهــا المتمرد ، ورفع الهراوة وهــوى بهـا على رأس القط بكل قوة الغيظ والحقد والغيرة ٠

رفع القط اليه عينا مفترسة وحشية محتضرة وانقلب على الارض يموء مواء الموت ٠٠ماء مرتين بصوت مرتفع مذعور غــاية الــذعر ٠ ٠ ٠ وقام يحــاول الفرار فلم يستطع اذ انقلب مرة أخرى ٠٠ قام على سيقانه وحاول أن يمضى فتعثر تعثر السكران وهوى مرة أخرى وهو يخرج صوتا هو الى الصراخ الآدمى أقرب ٠٠ أخذ يدور على نفسه دورات وحشية مذهولة محتضرة وذيله مقوس منتفش كأنه مخنوق ٠٠ له بشاعة حية ضارية ذات صل ٠

داخل السيد الرعب الحقيقى من رؤيا الموت ، وسماع مواء القط وهو فى النزع الأخير ، ودورانه الوحشى الرهيب ، فرفع هراوته مرة ثانية ، بقوة الرعب هذه المرة ، وهشم عظام القط تهشيما .

مرت أيام بعد ذلك ، شابت فيها حركات السيد ولفتاته شائبة من الهوس ، تنزو من سلوكه نزوات الهياج وانفلات الضبط ، وأصبح مهموما لا يدرى لهمة سببا مضبوطا ، وتكاثرت عليه أطياف بغيضة لحوادث مرت وتركت فيه آثار جراح ورضوض نفسية ، وفى روحه ندوب أظفار وأنياب .. والتصق مواء القط المقتول بأجهزته الحسية ، فصار يسمعه بلا انقطاع .. كما تعلق رائحة قوية نفاذة بثوب ، لا تزول منه أبدا .. كان ذلك المواء . ولم يعد اسكندر يعبأ كثيرا بالهزة التى أصابت قطته ، لكنه كان يمنعها من الخروج باصرار وتحكم .

ذات يوم عاد .. فتح الباب ، لم يسمع حركة ولا صوتا ، وفتح جميع الابواب .. لم يجد القطة .. اضطراب السيد ، واضطربت حركاته ، وصار فى بحثه عنها يخبط الاثاث ، ويوقع ببعض الانية الى الأرض .. نظر فى كل مكان ، وكل منفذ ، ولم يجد شيئا .

استنفد البحث طاقته حتى كل ، فوقف يلتقط أنفاسه .. أصيب بالخذلان والحبوط ، فزحف الى الباب الخارجى أخذ يصعد نظره ويصوبه فى السلم .. كان الصمت له ثقل زئبقى على حواسه .. صمت ملىء بالمبهمات والألغاز والاسرار ، أخذت تتراكم على السيد اسكندر .. ومواء القط المقتول يطفو على مشاعره جميعا ،

مكث السيد غير قليل على بابه المفتوح حتى فرت دميعات من عينيه .. أخيرا تراجع كجيش مندحر منسحب خسر المعركة الفاصلة الأخيرة ، وانهزم وتراجع الى الشقة يتمتم وهو لايشعر .

« حتى انت

يا ست فله »

دخل الى حجرته لا يلوى على شىء ، وهناك وجد صورته فى مرآة الدولاب .. صار يقترب ويقترب ويتفرس فى صورته المهوشة .. ومنظاره القاتم المستدير الذى يخبىء نصف وجهه الضامر المضغوط .. اقترب حتى أحس بصورته احساسا حادا وطفق ينظر الى شبحه المتهدم المخذول .

يعجبك هذا ؟

يا سيد اسكندر

لقد فرت

فرت يا سيد اسكندر

أكنا نمنع عنها شيئا
هل أسأنا اليها فاغضبناها ؟

لماذا فرت ؟

لماذا يا سيد اسكندر ؟

أهذا يرضيك . ؟

يرضيك أن تفر

هى الأخرى ... ؟

ومضى على ذلك النحو ، يتساءل ، ويتأمل ...

ملك فى الزحمة

بقلم : فتحى محمد عبد الفتاح

الجو خانق والزحمة على أشدها.. المكان حافل بشتى انواع الشباب من مختلف الاماكن ، الناس يتوافدون فرادى وجماعات يبتسم كل منهم ابتسامة مرسومة ويتخذون أوضاعا وبوزات يتقنونها تماما بعد ان تعودوا عليها . وتسرى فى المكان همهمة وفى بعض اللحظات تنفجر ضحكة من بعض الجالسين تحس بانها ضحكة لها طابع خاص ورنين مقصود .. ويعج المكان بالوافدين وتسمع خرخشة الكراسى وهى تنتقل من مكان الى آخر فتزيد الضجة وترتفع وتحس للمكان بطابع فريد يعرفه كل من الفه واعتاد عليه .. وتقترب الساعة من التاسعة ويزداد الوافدون كثرة وعددا ويلتصق كل منهم بالآخر حتى تنفد المقاعد ولايجد الوافدون متسعا يكفيهم فيحاول كل منهم مخلصا ان يشرك زميله فى مقعده وهو مغتبط مسرور بهذا .. ربما لم يكن يعرف اسمه او مهنته فى الحياة ولكنهم قد تآلفوا وتجاوبت نفوسهم وتآلفت ارواحهم فكأنهم انداد عرف كل منهم نده منذ زمن بعيد ..

وأنا جالس فى المكان وسط الضجة والزحمة . ورغم انى آنس لهم الا أنى احس بأننى فريد ومعزول عنهم رغم انى اشاركهم جلستهم وهوايتهم ..ان المكان اصبح كتلة من اللحم البشرى ، الاجساد متلاحمة والناس ملتصق كل منهم بالآخر ، وتقترب لحظة يعج فيها الجمع بالضجيج وتطفح قلوبهم بالسعادة والامل .. آه .. وتعلو وجوه وتشرئب اعناق وترقص ابتسامات على الشفاه وتنتشر نظرات آملة وترتسم خيالات افراح فى الاعين وعقارب الساعة تزداد قربا من التاسعة مساء .. وتنصب العيون كلها عليه .. ها لقد حضر شفيق ؟! .. الكل يأخذ بوزا معينا وتلوح الايدى وتصفق والوافد يقبل متخطرا تملأ نفسه السعادة ويعمر كيانه الفرح ويقبل على الجمع السعيد مرسوما كأنه امير حضر للتو ليتوج ملكا ..

ثم يمشى بين الجمع الحاشد .. لا .. يتهادى يوزع النظرات وينثر البسمات بالعدل والحق والقسطاس المستقيم.. نعم انه عادل فلكل شخص عنده منزلة مختلفة ومكانة فريدة تبعا لمعاملاته واخلاصه وتفانيه لعمله فى هذا المجتمع الذى يعيش فيه ... كل هذه الليالى التى شاركت فيها الجمع

السعيد — وهي ليال كثيرة — كان المفروض أن اتجاوب فيها مع شفيق صاحب هذا الحشد الا انني فشلت تماما في ارضائه وكان فشله في ارضائه ابعد من فشلي أنا .. لم اعرف لماذا .. ربما كنت أفتقر الى تلك القدرة التي يتمتع بها بقية الجمع ولذا فانني اعتبر نفسي فقط السبب في فشل تلك العلاقة بيني وبين هذا المخلوق العظيم ؟ !! ....

لم أكن اعرف المكان الى ان دلني عليه صديق عزيز أكن له مزيدا من الحب والاخلاص .. دلني عليه وحكى لي عن هذا الانسان القدير الذي يبعث في روح الجلسة والجمع جوا سعيدا وسعادة خالصة ترضي الجميع فيقضي كل منهم وقته حالما مبسوطا غاية الانبساط .. علاوة على ان هدف المكان كان أملي بل وغاية ماكانت تصبو اليه نفسي وتهفو اليه روحي الشاردة.

نسيت ان اقول ان شفيق يشتغل جرسونا .. جرسون قهوة الحرية التي تحتل مكانا مرموقا في وسط العاصمة .. ولو انني وجدت في القاموس كلمة اخرى مهذبة تليق بمكانة شفيق لما ترددت لحظة واحدة في اسباغها عليه ووضعها في مقدمة اسمه ولكن لم يكن لواضعي اللغة معرفة بعلم الغيب حتى يتكهنوا بانه سيخلق في يوم من الايام نوع من الجرسونات له ذلك الطابع الفريد مثل شفيق !! والحق ان شفيق يختلف كثيرا عن بقية الجرسونات . ورغم انه يقدم الطلبات للزبائن مثل بقية زملائه الا انه مميز عليهم في كل شيء ، من الزبائن ومن صاحب المقهى نفسه .. والدليل على تمييز صاحب المقهى له انه هو الوحيد الذي حدد له ساعات محدودة يقوم فيها بعمله بعكس بقية الجرسونات الذين يبداون عملهم في الصباح ساعة افتتاح المقهى الى ان تقفل ابوابها في المساء ، أما شفيق فله ساعات عمل محدودة تبدأ من التاسعة مساء حتى الثانية بعد منتصف الليل .. يقال ان بعض الزبائن يسمونه الجرسون الفرست ويقال ان بعضهم — وهم المخلصون من جمعه — يرفض مناداته بتلك الكلمة .. والمؤكد ان شفيق نفسه يكره هذه الكلمة ويرفض رفضا باتا ان يسميه احد بكلمة «جرسون».

يقول هذا دائما لمن يخطيء ويناديه بها : « أنا مش جرسون .. ياأستاذ لولا هوايتي لفن سلطان الطرب ماكان يبقى مكاني هنا ابدا .. هنا ؟!! بقى دا كلام ؟ .. ياسيدي وشرف النبي لو بدور أنا على فلوس كنت قعدت في ورشة النجارة بتاعتنا .. بتجيب دهب .. انما وكتاب الله العظيم بس الواحد هو اللي غوى الفن والطرب من صغره .. ودا طرب على أصوله .. مزاج !! باسلام عالمزاج لما الواحد يمسك الشريط كده ويشغله بايده .. مزاج صحيح .. سيبك من الدنيا .. المزاج هو كل حاجة .. طب ايه رايك ان انا ساعات بادفع فلوس من جيبي عشان المزاج ده .. وكتاب الله بادفع من جيبي .. »

وسلطان الطرب هذا الذي يقول عنه شفيق هو الذي جاء بهذا الجمع الى المكان الذي تدفعني اليه قوة خفية وتجذبني اليه جذبا ، نعم لقد جئت كما جاء الكل أصلا لسماع معبودي

ومطرب قلبى وفؤادى المطرب العاطفى الكبير محمد سامى . فبمجرد أن دلنى صديقى عن هذا المقهى الذى افرد مكانا خاصا ولائقا لتذاع فيه اسطوانات معبودى واسطواناته فقط حتى عودت نفسى على انتهاز كل الفرص التى تتيح لى أن انعم بتلك الساعات الجميلة النادرة التى لاتعوض .. وطبعا لم يكن هناك من يقوم بهذه المهمة من بين الجرسونات الا شفيق .. بل يقال انه هو الذى أوعز الى صاحب المقهى بهذه الفكرة الجميلة النبيلة التى تخدم الفن وعشاق الفن وعلى راسهم رواد المقهى أو الجمع السعيد كما يحب هو ان يسميهم .

وعلى هذا مضى يوزع ابتساماته على الجمع حريصا كل الحرص على الايقلل هذا من ثباته واتزانه اللذين اتقنهما تمام الاتقان محاولا جهده بطريقته الخاصة أن يقع فى نفس الكل موقعا حسنا ممتازا ..

ومن الغريب انه كانت تأتى لحظات يعالج فيها الامر بطريقة اخرى عكسية عكس الابتسامات تماما عندما كنت ألمح على وجهه علائم الضجر والتبرم تجاه نفس الذين تعود هو أن يبتسم لهم فلم يكن هذا يقلل من سعادتهم بل على العكس تزيدها ثباتا واتقانا وتعطى للجلسة اهمية قصوى يتجاوب فيها الجميع وتتآلف أرواحهم فلا يلبثون أن يهيموا فى ذلك العالم السحرى الذى خلقه لهم ذلك الانسان الفريد .. أقول الحق .. لو لم يكن لشفيق وجود بين هذه الجماعة لكان للمكان وقع وصدى آخران فى نفوس الحاضرين من المؤكد انه لابد وان يكون اقل اثارة واهمية مما لوجد شفيق فيه. الجلسة أصبحت مضطربة والجميع اعصابهم مشدودة نحو شفيق والقلق باد على الوجوه ونظرات ارتشاء وجذب انتباه ورجاء تنصب عليه قد ينظر اليها احيانا وقد يجيب عليها بعينيه ولكن فى اغلب الاحيان ماكان يغض الطرف عنها ولكنها كانت تكسو جسمه وكيانه بموجات مشمة تضىء وجهه وتلمع فى عينيه ثم تنعكس على الجمع فكانها قد سقتهم خمرا فتزيد الهمهمة ويزيد القلق الممزوج بالفرح والسعادة وتبرق العيون متلهفة نحوه ضارعة سائلة وتحيط وجهه من جميع الزوايا والاركان حتى ليخيل الى أنه أصبح شيئا ضئيلا من كثرة ماأكلت منه العيون والانظار او أخاله سيضطرب ويتوه عقله ولشد ما تأخذنى دهشة عارمة عندما أراه فى لمحة خاطفة يغير من وجهته مختلقا مشكلة ما وفى لمح البصر يلتفت الى احد المقربين اليه بابتسامة او تكشيرة تذهب من حرج الموقف وتخلق جوا جديدا يحرك هو دفته ويكون المسيطر على الجو مرة اخرى فتبدا الوجوه والانظار فى مجاراته كأنها مجرورة وراءه بحبل قوى متين او تراهم وقد عجزوا عن مجاراته ـ وكثيرا مايحدث فهو حريص على مفاجآته الغامضة ـ فتنسدل الرموش على الاجفان حيرة وضياعا وقد يدارى بعضهم حيرته فى الثرثرة مع جاره ..

ومع أن هذه كانت المرة الخامسة او السادسة التى اتيح لى فيها الحضور الى المكان الا اننى لم أستطع فى المرات السابقة مجاراة الجمع والاندماج فيه اندماجا من شانه أن يجعلنى عضوا «نافعا» فى ذلك المكان الذى تتميز فيه

عادات وتقاليد خاصة ويسيطر عليه ايتكيت مميز حتى أصبح له قدسية يحترمها الجميع .. الا اننى حاولت فى تلك الليلة ان ادرب نفسى واعودها بل واروضها على أن تندمج اندماجا كليا مع هذا الجمع ومع شفيق رائده بالذات حتى أصبح عضوا فعالا فى ذلك المجتمع الجديد .. ولذا فقد صممت فى سريرتى على ان أمرسها على هذا العمل حتى ولو لم تقتنع بذلك ، حدث لى هذا الخاطر فى الوقت الذى لانت فيه قناة شفيق واعتدل أمام آلة التسجيل ليعلن بداية ليلة خالدة من ليالى الدهر .. وكان حاذقا يجيد استعمال ذلك الفن فقد خصص لكل ليلة أغنية من الاغنيات الخالدة تذاع فى تلك الليلة وكانت الليلة ليلة الثلاثاء ليلة أغنيتى المفضلة واعتقد انها ايضا كانت مفضلة لدى الجميع ..

تأكد لى ذلك عندما سمعت من بعض الجالسين حولى وهم يتناقشون فى سر عظمتها وأهميتها ... لذلك فقد عادت ابتسامات الارتشاء ترتسم على الشفاة ونظرات الاستجداء تملأ الأعين وشفيق متفاعل فى بعض الاحيان ومجيب بايماءة بسيطة فى أحيان أخرى والكل تنساب خيالاتهم مع أمل سماع تلك الأغنية المحبوبة .. وألهب خيالهم أكثر تلك البسمة التى أجاد شفيق صنعها على شفتيه فكادت القلوب أن تقفز من الصدور وكادت الأعين أن تخرج من محاجرها ، وتمايلت الرءوس فسيطر على القاعة رضا وشملها سكون تام .. وفى تلك اللحظة وبسرعة خاطفة وضع شفيق شريطا على آلة التسجيل وبأسرع مما يتصور المرء ترك مكانه من أمام الآلة وغادره بعيدا وعلى وجهه أيضا تعبير أجاده وأتقنه لكثرة ما تعود عليه كان يميزه تلك البسمة المعتذرة المملوءة بايفاء الوعد فى الوصلة التالية ... ولكن كان أهم منها تلك الرقصة التى كانت ملحوظة تماما فى عينيه والتى أدهشتنى وأدخلت فى قلبى الرعب فى أول ليلة حضرت فيها الى المكان وأيقنت تماما انها كانت تغمر بدنه كله بسعادة طاغية .. سعادة لا نهاية لها .. سعادة لم أستطع أن أفسر لها سببا الا عندما تأكدت أنه أدار شريطا غير ذلك الذى كان يرجوه الجميع ويتهافتون عليه .

وهكذا فهو دائما يعد ثم يتدلل ويمعن فى الدلال ويصطاد نقطة الضعف فى زبائنه ثم يسوقهم وراءه فيصبحون طوع بنانه ... ولذا لم يضجرهم هذا كثيرا فقد تعودوا عليه ثم انه كانت كل اغانى مطربهم ومعبودهم مفضلة لديهم .. ثم ألم يعدهم بأنهم سينالون حتما كل ما تهفو اليه قلوبهم وأرواحهم فى الوصلة القادمة ؟ .. اذن لم الضجر والقلق والليل طويل والأنس مقبل وهذه الليلة ستكون ـ ككل ليلة ـ ليلة أنس وانسجام ؟ .. ولم ينس أن يغادر خارج المقهى بعض اللحظات ليكمل اجادة خطة تمرن عليها تماما وليترك الحالمين ليحلموا وليسمعوا ويمتصوا من الرحيق ويشربوا كئوسا مترعات من خمر مناهم .

وثقلت الرءوس واهتزت وانسدلت الرموش على الأجفان وانحنت الأجساد بعضها الى الوراء والبعض الى الأمام وسيطر على المكان سكون الليل وتاهت العقول وغابت فى عالم آخر صنعوه لأنفسهم وبحركة أصبحت مألوفة تحركت الأيدى ـ كل الأيدى ـ بدون أن تشعر ، تحركت وتسللت الى الجيوب ولمت لفائف التبغ وتقابلت مع

الشفاه لتعيش معها في قبلة طـويلة ليس لها مدى ولا نهاية طالما مد الله في عمر الساحر وطالما كانت هـذه الأنغام تملأ المكان ويفوح أريجها ليعطر هواء المقهى .

أما صاحبنا فقد تريث بعض الوقت خارج المقهى ليجمع كل قواه في تلك المرحلة النهائية والتي تعتبر أهم مرحلة في خطته .. ثم عاد تملأ فمه ابتسامة يعرفها كل فرد في جماعته وبحـركة مألوفة والألحان منسابة كهـدير الماء جاوبته كل الشفاه المتلاحمة والمتراصة أمامه .. جاوبته ببسمات رضا وصفاء وود واخلاص ، وتجاوب معه كل عضو وأودوا أجهم تماما عندما عبق هـواء المقهى بنفثات الشيشة ولفائف التبغ .. وتقارعت زجاجات الغازوزة تحدث صوتا ودويا يرنان وسـط سـكون الليل ويحدثان مع نغمـات الموسيقى نغمة جديدة يعرفها كل أعضاء الجمع السعيد ويعرفها شفيق نفسه فتعكس على وجهه لمحات مضيئة يحاول جهـده اخفاءها بطريقته الخاصة والتى كانت تقتلنى من الغيظ والحقد .. ورغم ذلك فلم تستطع تلك اللمحات المضيئة على وجهـه أن تمنعنى من أن أتشبث بما استقر عليه رأيي في تلك الليلة من أن أكون عضوا «فعالا» في هذه الجماعة .. عضو يرضى عنه شفيق عندما يتهادى وسط الجمع ينثر بسماته لكل الاعضاء الى أن يقترب منى فأحس بوخزات ضمير تؤلمنى عندما يمر بى فلا أحظى بابتسامته التى يخيل الى انها تسكب النور والامل فى قلوب رواد المقهى فأحس ساعتها بأن المطرب لن يكون له هـذه القـدرة على امتاع المستمعين ما لم تكن هناك تلك البسمة التى يهديها شفيق لجمهوره ، والح على الخاطر مرات أخرى ومرات فى الوقت الذى بدأ فيه شفيق يفى بوعده ويذيع الأغنية التى كان يتلهف عليها الجميع ويشتاقون لسماعها .

ووجـدت عقلى يلف ويدور وقلبى ينسـاب مع خيـالات حالمة لذيذة من السعادة والاستمتاع بالمزاج الذى يعيش من أجله أفـراد الجماعة .. وأساريرى تنبسط رويدا رويدا عندما بدأت يدى تتحرك لا شـعوريا وتندس فى جيبى لتخرج سجائرى البلمونت فأخرج منهـا سـيجارة أناولها له ولسـانى يتحرك ليخرج نغما لم أشعر بمثل حلاوته من قبل وينادى بأحلى صوت : « شفيق .. مساء الخير .. »

فى تلك اللحظة لم أشعر بالتعبير الذى اكتسى به وجهـه والذى كان ممـزوجا بخليط من عجب المفاجأة مع فرحة طاغية حاول أن يخبئها ولكن لم يتمكن من ذلك .. نعم لم أشعر بهذه التعبيرات التى اكتسى بها وجهه ولم أشعر به وهـو ــ ولأول مرة ــ يدنو منى منحنيا انحناءة كبيرة لم أتعودها من قبل ــ حتى مع المفضلين من جمعه ــ وفمه يهدر بكلمات شـكر يخالطها نوع من الاحترام أقرب الى الخنوع والنفاق .. لم أشعر بهـذا أو ذاك فقد كان يسيطر على شعور جديد بالراحة والطمأنينة لأننى أحسست فى هذه الليلة ــ ولأول مرة أيضا ــ بأننى قد أصبحت عضوا جديدا فى الجمع السعيد .. عضو يرضى عنـه شـفيق تماما، وزاد الاحساس مرة أخرى وتمكن من نفسى حتى شعرت بنوع من الخيلاء يجرى مجـرى الدم فى عروقى عنـدما كنت واقفا أمامه فى آخر السهرة وهو ينحنى أمامى انحناءة لم أره يتكرم بمثلها

على اى عضو من الاعضاء فى اللحظة التى كنت أمد فيها يدى اليه بقطعة فضية من قيمة نصف الريال وعلى شفتى تضىء ابتسامة مرسومة يعرفها كل فرد من أفراد الجمع ثم أحرك راسى بايماءة بسيطة غير منتظر لأعرف باقى الحساب وحال لسانى يقول : « خلاص ٠٠ خلاص يا شفيق سعيدة»٠ ساعتها لم أنتظر لأرى ابتسامته التى أصبحت أميزها تماما لانها ـ ورغم الحاحى وعملى المستحيل للحصول عليهاـ ما زالت تدخل فى قلبى رعبا هائلا لم استطع حتى الآن أن أتخلص منه رغم أننى أصبحت من الاعضاء الدائمين فى الجمع السعيد ، ذلك الجمع الذى يقول عنه شفيق انه أضاع فيه مستقبله من أجل عيون الفن ورواد الفن الأحباب٠٠

ودارت الايام دورتها العادية وأنا أقتطع كل ليلة جزءا كبيرا من مرتبى الضئيل أهديه قربانا للفن النبيل ممثلا فى شخصية شفيق ، ولم يكن فى مقدورى أن أتبين فى غمرة ذلك هل أنا راض أم متراض ٠٠ فقط عشت فى دوامة الجو الذى هياه هذا المخلوق لأعوانه ٠

شىء واحد روعنى وجعلنى أقف مشدوها بلا حراك لا أعرف ماذا حدث وما الذى كان يحدث ٠٠ ذلك اننى عندما عدت من القرية بعد ان أمضيت فيها أجازتى الصيفية ألفيت جوا جديدا صدمنى من أول وهلة ٠٠ الجمع السعيد ما زال حيا يعيش ويتنفس ولكن بلا شفيق ؟!! .

وعندما خبرت أنه قابع فى السجن لأن صاحب المقهى اتهمه بابتزاز نقود الزبائن « بطريقة جشعة وشكل غير معقول » ؟!! ولفق له تهمة دخوله السجن ٠٠ ساعتها فقط شعرت بأننى ارتحت وارتاحت نفسى من هذا الرعب الذى صاحبنى فى أول ليلة رأيت فيها شفيق والذى اتضح أنه ما زال كائنا فى نفسى وان خفى فى غمرات اندماجى اللاشعورى فى الجمع٠٠ لحظتها ارتحت فعلا وامتلأ جسدى كله بالتشفى الحاقد الى ٠٠ لا لا لا ٠٠ ليس الى شفيق ٠٠ نعم ليس الى ذلك الماهر الذى آن له أن يقع ٠٠ ولكن وجدت ان هذا التشفى يتجه كلية وفى دفعة واحدة الى ذلك الجمع « الذى لم يعد سعيدا بعد » ٠٠

وعندما كنت أخطو خطواتى عائدا من حيث أتيت الى غير رجعة كان يخيل الى ان لكل شىء عذرا ٠٠٠ ولكل جريمة مشهيات ٠٠ وان ليس رزق الهبل على المجانين فقط ٠٠ وأن ليس هناك قضية اسمها : « أنا فعلت لأننى تشجعت»٠٠ لم يخيل الى ذلك فقط بل خيل الى أن هناك سؤالا ساذجا يدور فى خاطرى وان كنت ـ حتما ـ لا أستطيع أن أسأله علنا لأنه سؤال ساذج فعلا ٠٠ هذا السؤال مؤداه : لماذا يذهب الناس الى السجون ؟!! » ٠

من الأدب الألماني

توبياس مندرنيكل . لتوماس مان

ترجمة : إيهاب الأزهري

شارع « جراى » واحد من تلك الطرقات التى تنحدر انحدارا كبيرا من منطقة الميناء الى وسط المدينة ، فى منتصف ذلك الشارع والى اليمين يقع المنزل رقم ٤٧ . . وهو منزل ضيق قذر البناء ، لايختلف عما يجاوره من المنازل فى شىء .

فى الطابق الارضى من المنزل يقع حانوت لبيع الشمع .. منه تستطيع أيضا شراء (الشباشب) وزيت الخروع فاذا ماعبرت المدخل خلال فناء المنزل الملىء بالقطط صاعدا سلما قذرا تزكم رائحته الانوف فانك تصل الى الطوابق العليا .

فى الطابق الاول الى اليسار يسكن صانع خزانات خشبية ، والى اليمين تقطن قابلة .

فى الطابق الثانى الى اليسار يسكن اسكافى والى يمينه تسكن سيدة ما أن تسمع وقع أقدام على السلم حتى تنطلق فى الغناء بصوت مرتفع ، الناحية اليسرى من الطابق الثالث لايقطنها أحد . . أما يمناه ففيها رجل يدعى «مندرنيكل» — توبياس مندرنيكل .

تدور حول هذا الرجل قصة سأرويها الآن لانها مليئة بالمثيرات والمفزعات بدرجة غير عادية .

كان مظهر مندرنيكل الخارجى غريبا ملفتا للانظار ومثيرا للضحك عندما كان مندرنيكل يخرج للنزهة فانك ترى هيكله النحيل الهزيل يتحرك مرتكزا على عصاه وقد اتشح بالسواد من رأسه حتى أخمص قدميه .

كان يرتدى قبعة عالية رثة قديمة الطراز ذات حافة مقوسة ، وسترة تلمع من قدم العهد بها .. أما سرواله الرث ذو الاطراف الممزقة فانه قصير لدرجة أنك تستطيع أن ترى منه الجوانب المطاطية للحذاء الطويل الذى يرتديه .

ولكن بالرغم من قدم ملابس مندرنيكل فقد كانت منظفة تنظيفا جيدا ، ومعنى بها عناية تامة .

وكانت رقبته النحيلة تبدو أكثر طولا لانها تخرج من ياقة السترة المنخفضة الملتوية الى أسفل .. وكان شعره الذى أصبح رماديا ممشطا وقد ألصق على صدغيه ، وكانت حافة قبعته العريضة تظلل وجها شاحبا حليقا ، غارت وجنتاه وقد أحاط الاحمرار بعينيه اللتين تتجه نظراتهما عادة الى الارض .. ومن جانبى أنفه الذابل تمتد تجعيدتان عميقتان شرستان الى جانبى فمه .

لم يكن مندرنيكل يغادر منزله الا فى

القليل النادر .. وكان له عذره الوجيه فى ذلك فانه كان كلما ظهر فى الشارع تجمعت خلفه مجموعة من الاطفال وراحوا يتتبعونه وهم يضحكون ويسخرون مغنين صائحين .

ـ هو .. هو .. توبياس !

وتمتد أيديهم تشد أذيال سترته وهم يواصلون صياحهم وضحكهم الساخر ، بينما يطل الناس من أبوابهم ضاحكين ، ولم يكن توبياس مندرنيكل يبدى أدنى مقاومة بل كان يتلفت حوله فى ارتباك وخجل وقد برز رأسه من بين كتفيه المرتفعتين .. وكان يستمر فى سيره هكذا كما لو كان رجلا يسرع الخطى مهرولا تحت وابل من المطر المنهمر بدون مظلة .

وبالرغم من كل هذا فلم يكن يفوته أن ينحنى فى أدب وتواضع لكل من يمر بهم .

ولم تكن طريقة سيره هذه لتتغير حتى عندما يتوقف الاطفال عن متابعته ويصل الى مكان بعيد عن منزله حيث لايعرفه أو حتى يكاد يلحظه أحد .

كان يواصل هرولته وخطواته السريعة محنى الهامة مطاطئ الرأس كأنما تتسلط عليه آلاف من العيون الساخرة الهازئة .. فاذا ماتصادف ورفع بصره الخجول المرتبك عن الارض فانك تستطيع أن تلاحظ شيئا غريبا .. تستطيع أن تلاحظ أنه لايستطيع أن يركز نظراته على شىء أو شخص معين لفترة من الزمن قد يبدو أن ماسأقوله الآن غريبا ولكن مندرنيكل كان يبدو عليه أنه فقد ذلك الاحساس الطبيعى بالاهمية ، هذا الاحساس الذى يتطلع به الانسان العادى الى ماحوله من مظاهر الحياة .

كان يبدو كأنما يقيس نفسه بكل مظهر من مظاهر الحياة حوله وعندما يجد انه أقل منها يرتد نظره عنها فى الحال ويتجه الى الارض منهاراً أمام الرجال وامام الاشياء .

ماذا من أمر هذا الرجل الذى يزيد حظه من الوحدة والشقاء عن غيره من الأناس العاديين .

تدل ملابسه على أنه من الطبقة المتوسطة ، ولكنه كان ياتى بحركة بطيئة بيده تدل على انه لم يكن من عامة الناس الذين يعيش بينهم ، كانت يده تمر بذقنه فى حركة أرستقراطية ، ولكن كيف لعب به القدر حتى أصبح على ماهو عليه الآن ؟

الله وحده هو الذى يعلم ، كان وجهه يبدو كما لو كانت الحياة قد صنعته فى قسوة وهى تقهقه فى سخرية واحتقار منه ، أو قد يكون الامر متعلقا بصدمة قاسية وجهتها اليه الحياة ، لعل السبب الوحيد فيما هو فيه الآن هو انه لم يكن يستطيع مواجهة الحياة ، فان التضاؤل الاليم والوضاعة الواضحة فى تكوينه توحى بأن الطبيعة قد حرمته ذلك القدر اللازم من القوة والاتزان والتماسك التى يحتاج اليها الانسان لكى يسير فى حياته مرفوع الراس .

بعد أن يقوم توبياس بنزهته فى المدينة كان يعود الى شارع جراى حيث يستقبله الاطفال بغوغائهم وصياحهم المرتفع ، يدخل المنزل ويصعد السلم القذر الى غرفته العارية التى لم يكن بها ما يستحق أن يقال انه أثاث غير دولاب

أثرى ذى أدراج من طراز « امبـــاير » بمقابض نحاسية ، انه قطعــة تتمتع بقسط كبير من القيمة الفنية والجمــال والفخامة

وكان بغرفة توبياس نافذة تطل على منظر مقبض ، فان جدار المنزل المجاور كان يقطع اى امل فى ان ترى من خلالها النافذة التى وضع توبياس أصيص زهور على حافتها ، ولكنه خال من أى نبــات الا من الطمى الذى يملؤه ٠

كان توبياس مندرنيكل يذهب الى هذا الاصيص أحيانا ويشم الطمى !

بجانب هذه الغرفة توجد غرفة النوم وكان توبياس عندما يدخلها يلقى بقبعته وعصاه على المنضدة ثم يجلس على الاريكة المتربة ذات الكسوة الخضراء ويعتمد ذقنه على يده ويظل يحملق فى الارض رافعا حاجبيه طيلة الوقت كأنما ليس له عمل آخر غير تلك الجلسة وهذه الحملقة ٠

توبياس مندرنيكل من الشخصيات التى يصعب الحكم عليها ، ولكن الحادثة التالية تستطيع أن تلقى بعض الضــوء على شخصيته ٠

خرج هذا الرجل الغريب من منزله يوما فانقض عليه فى الحال جماعة من الاطفال تتبعوه كالمعتـــاد بضــحكهم وصياحهم وسخريتهم ٠٠وفى تلك الاثناء تعثر احدهم ـ وهو صبى فى العاشرة من عمره ـ فى قدم صبى آخر وسقط على الارض بشدة وارتطم وجهه بحافة الطوار حتى أن الدم تفجـر من انفه وجبهته واغرق وجهه ، فارتمى الصبى فى مكانه واخذ يبكى .

وهنا توقف توبياس فى الحال ٠ ثم استدار متجها الى الصبى وبدأ يواسيه فى صوت هادىء يختلج بالعاطفة :

ـ ايها الطفل المسكين ٠٠ هل جرحت نفسك ؟ انك تنزف ، انظر كيف يسيل الدم على وجهك من الجرح فى جبهتـــك نعم ٠٠ نعم ٠٠ انك تبدو بائسا حقا ٠٠ انك تبكى لان الجرح يؤلمك ألما شديدا ، اننى أرثى لك ٠٠ انك مسئول عما حدث لك طبعا فقد فعلته أنت لنفسك ولــكنى سأربط منديلا حول راسك .. هاأنذا قد فعلت ، هيا ، هيا ٠٠ والآن تماسك وانهض من وقفتك هذه ، هيا ، هيا ٠٠ هيا ياصغيرى العزيز ٠

فى أثناء حديث توبياس مع الصبى كان قد ضمد جراحه .. ربط منديله حــول الجرح ، وســـاعد الصبى فى النهوض على قدميه ثم ذهب ، ولــكنه بدا كما لو كان انسانا آخر فقد انتعشت قامته وقويت خطواته فى اعتـــداد ، واتسع صدره وهو يسحب من الهواء حوله انفاسا عميقة ٠٠وبدت عيناه أكثر اتساعا واكثر لمعانا ٠

واتخذ طريقه مواجها الناس والاشياء فى ثقة واعتداد ، بينما تعبير عميق عن السرور والسعادة قد تملكه وظهر جليا على وجهه فقد كانت الابتسامة العميقة على جانبى فمه تبدو كأنها تؤلمه من شدة انفعالها وعمقها ٠

وبعد هذه الحادثة ـ ولبعض الوقت ـ قلل سكان شارع جراى من سخريتهم منه ، ولكنهم بمرور الوقت ، نســوا تصرفه هذا المثير ٠٠ وعادت ـ مرة أخرى ـ

صيحاتهم القاسية تتردد من الخناجر القوية لعشرات الاطفال تتبع الرجل المحنى الضعيف : ـ هو ٠٠ هو ٠٠ توبياس ٠

***

فى الحادية عشر من صباح يوممشرق الشمس غادر توبياس مندرنيكل مسكنه متخذا طريقه عبر المدينة حتى وصل الى متنزة ليرشنبرج ، حيث يقضى أغنياء المدينة وأفراد مجتمعها الراقى عصر كل يوم فى النزهة والسير على الاقدام ٠ فى ذلك اليوم كان الجو صحوا جميلا جدا لدرجة انه قبل حلول الظهر كنت ترى بعض العربات وبعض المشاة يستمتعون بهذا الجو بالتنزه فى الحدائق ٠

عند الشارع الرئيسى تحت احدى الشجرات وقف رجل يمسك بطرف رباط تنتهى الناحية الاخرى منه بكلب صغير من كلاب الصيد ... انه يعرضه للبيع كان الكلب صغير الحجم ، تبدو عليه القوة والعضلات ، فى حوالى الشهر الرابع من عمره أسود الاذنين ، تحيط بعينيه دائرتان سوداوان ٠

على بعد عشر خطوات لاحظ توبياس مندرنيكل ما يحدث ، فوقف دون حراك يفكر وقد أخذ يمرر يده على ذقنه ٠٠ وراح ينظر الى الرجل ويراقب الكلب الذى أخذ يحرك ذيله فى تيقظ ونشاط٠

تقدم توبياس بضع خطوات ثم دار حول الشجرة عدة مرات وهو يضغط بطرف عصاه على شفتيه ٠٠ وأخيرا تقدم من الرجل ونظراته مركزة على الكلب٠ وتحدث فى صوتخافت ونبرات سريعة: كم تطلب ثمنا للكلب ؟

فأجاب الرجل :ـ عشر ماركات

وهنا التزم توبياس الصمت بعض الوقت ثمقال فى تردد:ـ عشر ماركات!!

فأجاب الرجل :ـ نعم

أخرج توبياس من جيبه حافظة جلدية سوداء اللون ، وأخرج منها ورقة من فئة الخمس ماركات وأخرى فئة الماركات الثلاث وثالثة فئة المارکتين ، وأعطاها للرجل بسرعة ثم امسك برباط الكلب٠٠ وضحك بضعة أشخاص ممن كانوا يرقبون الصفقة وهم يرونه وهو ينظر حوله نظرة سريعة خائفة ثم يجذب الحيوان الذى يعوى محتجا وابتعد عن المكان وقد انحنى كتفاه ٠

وظل الكلب يقاوم طيلة الطريق وهو يمد قدميه الاماميتين ويدفع بهما الارض ناظرا الى وجه سيده الجديد بطريقة يستدر بها عطفه ٠ ولكنتوبياس استمر يجذبه ـ دون ان يتكلم ـ يجذبه بقوة حتى نجح فى ان يعبر به المدينة ٠

وعندما ظهر توبياس فى شارع جراى وهو يجر الكلب قامت مظاهرة منصبيان الشارع الاشقياء ، فرفع توبياس الكلب بين ذراعيه بينما راح الصبية يرقصون حوله ، وهم يشدون سترته ويصيحون ساخرين منه ٠

وصعد توبياس السلم حاملا الكلب حتى وصل الى غرفته الخاصة ، فوضعه على الارض وهو لايزال يعوى ٠ انحنى توبياس على الكلب وأخذ يربت عليه فى رقة وعطف وهو يحدثه بقوله :

ـ كفى ، كفى، أيها الرجل الصغير٠٠ لا حاجة بك الى أن تخاف منى ٠٠

لا داعي مطلقا الى الخوف مني ٠

واخرج صحنا من اللـحم المطبوخ والبطـاطس من أحد الادراج ، والقى ببعضه الى الكلب ٠٠ عنـدئذ توقف الكلب عن الاحتجاج وأقبل على الطعام يأكله بشهية مسموعة ، وهو يهز ذيله ٠

قال توبياس :ــ سوف أدعوك «أوسو» هل تفهمني ؟ من السهل عليك أن تتذكر هذا الاسم ٠

ثم أشـار توبياس الى الارض أمامه وقال في لهجة آمرة :ــ أوسو ! فتحرك الكلب ٠٠ لعله كان مدفوعا بالامل في الحصول على مزيد من الطعام ٠٠ تحرك مقتربا من توبياس الذي مال على الكلب وربت على ظهره في حنو وقال :

ــ أحسنت أيهـا الكلب الجميل ٠٠ نعم ، هكذا ٠٠ أيها الكلب الجميل ٠

وتراجع توبيـاس خطوات الى الخلف ثم أشـار مرة أخرى الى الارض أمامه وقال آمرا :ــ أوسو !

وقفز الكلب نحوه في سرعة ونشاط، وهو يهز ذيله ، وبدأ يلعق حذاء سيده واخـذ توبيـاس يكرر تلك الحركة في حماس لايفتر اثنتي عشرة ، أو اربع عشرة مرة ، حتى تعب الكلب وتلمس الراحة لكي يهضم الطعام الذي تناوله ٠٠ فاستلقى على الارض ، واقعى هناك متمددا بتلك الطريقة الجميلة التي يتمدد بها كلاب الصيد ، مادا ساقيه الاماميتين الطويلتين القويتين امام جسمه، الواحدة بالقرب من الاخرى ٠ وقال توبياس :

ــ مرة أخرى ٠٠ هيا يا أوسو ٠

ولكن أوسو أدار رأسه جانبا ، وظل قابعا حيث هو ٠

ــ أوسو

ارتفع صوت توبيـاس ووضحت في نبراته تلك الدكتاتورية التي كان يأمر بها الكلب ٠

ــ يجب أن تأتي الى هنا ٠٠ حتى ولو كنت متعبا !

ولكن أوسو أسند رأسه على مخلبيه ولم يأت على الاطلاق

ــ استمع الي ٠

قال توبياس وقد أصبح صوته الآن منخفضا مليئا بالتهديد والوعيد :

ــ الافضل لك أن تطيعني والا عرفت ما أفعل عندما أغضب ٠

ولكن الكلب لم يحرك حتى ولا ذيله٠

عندئذ تملكت مندرنيكل حالة مجنونة مبالغ فيها من الغضب ، فأمسك بعصاه السـوداء ، ورفع أوسو بيده من أعلى رقبتـه ٠ وفي حمى من الغضب هوى بعصاه ضربا على الحيوان الذي يعوي ٠٠ وهو يكرر في صوت مخيف كالفحيح :

ــ ماذا ؟ انك لا تطيعني ؟ أتجرؤ على عدم اطاعتي ؟

وأخيرا ألقى بالعصـا بعيدا ووضع الحيوان الذي يعوي على الارض ٠٠٠ ثم بدأ يذرع الغرفة جيئـة وذهابا وقد تشـابكت يداه وراء ظهره وصدره يعلو ويهبط ، وهو يلقي ــ بين الحين والآخر ــ نظرة متعالية مليئة بالغضب على الكلب٠

وبعد أن مرت فترة على هذه الحالة ·· توقف توبيـــاس أمام الكلب الذى كان راقدا على ظهره محركا ساقيه الاماميتين فى استعطاف ·

وضـــع توبياس مندرنيكل يديه على صدره متقاطعتين ، وتحدث فى جفـــاف عنـــدما كان يقف أمام فرقة من جيشه لم يبتل بلاء حسنا فى أحدى المعارك ·

ــ هل أستطيع أن أسألك عن رأيك فى تصرفاتك هذه ؟

وما كاد الكلب يحس بهذا التنازل من سيده ويسعده أنه يوجه اليه الحديث حتى رحف مقتربا منه والتصق بقـــدم صاحبة رافعا راسه اليه وعيناه تلمعان.

وظل توبياس برهة يحدق فى المخلوق المسكين باحتقـــار صامت · ثم عندما أحس بحرارة جسمه الملاصق لقدمه ·· مال وحمل أوسو بين ذراعيه · وقال له:

ــ حسنا ، سوف أشفق عليك

ولكن عندما بدأ الحيوان الطيب يلعق وجه سيده ، ارتجف صوت توبياس بمشـــاعر حزينة وضم الكلب فى حنو وشوق الى صـــدره ، وامتلأت عيناه بالدموع ، ولم يستطع أن يكمل حديثه· وأخيرا قال فى صوت متهدج :ــ

ــ أرجو أن تفهمنى ·· انك الوحيد الذى ·· ليس لدى الا ‥ أنك بالنسبة لى الوحيد الذى ··

وحمـــل توبياس الكلب الى الاريكة فأرقده عليهـــا بعناية شديدة حتى نام الكلب ·· وجلس توبياس بجـواره ، وقد اعتمـــد ذقته بيده وأخذ ينظر اليه نظرات تنطق بالحنو · دون أن ينطق ·

❋ ❋ ❋

اصبح توبياس مندرنيكل يغادر غرفته الآن أقل من ذى قبل ·· فلم يكن لديه أى رغبـــة فى أن يراه أحد فى صحبه أوسو ··

ووهب كلّ وقته للكلب، منذ الصباح حتى المساء ·· يطعمه وينظف له عينيه ويعلمه اطاعة الاوامر ، ويوبخه، ويحدثه كما لو كان انسانا ·

ولكن أوسو للاسف لم يكن ينصرف دائمـــا بالطريقة التى ترضى سيده ·· وكان عنـــدما يرقد بجوار توبياس على الاريكة تبدو عليه مظاهر الخمول والكسل بســـبب حاجته الى التريض والهواء الطلق ·· ويحملق فى سيده بعيون كلها حزن · وكان توبياس يســـعد بهذا ، فيجلس هادئا راضيا وهـــو يربت فى حنان ورقة على ظهر أوسو وهو يقول له:

ــ أيهـا الزميل المسكين ، انك تنظر الى بحزن شـــديد ! نعم · نعم ان الحياة حزينة ·· ســـوف تتكشف لك هـــذه الحقيقة قبلّ أن تكبر كثـــيرا ولكن طبيعة أوسو كانت تتغلب عليه أحيانا ، فينقلب الى وحش ، مدفوعا بحاجته الى الانطلاق والجرى وترويض طبيعته للصـــيد ·· فكان يندفع عدوا هنا وهناك فى الغرفة وهـــو يعبث بنجف ســـيده ويقفز على المقاعد أو يستدير بجسده على الارض مرات ومرات ليصرف طاقته الزائدة ·

وكان توبياس عندئذ يتابع نشـــاط أوسو وحركاته من بعيد ويراقبه ولكنه

غير راض عن هـــذه التصرفات ، ولكنه لايستطيع أن يفعل شيئا بغيرها تكسو وجهه ابتسامة صفراء كارهه ٠٠ وأخيرا يندفع توبياس فجاة مناديا أوسو قائلا: فى هذا الكفاية الآن ٠٠ توقف عن هذه الحركات المجنونة ٠٠ ليس هنـــاك أى سبب لكل هذا النشاط والسعادة التى تبدو عليك ٠

***

وحدث مرة أن تمكن أوسو من الخروج من الغرفة ، فاندفع يهبط الدرج حتى وصل الى الطريق ، حيث أخذ فى الحال يطارد قطـا ، ويلتقط القـاذورات من الطريق ، ويقفز نحو الاطفال وهو يكاد يجن سعادة بهذه الانطلاقة ٠ ولكن عندما ظهر توبياس بوجهه العـابس الذى كان ينطق بهول المصيبة التى حلت به، ما ان ظهر توبيـاس حتى ضج نصف الشارع بالضحك لمجرد رؤيته ٠ وكان مؤلمـا يقفز مبتعدا فى الناحية الاخرى كلمـا ماحدث بعد ذلك ، فقـد انطلق الكلب تقدم توبياس نحوه يريد أن يعيده الى غرفته ٠٠

فى ذلك اليـوم استولى الغضب على توبياس، فراح يضرب الكلب مدة طويلة بعـد أن مرت عدة أسابيع على حصـول توبياس على الكلب ٠٠ كان يـوم حين تنـاول توبيـاس رغيف خبز من أحد الادراج،وبدأ ينحنى ليقطع الرغيف قطعا صغيرة بسكينة ذات المقبض العظمى ٠٠ كان يلقى بقطع الخبز على الارض ليأكلها أوسو الذى اعترته الرغبة فى الاكل وفى اللعب معـا ٠٠٠ فـراح يقفز الى أعلى ليلتقط قطع الخبز قبـل أن تسقط على الارض ٠٠ ولـكن السكين ذات المقبض الطويل التى تحملها يد توبياس المرتعشة أصابت أوسو فى كتفه الايمن ٠٠ فسقط على الارض والدماء تنزف منه ٠

وفى ذعر شديد ألقى توبياس بالطعام جانبا وانحنى على الحيوان الجريح وقد تغيرت تعابير وجهه الذى كسته لمحةمن الراحة والسعادة ٠٠ وفى عناية شديدة حمل توبياس الحيوان الجريح الى الاريكة٠

وبكل ما يملـكه من ذخيرة لا تنضب من الرعاية والاخلاص بدأ يعنى بالجريح لم يبرح جانب الكلب طيلة اليـوم ٠٠ ولما حل الليـــل حمله لينام بجواره على سريره وغســلَ له الجرح وضمده ٠٠ وراح يربت عليه ويداعبه ويخفف عنه بعطف لا يعرف الملل ٠٠ وراح يقول له:

ـ هل يؤلمك الجرح كثيرا ؟ نعم ، انك لتتألم كثيرا أيها الصديق المسـكين ٠٠ ولكننا يجب أن نكون هادئين ويجب أن نحاول تحمله :

وكانت نظرات وجهه تنطق بالسعادة الرقيقة الحزينة ٠

ولكن مع تحسن صحة أوسو واندمال جرحه أخذت سعادة توبياس تنهـار من جديد ٠٠لم يعد يعنى بالجرح ٠٠واقتصر فى التعبير عن مشـاعره على المداعبات والكلمات الطيبة ٠٠ ولكن الجرح سرعان ما اندمل ، فقد كان تكوين أوسو قويا ، وبدأ يتحرك هنا وهناك مرة أخرى ٠

* * *

وفى يوم من الايام بعد أن فرغ من تنـاول طبـق كامل من اللبن والخبز

الابيض بدا وقد استعاد حالته الطبيعية مرة أخرى ، فراح يقفز من الاريكة ليجرى عبر الغرفة فى كل اتجاه وهو ينبح فى سعادة بما يستمتع به من نشاط وانطلاق .. شد أغطية السرير ، وطارد ثمرة بطاطس فى كل أرجاء الغرفة وأخذ يدور حول نفسه فى ثورة جامحة .

ووقف توبياس عند اصيص الزرع فى النافذة ، وقد خرج ذراعاه الطويلان النحيفان من الكمين المهلهلين ، وراحت أصابعه تعبث ـ آليا بالشعر المتدلى عند صدغيه . وظهر جسمه آسود جامدا على الحائط الرمادى للمبنى المجاور .

كان وجهه غائرا وقد نضبت منه الدماء بسبب الالم الذى يعتمل فى نفسه وهو يرقب صامدا ثورة أوسو والعابه وقفزاته هنا وهناك ، يرمقه بنظرة جانبية فيها حقد وغيظ وغيرة .

وفجأة استجمع شتات نفسه واقترب من الكلب وأوقفه عن القفز واللعب ثم حمله برفق بين ذراعيه وبدأ يحدثه فى لهجة رقيقة مليئة بالشفقة :

ـ والآن أيها المخلوق التعس

ولكن أوسو لم يكن فى حالة تجعله يحفل باحساس الشفقة والحنو ، فقد كان سعيدا مرحا مليئة بالحيوية، فافلت بسرعة من اليد التى همت لكى تربت عليه ، وقفز هاربا من ذراعى توبياس آلى الارض حيث آخذ يدور حوله مداعبا .. ثم آنطلق مبتعدا وهو يطلق نباحا سعيدا .

ما حدث بعد هذا كان شيئا مفاجئا مذهلا لا يمكن تصوره لدرجة أننى لا أستطيع أن أروى تفاصيله . فقد انحنى توبياس الى الامام قليلا وهو واقف وقد تدلت ذراعاه الى أسفل وشفتاه مزمومتان ، وعيناه تتذبذبان فى محجريها بشكل غريب .

وفجأة ـ فى حركة سريعة مجنونة امسك توبياس بالكلب ، وقد برق فى يده شيء كبير لامع وهو يهوى بسرعة..

ثم ألقى أوسو الى الارض وقد مزق كتفه الايمن جرح كبير غائر فى صدره. لم يصدر عن الكلب أى صوت ، فقط وقع على جانبه فوق الارض تتدفق الدماء منه غزيرة وهو ينتفض .

ثم حمل توبياس الكلب فأرقده على الاريكة وجلس بجواره يضمد جراحه بينما يتمتم :ـ

ياصديقى المتوحش المسكين ، ياكلبى المسكين ! كم هو حزين كل شيء ... كم هو حزين كل شيء بالنسبة لكلينا ! انك تتعذب . نعم انت تتعذب انا اعلم ذلك .. ها انت ذا ترقد فى حالة يرثى لها ولكننى معك ، ارعاك واخفف عنك .. هذا أفخر مناديلى .

ولكن أوسو استلقى على الاريكة . وخرجت من حنجرته حشرجة قوية .. واتجهت عيناه اللتان بدأت الغيوم تطمسهما ، اتجهتا نحو سيده فى نظرة تساؤل ، كلها شكوى وبراءة .. وعدم فهم. ثم تمددت ساقاه قليلا .. ومات.

***

ولكن توبياس ظل بجواره دون حراك وقد وضع وجهه على جسد أوسو وبكى بدموع مرة .

العودة ••

قصة

بقلم : محمد خزعل

كانت ابنتى تبكى بصوتها الرفيع المليء بالحشرجة ، وتملأ جو الحجرة الصغيرة العارية بالألم والأسى ·

وتحرك بقية الأطفال فى رقودهم ، وظهرت سيقانهم وأذرعهم عارية تحت الغطاء الممزق ، وصاح الولد مرة ، ثم تفوه بعدة ألفاظ غير مفهومة ، وأخيرا ، أدار وجهه للحائط وعاد للنوم من جديد ·

أما زينب ، أخته الكبيرة ذات العشرة أعوام ، فقد جلست فجأة وهى تفرك عينيها بظهر يدها ، ثم تحك فروة رأسها بشدة حتى لتكاد تدميها ·

وعندما استكملت اجراءات يقظتها التفتت لاختها الصغيرة وأخذت تربت ظهرها بيدها فى حركة رتيبة ·

لكن الصغيرة ، الشيطانة ، استمرت فى البكاء ، بل يبدو أنها كانت تدرك أن أختها تحاول خداعها حتى تسكت ، لقد كانت تحتاج الى طعام ·· الى لبن الام ، لا الى ربت على الظهر أو غناء ···

انها لم تذق طعم اللبن منذ ثلاثة أيام وفى أول يوم أخذتها أختها الى جارتنا لارضاعها ، لكن الصغيرة رفضت بشدة وأخذت تصيح وتبكى وقالت الجارة وهى تعيد ثديها الى صدر جلبابها :

ـ انها تريد أمها ·· حتى الحيوان الصغير يعرف امه يا ابنتى ·

وبكت زينب قهرا وذلا وهى تسب الصغيرة وتهدد بالقائها فى الطريق ·

ـ لماذا لم تأخذك معها الى الداهية التى ذهبت اليها ؟

وأخيرا ، تفتق ذهن زينب عن حيلة ربما تكون أكبر من سنها ·· أحضرت كسرة من الخبز وغمستها فى الماء حتى أصبحت كالعجينة ثم وضعتها فى فم الصغيرة ، فى أول مرة لفظتها وعادت تبكى ، لكنها مع مرور الوقت وتحكم الجوع اضطرت إلى بلعها ·

كانت زينب تحاول جاهدة القيام بكل ما كانت تقوم به الام لأبنائها ·· بل وكانت الصغيرة تكافح ما استطاعت حتى لاأشعر انا أيضا بغياب أمها ·

كانت تصحو فى الفجر ، كما كانت تفعل بهانة ـ زوجتى ـ وتحمل صفيحة المياه لتملأها من الحنفية العمومية ·· وتغسل زينب معدات الشاى وتوقد وابور الجاز ·· واخيرا كانت تقترب منى وتهز كتفى بيدها الصغيرة فى رفق ·· وعندما تفشل هذه المحاولات كانت تنادينى بصوت منخفض يعلو شيئا فشيئا حتى ارد عليها ·

وعندما ترانى وقد جلست على باب
الحجرة كانت تحمل بعض الماء لتصب
فى يدى لأغسل عن وجهى آثار ظلام
الليل ٠

وأخيرا ، كانت زينب تقدم لى مع
كوب الشاى ماعندنا من بقايا الطعام ،
لقيمات الخبز الجاف وفتات الجبن ٠

وعندما أحضر عربةالخضروات الفارغة
وأبدأ سيرى نحو السوق كانت زينب
تقف على الباب وهى تردد ما اعتـــادت
أمها أن تردده من قبل ٠

ـربنا يفتحها فى وجهك ٠٠ ربنـــا
يسهل لك٠٠نهارك أبيض ان شاء الله٠
فى أول مرة هممت بالعودة لضربها أو
سبها ، هذه الصغيرة حتى هذا لاتنساه
لقد كانت كلماتها تمزق قلبى، وتذكرنى

ـ مع الصباح ـ بهروب أمها ، كل ما
كانت تنعنه هذه الصغيرة حتى لا أشعر
بغياب أمها كان يذكرنى أكثر بما حدث،
ولا يترك لى فرصة لنسيانه ان كان من
الممكن نسيان شىء كهذا ٠

فجأة ، اختفت زوجتى ، أم الاطفال
هربت المرأة بعد عشر سنوات طويلة ،
ودون سبب معقول ، لم أكن قد ضربتها
منذ عدة أيام ، بل ولم أكن قد وجهت
اليها كلمة لوم أو سب ٠

ويخيل الى أن علاقتنا لم تكن أبـدا
مثل ماكانت عليه طوال الاسبوع الذى
سبق هربها ،لو اننا كنا نعيش هكذا
على الدوام لكانت حياتنا أسعد من حياة
كل الناس ٠٠ أسعد حتى من حيـــاة

الاغنياء الذين يعيشون فى أحيـــاء من
القاهرة لايمكنالسير فيها بعربة الخضار
لـــكنها كانت دائمـــة الشكوى ٠
وما من مرة حضرت الى المنزل مع الغروب
بعد تجوالى الطويل فىالشوارع والحارات
الا وطلبت منى شيئا لايمكن احضاره ،
أو بدأت فى الشكوى ٠

هى تعرفاننى أسرح بالخضار ، وان
رزقى ـ كل يوم ـ على الله٠٠ يوم عشرة
ويوم عشرين ، كيف يمكننى اذن أن
أجعلها تعيش كزوجات بعض جيرانـنا
فى الحارة ، أحدهم عامـــل فى مصنع
نسيج يقبض ثلاثة عشرجنيها ، والثانى
كناس فى البلدية يقبض بالشهر أيضا
عشرة جنيهات وكسور ٠٠ كل جيرانى
تقريبا هكذا ٠

لكننى أبيع الخضار ٠٠ منـــذ زمن
طويل ٠٠ قبل أن أتزوجها بسنوات ،
وكنت ـ قبل هذا ـ أزرع الارض لكن
الزرع لم يكن يفيد أصحابه فتركته الى
القاهرة ٠

كيف يمكننى أن أجعلهـــا تعيش
كجيراننا ؟ لست ادرى !

يابنت الناس ٠٠ أنا لاأقبض ماهية٠

هـــكذا كنت أردد على سمعها حتى
تصمت عن الشكوى ، لكنها كانت تزيد
وتعيد ، ثم تعدد طلباتها من جديد ٠٠
جلباب لها وملابس للاطفال وخضروات
لتطبخ كما تفعل بقية الزوجات ٠٠ لكن
ماذا أبيع اذا كنا سناكل بطاطس ٠٠
وكوسة ؟ وماذا ياكل سكان الشوارع
الكبيرة والعمارات الضخمة ؟

وكنت أشرح لها وأعيد تفهيمها مرة

بعد أخرى ٠٠ لـكنها كانت تردد فى صفاقة المرة بعد الاخرى :

ـ أنت الرجل ٠٠ أنت المسئول عن طعام أولادك ٠

وعند هذا الحد كنتأقوم لها لأعطيها جرعة الدواء ، دواء كثرة الــكلام ٠٠ والصفاقة ، عدة صفعات أتبعها بعدد من الركلات تجعلهــا تتـكوم بجوار الحائط ٠

لكن يبـدو أن زوجتى أدمنت الدواء شيئا فشيئا ، فقد كانت تعرف دائما ما ينتظرها لــكنها لم تكن تتوقف عن الكلام ٠٠ نريد هذا ٠٠ ونريد ذاك ٠٠ زوج فهيمة أحضر لها ٠٠ وابو محمود اشترى ٠٠ ونحن نريد ٠٠٠

ـ من أين ؟ هل أضرب الارض لتنتج بطيخا ؟

وكانضربها أهون علىدائما من انتاج البطيخ ٠

انها تعرف الارهــاق الشديد الذى يصيب جسدى كله من التجوال الطويل ومن دفع العربة ومن النداء على البامية والطماطم والبصل ٠

كانت قدماى تتورمان فى البداية . عندما حضرت من الريف الى القاهرة ٠ وكانت أكتــافى تكاد تنفصــل كل ناحيــة ٠٠٠ ثم شـيئا فشـيئا تعود جسمى كله على رحلة الشقاء ٠٠٠ كل يوم ٠

وكنت أحتمل كل هذا من أجلها ومن أجل الاطفــال ٠ وهل كان فى مقدورى فعل شىء آخر ؟

ومع هــذا استطاع عابر سـبيل الضحك على ذقنها بعدة كلمات ٠

لابد أنه كان يردد على سمعها كلمات الحب والغرام ، وكان يقنعها بأنها جميلة وحلوة ٠ ليس هناك من سبب آخر ٠٠

وليس من المعقــول أن تكون قـد هربت مع سمكرى متجول من أجل ماله وغناه !! ثم ليس من الطبيعى أن تترك الأم أبناءها من أجل المال ٠

وتجلس زينب ـ ابنتى ـ أمامى وأنا أتناول طعــامى ، وتحاول بحديثهـــا الساذج دفعى الى الكلام ٠٠٠

ـ كيف كان يومك ؟ هل بعت كل ماكان معك من خضروات ؟

ـ هل تريد شيئا آخر ٠٠ ؟

ـ هل أصنع لك كوبا من الشاى ؟

وأصمت طويلا حتى تيأس الصغيرة ثم أسألها عن اخوتها ٠٠ ماذا أكلوا ؟ وهــل حافظت عليهم من الطريق ؟ ومن غســل ملابسهم ؟ وهل أخفت علبــة الثقاب حتى لايلعبوا بمحتوياتها ؟

لم أكن أفكر فى كل هذه الاشياء من قبــل ، لكن ، كان على فى تلك الايام رعاية الاطفــــال أيضـــا ، رضيعهم وكبيرهم ٠

وكنت أعود من تجوالى الطويل لأجد الطفلة الرضيعة قد بكت حتى تورمت عيناها ، ولاجد ابنى الوحيـد قد أكل نصف ماعلى الارض من طوب ورمال ٠

وكان عقلى يسرح ، وقدماى تسيران على أرض الطريق ، فى مصــير هؤلاء الاطفال ٠ ماالذى سيقوله لهم الناس

بعد أن يكبروا ؟ وماالذى أقوله أنا لهم عندما يسألون عن أمهم ؟

ولم يكن تفكيرى يتوقف فى أمرى أنا أيضا ٠ كيف أرفع رأسى بين الجيران وقد تركتنى امرأتى ، هربت ٠٠٠٠ مع حبيب ! ؟

لكن غيابها لم يستمر ٠ ثلاثة أيام فقط مرت علىكثلاثة أعوام ، ثلاثة أعوام من الشقاء ٠٠٠٠

فى مســاء اليوم الثـالث عادت زوجتى ٠

فجأة ، كانت تقف على باب الغرفة فى تردد ورهبة ، تنتظر اذنا بالدخول٠ كانت تتـوقع أن أقابلهـا بالصـياح والسب ثم بجرعة كبيرة من الضرب ، أو حتى بالقتل ٠ لكننى لم أفعل شيئا من هذا ٠

كل ما صدر منى فى ذلك الوقت كان ٠٠٠٠ الصمت والسكون ٠ كأننى لم أعرفها من قبل ، أو كأنها لم تهرب مع رجل آخر ٠

ان انفعالاتى وأحاسيسى لم تتحرك فى أى اتجـاه ، وكان عقـلى كالبركة الراكدة ٠

وازداد اطمئنـانها فى هذا السكون فتقدمت خطـوات الى داخل الحجـرة ٠ وكانت زينب أول من تحـرك عقـله للتصرف ، وقفت على أقدامهـا وتنمرت لأمها كأنما ستهم بضربها ثم قالت فى بغض واضح ٠٠٠

ـ أين كنت ؟ ولمـاذا عدت ٠٠٠ كنا فى راحة بدونك ٠٠٠ ؟

ونظرت امرأتى الى ابنتها فى انكسار صامت ثم جلست الى جـوار الصغيرين فى هدوء٠ ورفعت المرأة ابنتها الرضيعة الى صدرها ثم تناولت ثديها من خلف الجلباب وألقمته فم الصغيرة ٠

وتململت ابنتى فى نومها ثم سرعان ما بدأت تستحلب لبن أمها وهى تحرك أقدامها فى لذة وسرور عميقين ٠

وضمت المرأة ابنها بذراعها الآخر ثم نظرت الى زينب طـويلا فى صمت وأخيرا خفضت عينيهـــا الى الارض فى انكسار ٠

ولا أدرى ما الذى كان يشغل ضمير زينب وهى تعـود للتحرش بأمهـا من جديد كأنما تريد طردها وابعادها عن المنزل ٠

ـ لماذا عدت ثانية ؟ انك لا تريدين الحياة معنا فما الذى أتى بك ؟ ولماذا أنجبتنا ان كنت لا ترغبين فينا ؟

وحاولت امرأتى أن تمد يدها لتلمس زينب وعيناها تنضحان بالأسى والحنان والحب ٠ لكن زينب أزاحت يد أمها فى غضب وكأنما تحمل هذه اليد مرضـــا يعدى ٠

ثم عادت تقول فى قسوة ٠٠٠

ـ لو كنت مكان أبى لطردتك الآن٠

واقتربت زينب منها قليلا ، وكأنما وجـدت فرصــة تتيح لهـا مزيدا من التحرش بأمها ٠٠٠

اتركى أختى ٠٠ لا تلمسى أخى ٠٠ انهم ليسوا أبناءك ٠

ثم صاحت زينب فى أمها ...

ـ اتركى أختى ، لا ترضعيها من لبنك ...

وتقدمت زينب لتنزع الصغيرة من بين يدى أمها لكن المرأة تشبثت بابنتها الصغيرة ثم أخذت تمسح بيدها الاخرى رأس ابنتها زينب كأنما تترضاها . وكان وجهها ينطق بالضعف والحنان وهى تنظر الى زينب فى حب وألم وندم وترقب ..

وكلما أزاحت زينب يد أمها عنها عادت تلك تمسح وجهها ورأسها وكأنما جذبت المرأة زينب اليها ، أو كأنما انجذبت زينب الى أمها لانها فجأة كانت تسقط باكية فى حجر أمها وهى تنشج بصوت مرتفع وجسدها كله يرتعد بشدة .

ومالت امرأتى على زينب تقبلهاوتبكى بينما طوقتها زينب ـ هى الاخرى ـ بذراعيها بشدة وأخذت تقبلها فى وجهها وعنقها وشعرها حيثما اتفق ...وكانت الاثنتان تبكيان فى ألم ، بكاء تملؤه العاطفة ، وزينب تردد ...

ـ لا تتركينا مرة أخرى .. أبدا..

ورقد أبنائى تحت جناح أمهم فراريج صغيرة ، وهم يتشبثون بها كأنما يخشون ان تذهب عنهم مرة أخرى .

أما أنا فقد انتحيت ركنا بعيدا ورقدت مفتوح العينين فى الظلام أفكر ...

ـ ماذا يجب على ان أفعل ؟

وفجأة أحسست بشفتين حارتين يخالطهما الدموع والندم تقعان فوق يدى . وأخذت امرأتى تقبل يدى مرات ومرات وجسدها يهتز بعنف من أثر نشيجها المكتوم .

وكان عقلى يراودنى على طردها أو ضربها وابعادها ، أو حتى خنقها بيدى فى الظلام .

لكننى بدلا من هذا كله مددت ذراعى وجذبتها الى فانكمشت فى صدرى كالقطة الأليفة .

وعندما خرجت بعربة الخضار فى الصباح وقفت امرأتى على باب الحجرة وأخذت تدعو لى كعادتها . ولقد أحسست من نبرات صوتها فى ذلك الوقت بأن كلماتها هذه أكثر اخلاصا من جميع الدعوات التى سبق أن رددتها طوال عشرتنا الماضية .

الأساليب الفنية في القصة القرآنية

بقلم : دكتور محمد احمد خلف الله

ونبدأ بدراسة أسلوب القرآن الكريم فى رسم الصورة أو عرض الحادثة ، ونلحظ أن القرآن لم يسلك طريقة واحدة وانما نوع فى قصصه ونلحظ من تنويعه هذه الظاهرات :

١ ــ كان القرآن الكريم يعتمد أحيانا على الألفاظ الفخمة الضخمة ذات الرنين القوى التى تؤثر بمبناها ومعناها ، كما تؤثر بموسيقاها ،وكان يعمد أحيانا الى الجمل المسجوعة القصيرة الفقرات ، ليزيد من قوة الرنين ، فتملأ موسيقى الألفاظ الأذن نغما والقلب خشية ورهبة أو غبطة وسرورا . وذلك من أمثال هذه القصص « **كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر ، فدعا ربه انى مغلوب فانتصر ، ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ، وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر ، وحملناه على ذات ألواح ودسر ، تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر ، ولقد تركناها آية فهل من مدكر ، فكيف كان عذابى ونذر ، ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ، كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر ، انا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر ، تنزع الناس كأنهم اعجاز نخل منقعر ، فكيف كان عذابى ونذر ، ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر** » .

* * *

٢ ــ وكان يعتمد أحيانا أخرى على تتابع الأحداث تتابعا سريعا لتؤثر فى النفس وتهز الفؤاد ، وذلك من أمثال قوله تعالى : «**فارسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين**» ولعل هذا هو الذى وعاه أيضا الى أن يجمع ألوانا من القصص فى سورة واحدة ،وذلك من أمثال قصص الأعراف وهود والشعراء والقمر .

* * *

٣ ــ وكان أحيانا أخرى ــوهو الغالبــ يعتمد على الألفاظ السهلة اللينة التى

تصدر عنه كما تصدر الالفاظ فى الاحاديث العـــادية • يقص وكأنه يخاطب القوم بلغتهم العادية ويتحدث اليهم أحاديثهم المألوفة ، ويلاحظ فى مثل هذا اللون أن حركة الأسلوب كانت تتمشى مع حركة العاطفة ، ولعل خير مايمثل هذه الخاصية هذا الجزء من قصص موسى : « **ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لانسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ، فسقى لهما ثم تولى الى الظل فقال رب انى لما انزلت الى من خير فقير فجاءته احداهما تمشى على استحياء ، قالت ان أبى يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا ، فلما جاءه وقص عليه القصص قال لاتخف نجوت من القوم الظالمين • قالت احداهما يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوى الأمين • قال انى أريد أن أنكحك احدى ابنتى هاتين على أن تاجرنى ثمانى حجج فان أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدنى ان شاء الله من الصالحين • قال ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على والله على ما نقول وكيل** » •

فنحن نلحظ فى الجزء الأول وهو الخاص بورود موسى ماء مدين استعمال الفعلين المضارعين يسقون وتذودان للدلالة على الحركة ، ولتصوير الأحداث حتى لكأنها حاضرة مشاهدة ، وليس ذلك الا لانهما الفعلان الدالان فى هذا الجزء من الآية على ما سيقع ، وكأنما ينبهاننا الى أن هذه الأحـــداث هى التى تهم موسى ، ولقد كانت هى التى استثارته فعلا ، فالناس يسقون وهاتان تذودان ، ولذا تقـــدم الى الفتـــاتين قائلا **ما خطبكما** • ؟ وأظنك تلحظ معى مافى هذا اللفظ من عنف وجزالة ، وما فيه من دلالة على تلك الخواطر التى ألمت بذهن موسى ، وانى لأحس منـــه الغضب على أولئك الذين يسبقون الفتاتين الى السقيا •

وتنطق الفتاتان بهذه الجملة التى تدل على مافى الأنثى من ضعف وحياء يدفعانها الى التخلف فى مثل هذه المواقف التى يكثر فيها التزاحم ويختلط فيها النساء والرجال « **لانسقى حتى يصدر الرعاء** » وبهذه الجملة التى تستثير الرحمة وتستمطر الحنان ، « وأبونا شيخ » انها لالفاظ سهلة لينة تداعب رقتها الآذان والقلوب ، وانها الجمل التى تنطق بها الأنثى ، والأنثى ليس غير مافى ذلك شك أو جدال •

ويأتى جزء آخر دال على الحركات الخاطفة السريعة التى يأتى بها الانسان ليصل الى ماوراءها « **فسقى لهما ثم تولى الى الظل** » ونلحظ موسى هنا وفى هـــذا الظل متراخيا منهوك القوى مستسلما ضارعا : «**رب انى لما أنزلت الى من خير فقير**» •

وتمشى الجملة مع هذه الضراعة ويطل الشعور الدينى من وراء النـــداء ومن التصريح بالفقر والحاجة الى الخير أمام الغنى الكبير •

على أن المقام بموسى لن يطول فقد جاءته احداهما تمشى على استحياء ألا ما أرق هذه الجملة وما أخف وقعها على الاسماع والقلوب ، وما أقدرها على تصوير الحركة والانفعال ، تمشى وتمشى على استحياء ثم ما أجمله من تعبير دال على خير ما فى الفتيات من جمال هو جمال الخفر والحياء ، جاءته فقالت ان أبى يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا ، وهل ينتظر موسى حتى يجيب ؟ انه عجل لانه فى حاجة الى هذا الأجر ، وهو الغريب الفقير ، واذن فلتطو الاجابة وليطو معها الطريق وليلق موسى الشيخ وليقص عليه القصص ، وهل يفعل غير هذا الغريب الطريد ؟

ويفطن الشيخ الى ما بنفس الفتى المطلوب للثأر ، فيقف منه موقف الشـــهم الكريم ، ويلقى اليه تلك العبارة التى ترد عليه الهدوء والطمأنينة وتشعره بأنه فى كنف شجاع كريم : « **لاتخف نجوت من القوم الظالمين** » لاتخف هذه ينطق بها الرجل

القوى الواثق حين يشمل الناس بعطفه وحنانه ، وتجرت هذه التى توحى الى السامع باطمئنان النفس وراحة القلب وهدوء الخاطر ، ومن القوم الظالمين تلك التى تدفع عنه القلق النفسى وتأنيب الضمير •

وتبدأ مرحلة أخرى تصور الاعجاب بالفتى والاحتيال على لقاء الحبيب ، اذ تتقدم احداهما الى أبيها وتطلب اليه أن يستأجره ، ومن يستأجر ؟ ان خير من يستأجر القوى الأمين ، وكأن الشيخ قد فطن الى المراد فاسرع الى تحقيق رغبة الفتاة ، وأقدم على الفتى بهذا القول المؤكد الذى يقطع على المتردد كل سبيل « **انى أريد أنكحك احدى ابنتى هاتين ••** » ويستجيب الفتى وهو الشريد المقتفى ، وهو القاتل المستجير ويجيب بتلك الجملة التى تشعرنا باستسلام ، وكأنه الطفل الصغير امام الشيخ الكبير « **ستجدنى ان شاء الله من الصالحين** » ويتم الاتفاق ويشهدان الله لانه على ما يقولان وكيل ••

وكان القرآن يعتمد فى أحيان كثيرة على تصوير الحركات لتدل بدورها على الانفعالات قوة وضعفا وعنفا ولينا، وذلك من أمثالقوله تعالى : «**ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لايعلمهم الا الله ، جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به وانا لفى شك مما تدعوننا اليه مريب** » وقوله : « **فاقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم** » • وقوله: «**وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا** » • وقوله : « **وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا انا لنراها فى ضلال مبين ، فلما سمعت بمكرهن أرسلت اليهن وأعتدت لهم متكئا وآتت كل واحدة منهن سكينا ، وقالت اخرج عليهن ، فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاشا لله ماهذا بشرا ان هذا الا ملك كريم** » •

وقوله : « **وامرأته قائمة فضحكت** »

كما كان يستعين أحيانا بالعبارات التصويرية والصيغ الدالة على الانفعال نحو قوله تعالى : **قالت انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا** » وقوله : « **فأجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا** » وقوله : « **يا أبت لاتعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا ، يا أبت انى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن لتكون للشيطان وليا** » • وقوله : «**فلما وضعتها قالت رب انى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وانى سميتها مريم وانى أعيذهـــا بك وذريتهـــا من الشيطان الرجيم** » • وقوله : « **واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم اذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم** » •

وعلى كل فيجب ألا ننسى أن أسلوب القرآن ـ فى الغالب ـ هو أسلوب التخاطب فقد كان القرآن يلقى على القوم القاء ، ومن هنا وضحت فى قصصه أساليب الحديث والمشافهة خاصة فى مبدأ القصة نحو : ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم ، ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه ، واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها الخ •

* * *

أسلوب الحوار :

ليس من الضرورى أن يوجد الحوار فى كل قصة ، فقد تخلو منه القصة وتمضى

على أنها صورة لشخص أو رسم لحادثة ، وهذا هو الغالب في القصص القصيرة ، ثم هذا هو الامر الذى مضى عليه القرآن فى كثير من قصصه الذى يقصد فيه التخويف بل مضى القرآن الى شيء آخر فى دعايته للعقائد أو ضدها فادار الحوار على أنه الخواطر النفسية التى تلم بالشخص والتى تنقله من طور الى طور ليتخلص من عقيدة ويدخل فى أخرى ، وهذا هو الأمر الواضح كل الوضوح فى قصة ابراهيم من سورة الانعام :

« **وإذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة ، انى أراك وقومك فى ضلال مبين ، وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين ، فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم انى برىء مما تشركون، انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفا وما انا من المشركين** » .

لكنا ـ مع كل هذا ـ نجد كثيرا من القصص القرآنى كان الحوار فيه عنصرا مهما ـ ان لم يكن العنصر البـارز ـ وهو موجود على كل حال فى كل قصـة تعددت شخصياتها وذلك من مثل قصة يوسف وقصة موسى فى طه ، وقصة آدم فى الأعراف ثم فى مجموعات قصص سورتى هود والشعراء وفى قصة ابراهيم فى سورة مريم وفى غيرها من القصص الذى يراد به التثبيت أو شرح مبادىء الدعوة الاسـلامية ، ونستطيع أن نضرب مثلا لذلك هذا الجزء من قصة موسى فى سورة طه « **اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى ، اذهبا الى فرعون انه طغى ، فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ، قالا ربنا اننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ، قال لاتخافا اننى معكما أسمع وأرى ، فأتياه فقولا انا رسولا ربك فأرسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى ، انا قد أوحى الينا أن العذاب على من كذب وتولى ، قال فمن ربكما ياموسى ، قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، قال فما بال القرون الأولى ، قال علمها عند ربى فى كتاب لايضل ربى ولا ينسى ، الذى جعل لكم الارض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ، كلوا وارعوا أنعامكم ان فى ذلك لآيات لأولى النهى ، منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ، ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى ، قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى ، فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لانخلفه نحن ولا انت مكانا سوى ، قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى ، فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى ، قال لهم موسى ويلكم لاتفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى ، فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى .. الخ ..** » .

* * *

وموضوعات الحوار فى القصص القرآنى هى الموضوعات الدينية فى الغالب ، وهى الموضوعات التى بسببها قام بين النبى عليه السلام وقومه جدل عنيف ، وتلك من أمثال الوحدانية والبعث وكون الرسل من البشر وليسوا من الملائكة وأحداث المعجزات الخارقة للدلالة على النبوة وغيرها ، وقد سبق أن صورنا كثيرا من هـذه الموضوعات فى الفصول الاولى عند حديثنا عن القيم الدينية والاجتماعية فلا داعى لذكرها هنا .

وطريقة القرآن فى تصوير الحوار تقوم على أساس الرواية ، فيحكى القرآن أقوال الاشخاص ويصدرها بقوله : قال أو قالا أو قالوا .

هذا التصدير يلفت ذهننا الى أمر خاص بالحوار فى القصص القرآنى هو أنه ليس من اللازم أن يقوم الحوار بين اثنين ، فقد يكون بين كثرة • وكل هذه الامور ملحوظة فى القصص القرآنى ، فيكون الحوار بين اثنين كالحوار بين ابليس وآدم ، وبين ابراهيم وأبيه وبين موسى وفرعون • ويكون بين واحد من طرف واثنين من طرف آخر ، كما هو الواضح فى قصة موسى السابقة ، فقد كان موسى وهارون الركن الثانى من أطراف المحاورة • وقد يكون بين واحد من طرف وجماعة من طرف آخر كالحوار الواقع فى أكثر القصص القرآنى بين الرسل وأقوامهم من مثل قوله تعالى :

« ولقد أرسلنا نوحا الى قومه انى لكم نذير مبين ألا تعبدوا الا الله انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم ، فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم ما علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ، قال يا قوم أرايتم ان كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم انلزمكموها وأنتم لها كارهون ، ويا قوم لا أسالكم عليه مالا ان أجرى الا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا انهم ملاقوا ربهم ولكنى اراكم قوما تجهلون ، ويا قوم من ينصرنى من الله ان طردتهم أفلا تذكرون ، ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول انى ملك ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم انى اذاً لمن الظالمين ، قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فاتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين ، قال انما يأتيكم به الله ان شاء وما أنتم بمعجزين ولا ينفعكم نصحى ان أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم واليه ترجعون » •

والقضايا التى يعتمد عليها القرآن فى حواره ترجع فى الغالب الى المسلمات الدينية أو المسلمات بحسب العرف والبيئة ، ومن هنا تقوم على أساس اللذة والألم أو المنفعة والمضرة وانهما بيد الاله المتفضل يمن بهما على عباده ، كل وما يستحق•

❋ ❋ ❋

والاسلوب الادبى فى الحوار يخضع خضوعا يكاد يكون تاما لسمات الاسلوب القرآنى كله ولذا نلحظ فيه هذه السمات :

١ ــ ان لغة الاسلوب تختلف باختلاف الموضوعات والطور الذى نزلت فيه ، ومعنى ذلك أنه أسلوب فنى يجرى فى كل قصة من القصص على وتيرة واحدة ، ومعنى ذلك أيضا أن القرآن كان لا يساير نفسية المتحاورين بقدر ما يساير نفسية محمد عليه السلام ونفسية معاصريه ، ومن هنا خضع أسلوب القصص لتلك المميزات العامة المعروفة عن أسلوب القرآن فى عهدين المكى والمدنى •

٢ ــ يلاحظ أنه فى القصص الذى نزل أولا ، كان يعتمد على الرنين الصوتى للالفاظ ، يعاونه فى ذلك الفقرات القصيرة المسجوعة ، وذلك لان عاطفة النبى عليه السلام كانت فى ذلك الطور قوية جياشة مندفعة ، ومن هنا كانت الانتقالات الفجائية السريعة التى تظهر فى القصة الواحدة ، والتى تظهر فى مجموعة القصص الواردة فى سورة واحدة ، ولذا كانت القصص قصيرة جدا فى هذه الفترة ، ويمثل هذه السمات قصص سورة القمر •

٣ ــ يلاحظ فى القصص العقائد الجديدة ، ويحاول أن يهدم القديمة ، ان السخرية بالأفكار والعقائد تدخل فيه كعنصر فنى ، وهى سخرية مرة نافذة ، اذ تحاول أن تضع الحقائق الواضحة المتميزة أمام كل ذى عينين ليستفيق من غشيته

وليحس احساسا قويا بما هو فيه من ضلال ، وذلك الأمر يمثل قصص ابراهيم عن عبادة الأوثان ، خاصة فى سورة مريم والشعراء •

كما يلاحظ فىهذا الجزء شيئا من هدوء العاطفة عند الرسول ، ونلمس ما تحمل الألفاظ من حنان حتى ليشعر القارىء أو السامع انه فى كنف شخص عظيم يظلله برعايته ويحاول أن يصرف عنه القسوة والعذاب ، ويمثل هذا اللون قصص هود وصالح وشعيب من سورة الأعراف كما يمثله قصة ابراهيم فى مريم •

٤ ــ فى القصص الذى يأتى للتنفيس والافاضة تكون العواطف جياشة قوية ، وان تكن أميل الى الاستسلام ، وذلك هو الأمر الذى تدفع اليه العلاقة القائمة بين الرسل والأقوام • ومن هنا تاتى الألفاظ هينة مسترسلة لتجرى مع طبيعة العاطفة وما فيها من يأس واستسلام • ومن هنا نلحظ من حين لآخر وجود العنصر الفنى الدينى الذى أسميناه فيما يأتى بالمناجاة ، وهى عبارات أصبحت تقليدية فى بعض الأدعية الدينية •

وهنا قد نلاحظ اختلافا فى العاطفة بين المتحاورين ، فيبقى المستكبرون على ما عرف عنهم من قسوة وجبروت ، ويمضى الانبياء بين بين وان غلبت المسالمة ، وذلك لما يكمن فى قلوبهم من محبة الأهل والعشيرة ، ولما يبغون من انتصار الدين ، ولما يرجونه من اسعاد الأهل والعشيرة ، أو اسعاد من تحمله الأرض أو تظلله السماء •

وعلى الجملة فالأسلوب القرآنى فى القصص يساير نفسية محمد عليه السلام، وستظهر هذه المسايرة فى حديثنا المقبل عن القصص القرآنى ونفسية الرسول عليه السلام ، وان كنا نجمل الحكم الأدبى فى هذه الجملة ، وهو أن أسلوب القرآن فى التعبير عن أفكار الانبياء والمرسلين أو الأقوام لا يشاكل الواقع وانما يمشى على وتيرة واحدة فى القصة الواحدة ، وهو الامر الذى يحاول أن يمضى القصص على خلافه فى هذه الايام ، اذ نرى الحوار يمثل نفسية المتحاورين وأسلوبهما فى الحديث والمخاطبة ، وعقليتهما فى التفكير وفى الحركات الذهنية ، كما قد يمثل الحرف والصناعات •

ومرات قليلة تلك التى نجد الحوار فيها يمثل شخصية المتحاورين وما فيها من قوة وجبروت وما لها من عظمة وكبرياء وتلك هى المحاورات التى يقصها القرآن الكريم على لسان فرعون أو على لسان ابليس حين يحاور كل واحد منهما شخصية الرسول الذى قام الى جانبه فى القصة كشخصيات موسى وآدم عليهما السلام ، وهى مرات لا تجعلنا نطمئن اليها أكثر من اطمئناننا الى الامر الآخر وهو ان الحوار انما يمثل أكثر من كل شىء الدعوة الاسلامية ونفسية محمد عليه الصلاة والسلام •

ماذا فى الجانب الآخر

ترجمة : فتحى أبو رفيعة

كان جهاز البيدومتر الذى أحمله (وهو جهاز يعد الخطوات التى أقطعها فى الطريق) يشير الى أننى لم اكن قطعت أكثر من خمسة وعشرين ميلا • ورغم أنه كان شيئا مؤسفا أن أتوقف عن المسير الا أننى كنت متعبا الى حد كبير فجلست على أحد الاحجار الموجودة فى الطريق أنشد الراحة ولو للحظات • وكنت ألمح الناس وهم يتعدوننى وعلى وجوههم علامات الاستهزاء والتهكم لكننى كنت فى حالة من التبلد والجمود منعتنى من الاحساس بالغيظ أو التبرم لما يبدون من استخفاف ، وحتى عندما مرت بى « مس دمبلبى » ، وهى معلمة ذات شأن ، واستحثتنى على المثابرة والاستمرار فى السير فقد ابتسمت لها فقط ورفعت قبعتى محييا اياها •

ولقد ظننت فى أول الامر أننى سأنتهى الى نفس النهاية التى آل اليها أخى ، فلقد تركته على نفس الطريق منذ عام أو عامين • لقد أضاع أخى حياته فى الغناء ، وأضاع قوته فى مساعدة الآخرين • أما أنا فلقد كنت أنظم رحلاتى بحكمة أكثر ، وما أرغمنى على الاستسلام فى هذه المرة الا هذا الطريق الممل الكئيب • كان الطريق متربا ، وتحف بهمن على الجانبين احراش جافة سمراء ، ولقد لازمنى هذا المنظر طوال سيرى على الطريق •

وعلى الطريق كنت قد اسقطت أشياء كثيرة • وفى الحقيقة كان الطريق خلفى مغطى بأشياء كثيرةخلفناها جميعا ونحن نسير عليه • وكان التراب الابيض يغطى كل تلك الاشياء حتىبدت جميعها كأنها أحجار ملقاة فى عرض الطريق • وكنت منهكا لا أقوى على حمل ما بقى معى من أشياء •• واضطجعت على الحجر الملقى فى الطريق منهكا وأنا أولى وجهى ناحية الحرش الجاف داعيا الله ان تكون تلك هى نهاية المطاف •

وهبت نسمة خفيفة بعثت الحياة فى أوصالى •• وبدا لى أن تلك النسمة أتت من الحرش المواجه لى •• وعندما فتحت عينى كان هناك بصيص من النور خلال تشابك الفروع والاوراق الميتة • ولم يعد الحرش كثيفا كما كان • وفى حالتى الواهنة المخيفة وددت لو امكننى ان أشق طريقى خلاله لارى ماذا فى الجانب الآخر • وعلى مدى بصرى لم أر أى انسان وما كان لى أن أجرؤ على التفكير

فى ذلك اذ أننا ونحن على الطريق لم يكن فى محادثاتنا ما يدل على أن هناك جانبا آخر بالمرة .. واستسلمت للاغراء قائلا لنفسى اننى يجب أن أعود فى ظرف دقيقة واحدة . وأحدث الشوك خدوشـــا فى وجهى ، واســتخدمت ذراعى كدرع يقينى منه . واعتمدت على قدمى فقط كى توجهانى الى الامام .

وحينما وصلت الى منتصف الطريق وددت لو أننى تمكنت من العودة فكل الاشياء التى بقيت معى كانت قد سقطت منى ، واما عن ملابسى فلقد كانت تقطعت تماما .. وأصبحت عودتى مستحيلة اذ أننى أصبحت محاطا بالاحراش من كل جانب . وكان على أن أشق طريقى الى الامام دون أن أرى أى شىء على الاطلاق متوقعا أن تخوننى قواى فى أى لحظة وتكون نهايتى حيث أنا .

وفجأة أحسست بماء بارد يحتوينى ويغطى رأسى . وأحسست أننى أغوص فى أعماق لانهائية . وســقطت من الحرش الى بحيرة عميقة .. وأخيرا طفوت على السطح وأنا أصرخ طالبا النجدة . وسمعت رجلا فى الجانب المواجه يضحك ويقول متعجبا : « انظروا ! هاقد أتى واحد آخر ! » .

وبعدها جــذبت الى خارج البحيرة ووضعت وأنا ألهث على الارض الجافة .

وحينما أفقت من غيبوبتى وفتحت عينى كنت فى غاية الدهشة اذ أننى لا أذكر أننى رأيت مساحة شاســعة كتلك التى رأيتهـــا ، ونظرت فوقى فوجدت السماء رقعة زرقاء واســعة .. وحــول كنت أرى الجبال وأشجار الزان العــالية .. والمــروج الخضراء والبحيرات الصافية .

وكان المكان يفوح برائحة البشر .. كان كثير الشبه بحديقة أو متنزه .. وما أن استرددت أنفاسى حتى نظرت الى منقذى وقلت :

ـ الى اين يقود هذا المكان ؟»

وقال الرجل ضاحكا ـ شكرا لله !! انه لا يقود الى شىء .

كان رجلا فى الخمسين أو الستين من عمره .. من ذلك النوع من الناس الذين لانثق بهم ونحن على الطريق رغم أنه لم يكن فى تصرفاته مايدعو الى القلق . أما صوت الرجل فكان يوحى بأنه شاب فى الثامنة عشرة .

وصحت فى وجه الرجل :

ـ لكن هذا الطريق لابد أن يقود الى شىء .

وصـــاح الرجل الى بعض الرجال الموجودين على سفح التل :

ـ انه يريد أن يعـرف الى أين يقود هذا المكان ـ ولم نتلق ردا لكن الرجال ضحكوا وهم يلوحون لنا بقبعاتهم .

ولاحظت فيما بعد أن البحيرة التى سقطت فيها كانت فى الحقيقة خندقا يحوطنا من الشمال ومن اليمين . وكان الحرش ملازما لحافة البحيرة . وكان أيضا أخضر اللون فى هذا الجانب ، وجذوره تظهر خلال المياه الصافية والسمك يعوم حولها . وكان المكان عامة جميلا تملؤه الازهار . وأحسست أن كل هذه الاشياء ليست الا حاجزا كبيرا . وفى لحظـــة واحدة فقدت بهجتى . نسيت العشب الاخضر والسماء الصافية والاشــجار العالية ونسيت السعادة التى ينعم بها الرجال والنساء فى هذا المكان وأيقنت

انه ليس الا سجنا رغم كل ماله من جمال واتساع ٠

وتحركنا من مكاننا وسرنا فى طريق تحف به المروج ٠ ووجدت أنه من الصعب أن أسير فلقد تعودت على أن أفوق كل زملائى فى السير ، ووجدت أنه ليس هناك أى امتياز فى ذلك مادام الطريق لايقود الى شىء ٠

ووقفت فجأة وأنا أقول فى يأس : ان ذلك شىء مخيف للغاية ٠ كيف لايستطيع الانسان أن يتقدم وأن يتطور انه شىء مخيف فعلا ٠٠

ـ نعم أنا أعلم ذلك ٠

ـ أريد أن أقول اننا فى تقدم مستمر ٠

ـ نعم أنا أعلم ذلك ٠

ـ اننا دائما نتعلم ـ نتوسع ٠٠ نتطور ٠٠ اننى فى حياتى القصيرة شاهدت كثيرا من الاختراعات ٠٠ انظر مثلا هذا الـ ٠٠

وأظهر له البيدومتر ٠٠ لكنه كان لايزال يشير الى الخامسة والعشرين ولم يتحرك عنها درجة واحدة ٠ وصحت :

ـ لقد توقف ٠٠ كنت اريد أن أريك اياه ٠٠ كان يجب أن يسجل كل الوقت الذى سرته معك ٠٠ لكنه مازال يشير الى الخامسة والعشرين ٠٠

وقال الرجل باتزان :

ـ ان أشياء كثيرة تتوقف عن العمل هنا ٠

ـ لكن قوانين العلم شاملة فى تطبيقها ٠٠ لا بد فقط أن الماء الموجود فى البحيرة هو الذى أفسد الآلة ٠٠ ان كل شىء يعمل فى الحالات الطبيعية ٠٠ العلم وروح المنافسة ٠٠ ان هذين الشيئين هما اللذان جعلا منا ماهو نحن الآن ٠

وتوقفت عن الكلام لأرد التحية للناس الذين كنا نمر بهم ٠٠ كان بعضهم يغنى والبعض يتكلم ٠٠ والبعض مشغول فى العمل فى أى شىء ٠٠ وكان كل الناس يبدون فى غاية السعادة ٠ وربما كان من الممكن أن اكون أنا الآخر سعيدا لو امكننى أن أنسى أن هذا المكان لايقود الى شىء ٠

واستلفت نظرى شاب جاء يعدو خلال الطريق ثم احتمى بحاجز صغير وراح يبكى بكاء مرا فوق أرض محروثة حتى أصبح غارقا فى بحر من دموعه بدأ بعدها يعوم فيه فعلا ٠٠ وكان الرجل فى الحقيقة نشطا للغاية وهو يسبح ٠٠ وسألت رفيقى :

ـ هل هو سباق ؟ ٠٠ أين الآخرون اذن ؟ ٠

ـ ليس هناك آخرون ٠

قال الرجل ذلك ثم مررنا على بعض أعشاب طويلة يخرج منها صوت فتاة تغنى غناء عذبا ٠٠ وقال الرجل مرة ثانية :

ـ نعم ٠٠ ليس هناك آخرون ٠

وكنت فى حيرة من أمر هؤلاء الناس وتمتمت الى نفسى متسائلا :

ـ ماذا يعنى كل ذلك ٠
وقال الرجل :

ـ انه يعنى ما يعنى ٠

ثم كرر كلماته على مسمعى بهدوء كما لو كنت طفلا صغيرا ٠٠

وقلت أنا بهدوء أيضا :

ـ اننى أفهم ٠ لكنى لا أوافق ٠٠ان أى انتصار لاقيمة له ان لم يكن حلقةفى سلسلة التطور ٠ ويجب ألا أثقل عليك اكثر من ذلك ٠٠ يجب أن أعود بأى طريقة الى الطريق الذى كنت فيه ٠

ـ لكنك أولا لابد أن ترى بواباتنا .. ان لنا بوابات رغم أننا لا نستعملها أبدا ٠

واستسلمت بأدب ٠٠ ولم يمر وقت طويل حتى وصلنا مرة أخرى الى البحيرة ٠٠ وفى هذا المكان اقيمت عليها قنطرة تمتد عليها بوابة عظيمة بيضاء كأنها العاج ٠٠ وكانت البوابة فى مكان لايوجد فيه الحرش الممتد ٠ وكانت تفتح للخارج ٠٠ وعندما صرت أمامها صحت فى دهشة فلقد كانت تفتح على طريق يشبه تماما الطريق الذى تركته ٠٠ طريقا متربا تحف به من على الجانبين أحراش جافة سمراء ممتدة على مدى البصر ٠

وصحت قائلا : هذا هو طريقى ٠٠

لكن الرجل أغلق البوابة وقال :لكنه ليس مكانكمن الطريق٠٠ ان الانسانية عبرت خلال هذه البوابة منذ قرون عديدة عندما تملكتها الرغبة فى السير٠

ولم أصدق ماقاله الرجلفلقد لاحظت ان المكان الذى تركته وأنا على الطريق لايبعد اكثر من ميلين ٠٠ ولكن ملامح الرجل كانت عنيدة وهو يقول لى :

ـ نعم ٠٠ انه نفس الطريق ٠٠ولكن هذه هى البداية ٠٠ ورغم أن الطريق يبدو أمامنا مستقيما الا أنهغالبا مايتفرع ٠٠ انه لا يبعد عن دائرتنا فى أى وقت بل انه يتلامس معنا فى أغلب الاحيان ٠

وبعد ان انتهى الرجل من حديثه جلسنا بجانب البحيرة ورحت أحاول اقناعه بخطئه ٠

قلت له : ان الطريقيتشعب بالتأكيد ٠٠ أنا معك فى ذلك ٠٠ لكن من ينكر أن الصفة العامة للطريق هى أنه يمتد للأماميتقدم .. أما الى أى هدف فهذا مالا نعرفه ٠٠ربما يقود الى جبلنستطيع من عليه أن نلمس السماء ٠٠ بل ربما يقود الى هاويات تودى بنا الى البحر ٠ لكنه على أى حال يقود الى الامام ٠٠ من ينكر ذلك ؟ ٠٠ انه التفكير فى التقدم هو الذى يجعلنا نبذل الجهد فى سبيل التفوق ٠ كل بطريقته ٠٠ وذلك يعطينا الدافع الذى ينقصك أنت وأهل بلدتك ٠٠ انظر مثلا ذلك الرجل الذى مر بنا ٠٠ لقد كان يجرى بسرعة كبيرة ٠٠ ويقفز بطريقة حسنة ـ ويعوم بطريقة حسنة أيضا ـ لكن لدينا من يمكنهم الجرى بسرعة أكبر ٠٠ ومن يقفزون ويعدون بطرق أحسن ٠٠ ان التخصص عندنا يعطى نتائج تدهش لها كثيرا ٠٠ خذ على سبيل المثال هذه الفتاة ٠

وهنا توقفت عن الكلام لحظة ثم أكملت :

ـ يا الهى : اننىأقسم أن«مسدمبلبى» هى التى كانت تغنى هناك ٠

وقال الرجل انها هى فعلا مس دمبلبى ٠

« مستحيل ! لقد تركتها على الطريق وعليها أن تحاضر هذه الليلة فى تنبردج ويلز ـ كيف يحدث ذلك ٠٠ لقد قام قطارها من كانون ستريت فى ٠٠

ونظرت الى ساعتى .. لكنها كانت متوقفة .

« نعم لابد أن تتوقف هى أيضا ككل شىء هنا .. مستحيل..ان مس دمبلبى هى آخر شخص يمكن أن يكون هنا .

وقال الرجل بنفس اتزانه :

« ان النـاس يندهشون كثيرا حينما يتقابلون .. ان الناس من كل الاجناس يأتون الى هنا .. وفى أى وقت ..انهم يأتون خلال الحرش .. المتفوقـون فى السير .. والذين يتخلفون على الطريق والذين يتركون للموت .. كلهم يأتون الى هنا .. اننى دائما أقف على شاطىء البحيرة وأتسمع الأصوات الصادرة عن الطريق .. وأكون فى غاية السـعادة حينما أنقذ أحدا من البحيرة التى سقطت فيها .. ان بلدنا تمتلىء ببطىء مع أنها وجدت لكل البشرية .

وقلت للرجل بلطف : « ان للبشرية أهدافا أكبر .. ولا بـد لى أن ارتبط بها .. وتمنيت له مساء طيبا .. فلقـد كانت الشمس ساعتها تميل ناحيـة الغروب .. وقلت له أنه بحلول الليل لابد أن اكون على الطريق .

ومما زادنى انزعاجا أن الرجل أمسك بتلابيبى وهو يصيح : كلا .. لم يحن بعد ميعاد رحيلك » .

وحاولت التخلص من الرجـل فليس هناك أية مصالح تربطنى به بعد ذلك .. وخاصة بعد ان بدأت أمل مجاملاته السـخيفة .. ورغم كل محـاولاتى للتخلص الا أن الرجل العجوز المتعب لم يدعنى أذهب .

واضطررت أن أتبعه .. فلقد كان من المستحيل فعلا أن إصل الى المكان الذى أتيت اليه وحدى .. وتمنـيت أن يرشدنى الرجل اليه .. وكنت مصمما على ألا أمضى ليلتى فى هـذه البلدة لأن ثقتى كانت قد انعدمت بالرجل وبالناس رغم كل ما كانوا يظهرون لى من صداقة ..

ورغم أننى كنت جائعـا الا أننى لم اشاركهم فى وجبة المساء التى تتكون من اللبن والفاكهة .. وعنـدما كانوا يعطوننى الزهور كنت أقذف بها بعيدا بمجرد أن يكون فى استطاعتى أن أفعل ذلك دون أن يلاحظنى أحد .

وعندما حل المساء تناثر الناس نياما كأنهم الماشية .. فالبعض على سـفح التل العارى .. والبعض فى جمـاعات تحت أشجار الزان العالية .

وفى ضوء الشمس البرتقـالى ساعة الغروب كنت أسرع بجانب مرشدى الذى لم أعد أطيقه .. وكنت منهكا تماما .. ولكننى كنت أتمتم بغير وضوح :

« اعطنى الحياة بما فيها من نضال.. وانتصارات .. وبما فيها من فشل ومن أحقاد .. بما فيها من معان أخلاقيـة وبما لها من هدف لا نعرفه ..

***

فى النهاية أتينا الى مكان من البحيرة تقام عليه قنطرة أخرى تمتد عليها بوابة ثانية تحتل مكانها بين الحرش الموازى للبحيرة .. وكانت هذه البوابة تختلف بالنسبة لسابقتها .. اذ كانت تفتح الى الداخل .. وفى الضوء الخافت رأيت مرة أخرى طريقا كالطريق الذى تركته .. طريقـا مملا .. متربا تحف به الاحراش السمراء الجافة الممتدة على مدى البصر من على الجانبين .

وشعرت بنفسى تنقبض وشـعرت بنفسى أتهاوى من شـدة التعب . ومر



بنا رجل عائد فى المساء الى الجبال وهو يحمل منجلا كبيرا على كتفه وبيده وعاء به مشروب لا اعرف ماهو .. ونسيت تعبى وضيقى .. ونسيت الطريق الذى كان يمتد أمام عينى .. واندفعت خلف الرجل وانتزعت الاناء من يده ورحت اشرب .

كان المشروب الذى بالوعاء شيئا أقوى من البيرة قليلا..لكنه أبدى تأثيرا قويا على وخاصة أننى كنت منهكا متعبا لدرجة كبيرة ..

وكما لو كنت فى حلم رأيت العجوز يغلق البوابة وسمعته يقول: «ان طريقك لينتهى فى هذا المكان .

وخلال هذه البوابة سوف تاتى لنا كل البشرية أو قل ما بقى منها .

ورغم أن كل حواسى كانت قد فقدت وظائفها الا أنها قبل أن تفقدها تماما كنت قد أدركت سحر أغانى العندليب من حولى ورائحة العشب الحلوةالتى تخللت خياشيمى ..والنجوم التى كانت تتلألأ فى السماء .

أما الرجل الذى اغتصبت منه الشراب فلقد انحنى الى برفق محاولا أن يخفف عنى أثره وبينما كان يفعل ذلك اكتشفت شيئا مثيرا ..كان الرجل هو أخى ..

بين القصة والقراء



يقدمه : ثروت أباظة

حسن عبد البارى

قصتك ساقية بندارى . أعجبنى ختامها . فهى الى ما قبل السطرين الاخيرين لاشىء . ولا ضير عليك من هذا . واحب أن أشرك القراء معى فى موضوع قصتك فهى عن فلاح يقصد اليه ابنه الذى يتعلم فى الجامعة يخبره أن الكلية فصلته حتى يأتى بالمصاريف ولا يجد أبوه مناصا من بيع جاموسته التى تقوم عليها حياته . ويأخذ الابن ثمن الجاموسة ويعود الى كليته وحين تعود الام من توديع ابنها تسمع صوت زوجها يغنى فتسارع اليه لتجده قد أحل نفسه محل الجاموسة فى ادارة الساقية فتدور هى معه . وفى القصة كثير من العمق . ومن الصدق . الا اننى آخذ عليك شيئين فى التفصيلات ، أما الاول فهو انك قلت « وسافر الابن مسرورا سعيدا لأنه لايحس بما تكبده الأهل فى سبيل راحته » وهذه الجملة لم يكن ما يبررها فى سياق القصة هذا فضلا عن صراحتها التى لاداعى لها . أما المأخذ الثانى فهو أن الام حين عادت من توديع ابنها كادت تصرخ من الدهشة حينما سمعت زوجها يغنى وازير الساقية يختلط بغنائه وجرت وهى تمنى نفسها بأن يكون زوجها قد استدان النقود واعاد الجاموسة. ترى هل يتسع وقت توديع الابن أن يقترض ويسترد. كأنك يا اخى لم تعش فى الريف. لاعليك فما هما الا هنتان لا ينالان من قصتك. ولكن المأخذ الذى يمنعنى من نشر القصة فهو قصرها البالغ قصرا يجعلها لاتصلح لحجم المجلة. ولكنى انتظر قصتك القادمة فموهبتك تنبىء عن فنان صادق. وأرجو ألا تكون قصتك القادمة قائمة على الحوار العامى فى سياقها جميعا الأمر الذى لم يجعلنى اتبين اسلوبك على الأطلاق بحيث أصبحت القصة أقرب ما تكون الى تمثيلية اذاعية .

أحمد فراج العبد :

ياسيدى أنالاأطالبك بقائمة ماقرأته. وانما أطالبك بأن يبين اثر ما قرأته فيما تكتب . ان ما قرأته يقف وراء ما تكتبه فان كنت قد قرأت كل ما كتبه الأولون والآخرون ثم خرجت كتابتك خلوا من اثر هذه الثقافة فالعبء يقع عليك وحدك . ولن تجد كاتبا يقوم كل عمل له بقائمة ما قرأه انما يمثل ما قرأه جميعا فى كل حرف يخطه فى عمله الفنى . ان كنت يا سيدى قد قرات ثم لم تقنعنى انك قرات فانت بين اثنتين أما أن تضاعف قراءتك أو تكتفى بالقراءة .

قصتك هذه الأخيرة لاباس بها . وهى فى الواقع تدل على انك قرات فعلا . ولكن الا ترى معى أنها كانت تحتمل تعمقا فى مشاعر صاحبك المسافر اكثر مما فعلت فهى قصيرة جدا وعرضك للمشاعر سريع عابر بينما القصة قائمة على عرض هذه المشاعر .

وعرضك فى هذه المرة ليس ساذجا بل انى ارى فيه اصالة . واعتقد اننى سانشر لك اذا ارسلت الى قصة يصلح حجمها للنشر .

محمد حسن شهاب :

أوافقك على رأيك جميعا . وانما نتيح الفرصة للكتاب أن يقولوا مايحلو لهم وان كان هذا مخالفا للمنهج الذى نراه ، وأعتقد أن الأستاذ فؤاد القصاص لايخالفنا الرأى . بل ان قصته نفسها ليس كما يظن ـ بلا أسلوب ـ فليس هناك قصة بلا أسلوب . هناك اسلوب ردىء واسلوب حسن وفقط . واعتقد أن الأستاذ فؤاد أخطأ التعبير عما يريد قوله .

سمير ابراهيم بسيونى :

اسلوبك جميل ولكنك تعتمد عليه اعتمادا كبيرا . فالصفحة الأولى من قصتك معنى واحد لم يتغير تقلبه فى كل سطر بالفاظ جديدة . أنا من الذين يحبون الأسلوب الجميل ولكنى لاأجيز له أن يعدو على القصة ذاتها. وقد أغراك هذا الأسلوب نفسه أن تكتب فى قصتك فلسفة صريحة وكانها مقال . القصة لاتحتمل هذا . انما يجب أن تتخفى فلسفتك وآراؤك وراء الأحداث والاشخاص . انك لم تبدأ قصتك الا فى الصفحة التالية من قصتك التى تقع فى اربع صفحات وتركتنا نلهث وراء افكار صاحبك التى هى افكارك وارائه التى هى آراؤك صفحتين ونصف صفحة . القارىء للقصة يريد أن يقرأ قصة اما اذا اراد اراء صريحة وفلسفة ناصعة واسلوبا جميلا فانه يستطيع أن يقع على هذه الامور فى مظانها الاخرى . ثم أنت حين بدأت تسرد حوادث القصة لم تتركها لتروى وانما لاحقتها بآرائك لا تخرج الينا من خلال الاحداث حتى ماتكاد نرى حدثا يكتمل . وحين أنهيت قصتك كنت فى الواقع قد انهيت عاصفة نفسك ولم تقدم الينا قصة . اسلوبك شاعرى وأنت فى خطابك تقول انك شاعر . ولكن هذا وحده لايكفى لأن يجعل منك قصاصا . يبدو أنك قرأت فى الشعر اكثر كثيرا مما قرات فى القصة .

وانا واثق أنك حين تدرس فن القصة ستستطيع أن تقدم الينا شيئا جديرا بالنشر والتقدير .

سيد سعيد :

اشكرك على جميل ظنك بى . وارجو الا ترسل الى فى المرات القادمة اكثر من

قصة واحدة . فانا فى الواقع لا اقرأ قصتين من شخص واحد حتى اتيح الفرصة لغيره ممن يرسلون قصصهم . وقد قرأت لك فى هذه المرة قصتك « الصخر » لاأخفى عليك ياأخى أننى قرأت بكثير من التحفظ جملتك الاخيرة التىتقول فيها انك تقوم بتجارب جديدة فى التكنيك ولكننى بعدان قرأت قصتك الممتازة الصخر رحبت فى نفسى أن تقوم بهذه التجارب . انك لاشك كثير القراءة وللادب الأمريكي بالذات - فيما اعتقد - وان عدم رضائك عن نفسك - الامر الذى لا أجد فى كتابتك ما يبرره - مرده فى نفسك هو اطلاعك على الادب العالمى . اننى أيها الاخ اهنئك على قصتك هذه وساحاول نشرها على الرغم من قصرها . وسانشر لك ماترسله مادام بهذه الجودة فاننى لا أشك أنك موهبة جديرة ان تأخذ مكانها بين كتاب القصة .

وقد عدت أقرأ قصتك الثانية القبضة وقد عاقنى سوء الخط فيها أن أمضى فى قراءتها . أرجو أن ترسلها الى مكتوبة بالآلة الكاتبة . كما أرجو ان تعيد قراءتها من ناحية اللغة .

محمد أبو الحسن السيد ابراهيم :

اولا اشكر لك تقديرك الجميل . ثم انا بعد ذلك آخذ عليك تسرعك فى الكتابة قبل ان تكتمل آراؤك . انك فى السطر الثانى من قصتك تقول أخلاقه « الدئمة » وانت بالطبع تقصد « الدمثه » ثم تصف الاستاذ عبد الصبور فتقول فى أثناء وصفك وقد كسى طربوشه رأسه وانت بالطبع تقصد كسا بالالف . وهناك بالطبع اخطاء نحوية . الا ترى معى انك تعجلت فى الكتابة .

عبد النبى صديق محمود :

استطيع ياسيدى أن تقول لى ماذا أردت بقصتك هذه . ان القصة فيما كتبت . حوار ضعيف ساذج بين أم وولدها . ولدها ذاك الذى ترك المحاضرة وجرى الى امه لأنه تركها فى الصباح مريضة حتى اذا بلغها سألته ماذا تفعل اذا مت فيقول لها لاقدر الله ونامت الام نوما عميقا وراح هو يصلى أن يطيل الله عمرها .

وتنتهى القصة . كيف ياسيدى تكتب قصة وانك فيما يبدو لى لم تقرأ قصة ابدا . انكنت قد قرأت ياسيدى فارجو أن تعدل عن الكتابة اما اذ كنت لم تقرأ فاقرأ واقرأ واقرأ ثم اكتب لتعرف مدى الصدق فى موهبتك أما الآن فاننا نظلم انفسنا ونظلمك ظلما فادحا لو اننا حكمنا على موهبتك .

حلمى خليل :

قصتك جميلة . التحليل فيها عميق . والغوص فى اعماق فتاتك العانس غوص يدل على انك قصاص وفنان . وقد استطعت أن تجعلنا نسير معقصتك فى غير افتعال وفى اسلوب عربىسليم . حبذا يا أخى لو راعيت لغتك كما تراعى فنك . لا أدرى لماذا يفصل الفنانون من القصاصين بين اللغة وبين فن القصة فى ذاته . لو أن موسيقيا اراد أن يؤلففى الموسيقى لما قبل احد منه هذا قبل ان يقرا النوتة . ولو أن مصورا اراد أن يرسم لما اتيح له هذا حتى يعرف الالوان وكيف يخط الخطوط . اللغة بالنسبة للقصاص كالنوتة للموسيقى وكالالوان للرسام .

أخطاؤك – مع هذا – قليلة ولكنك تستطيع أن تتلافاها . وسانشر قصتك هذه فى أقرب فرصة ان شاء الله .

عنتر عبد السلام مخيمر :

الفكرة القصصية عندك لابأس بهـا ولكنك لاتطورها ولا تتعمقها وأظن أننى أخذت عليك هذا المأخذ نفسه فى قصة سـابقة لك . لماذا يا أخى لاتتعمق شخصياتك . انها شخصياتك أنت الذى خلقتها والمفروض انك تعرف كل خلجة من خلجاتها ... الا تعرفها ... تعرف عليها .. ادخل الى صدورها . انظر كيف يفكرون ولماذا ... صورت لنا فى قصتك حب فتاة مشوهة لبطـل قصتك لماذا لم تصاحب هذه الفتـاة المشوهة وتروى لنا بعضا من عواطفها وأفكارها وأحلامها وأحزانها . وهـذه الفتـاة الجميلة الاخرى التى تظهر فى موعد معين ... ما أحـلامها ... ما آمالها ... من هى ... تتبـع شـخصياتك فانى أنتظر أن أقرأ لك شيئا جديدا بالنشر .

عبدالله غانم محمد – كنيا :

نشكر لكم اهتمامكم بكاتبنا الاستاذ على أحمد باكثير ، وأن مجلة القصة ليسرها أن يشارك فيها الاستاذ باكثير بأى عمل من أعماله ، ولكنه الاستاذ باكثير معروف ككاتب مسرحى أولا ، ثم ككاتب رواية طويلة ، ولم يكتب القصة القصيرة، أو لم يشتهر بذلك . واننا مع ذلـك سنطلب الى الاستاذ باكثير أن يشـارك بأى عمل من أعمـاله الأدبية فى مجلة القصة .

والأستاذ باكثير يوالى نشر مسرحياته بمجلة الرسالة التى تصدر عن الادارة، ويمكن الاطلاع عليها على صفحات هذه المجلة .